أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته



ربيع إبراهيم محمد الشيخ

أخلاق الإسلام

و

أخلاق دعاته

ربيع إبراهيم محمد الشيخ

الفهرس

مقدمة

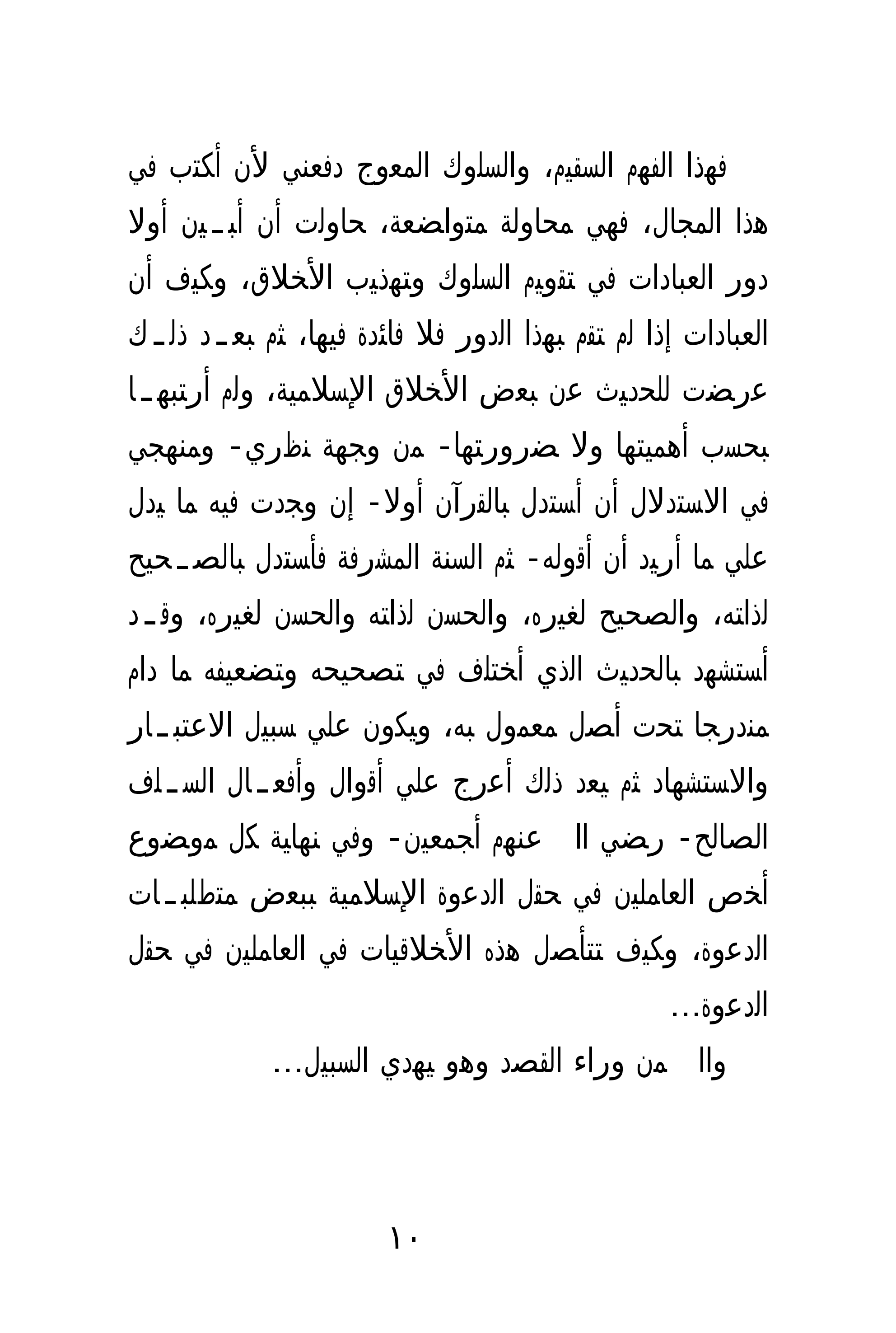
الحمد لله رب العـالمين، نحمـده- سـبحانه وتعـالي- ونستعينه ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فهو المهتد، ومن يضـلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق فسوي، وقدر فهدي، وأخرج المرعي فجعله غثاء أحوي، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بين الغاية التي من أجلها بعثـه الله - سبحانه وتعالي- فقال: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(١).

وبعـد...

فقد لوحظ أن قطاعـا كبيـرا مـن النـاس يصـلون، ويصومون، ويزكون، ويحجون، وربما تعـدوا ذلـك إلـي النوافل والمندوبات؛ ولكن رغم ذلك لا أثر لهـذه العبـادات علي سلوكهم وأخلاقهم، فقد تجد المصلي يغـش ويكـذب، ويغتاب الناس، وقد يأكل أموالهم ظلما، وقد يهتك أعراضهم، وقد تجد الصائم يسب ويقذف، ويفعـل الموبقات، وقد تجـد المزكي يمن علي من يعطيه ويؤذيه، وقـد تجد الحاج يلتهم

أموال الناس بالباطل، وهؤلاء جميعـا؛ إمـا أن يكونـوا لا يعيشون هذه العبادات بأرواحهم وقلوبهم ابتغاء مرضاة الله، فأداؤهم لها أداء صوري شكلي لا جـوهري؛ وإمـا أنهـم يفصلون بين العقيدة والأخلاق، وبـين العبـادة والمعاملـة، فشعارهم أن العبادة شئ، والحياة شئ آخر. فهم يقصـرون العبادة علي مجرد أدائها، فهؤلاء أصـيبوا بانفصـام فـي الشخصية؛ فهم في المسجد أولياء صالحون، وخارجه ذئاب ضوار... فهؤلاء ما فهموا العبادات حق الفهم، ففي الحقيقة ما فرضت العبادة إلا لتهذيب الأخلاق، وتقـويم السـلوك- فضلا عن أنها طاعة مطلقة لله. فلقد سأل الرسول صـلى الله عليه وسلم أصحابه ذات يوم فقال: أتدرون مـن المفلـس؟. قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال صـلى الله عليه وسلم: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامـة بصـلاة وزكاة وصيام ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مـال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسـناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار(١).



فهذا الفهم السقيم، والسلوك المعوج دفعني لأن أكتب في هذا المجال، فهي محاولة متواضعة، حاولت أن أبـين أولا دور العبادات في تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق، وكيف أن العبادات إذا لم تقم بهذا الدور فلا فائدة فيها، ثم بعـد ذلـك عرضت للحديث عن بعض الأخلاق الإسلامية، ولم أرتبهـا بحسب أهميتها ولا ضرورتها- من وجهة نظري- ومنهجي في الاستدلال أن أستدل بالقرآن أولا- إن وجدت فيه ما يدل علي ما أريد أن أقوله- ثم السنة المشرفة فأستدل بالصـحيح لذاته، والصحيح لغيره، والحسن لذاته والحسن لغيره، وقـد أستشهد بالحديث الذي أختلف في تصحيحه وتضعيفه ما دام مندرجا تحت أصل معمول به، ويكون علي سبيل الاعتبـار والاستشهاد ثم بعد ذلك أعرج علي أقوال وأفعـال السـلف الصالح- رضي اا عنهم أجمعين- وفي نهاية كل موضوع أخص العاملين في حقل الدعوة الإسلامية ببعض متطلبـات الدعوة، وكيف تتأصل هذه الأخلاقيات في العاملين في حقل الدعوة...

واا من وراء القصد وهو يهدي السبيل...

الفصل الأول

أولا: الصـلاة

الحكمة من توزيع الصلوات علي اليوم والليلة:

لعل الحكمة التي من أجلها جعـل الله - عـز وجـل- الصلوات الخمس موزعة علي اليوم والليلة، ولـم يجعلهـا دفعة واحدة في جزء من الليل أو النهار، لعل الحكمة مـن ذلك أن يظل العبد علي صلة دائمة بالله - عز وجل- فهـو يصلي الصبح ثم يخرج لكسب رزقه، فربما وهو في خضم الحياة يزل زلة أو يذنب ذنبا، فتأتي بعد ذلك صلاة الظهـر، يقف فيها العبد بين يدي الله - تعالي- مستشعرا عظمة الله، فيركع ويسجد، ويستغفر، ويطلب من ربه العفو والصـفح، ويجدد العهد مع الله، ثم يخرج إلي عملـه، فتـأتي صـلاة العصر فيجدد العبد عهد الله عليه، ثم صلاة المغـرب، ثـم صلاة العشاء فيقف فيها العبد مختتما أعمال يومه مسـتغفرا لذنبه منيبا إلي ربه، ينام مغتسلا من الذنوب.

ففي تكرار وقوف العبد بين يدي خالقه ومولاه؛ غسـل للقلب والجوارح من الذنوب.

فقد روي الطبراني عن عبد الله بن مسعود. رضي الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحترقـون تحترقون فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحتـ ـ ـرقون تحتـ ـ ـ ـرقون فـ ـإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صـليتم العشاء غسلتها، ثـم تنـامون فـلا يكتـب علـيكم حتـي تستيقظوا(١).

وروي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة- رضـي الله عنه- أن النبيصلى الله عليه وسلم قال: أرأيتم لـو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمـس مـرات، مـا تقولون يبقي ذلك من درنه شيئا؟ قالوا: لا يبقي ذلـك مـن درنه شيئا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا.

وروي البخاري ومسلم- واللفظ لمسلم- عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- أن رجلا أصاب من امرأة قبلـة، فأتي النبيصلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له. قال: فنزلت:

﴿ وَأَقِمِ الصلاَةَ طَرَفَي النهـارِ وزلَفًـا مـن الليـل ِإن الْحسنَاتِ يذْهِبن السيئَاتِ ذَلِك ذِكْرى ِللذاكِرِين﴾

[هود:١١٤].

قال: فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله ؟ قـال: لمـن عمل بها من أمتي.

(قال النووي- رحمـه الله -: واختلفـوا فـي المـراد بالحسنات هنا، فنقل الثعلبي أن أكثر المفسرين علـي أنهـا الصلوات الخمس).

***

الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر

يقول الله تعالي:﴿ اتْلُ ما أُوحِي ِإلَيك مِن الْكِتَـابِ وأَقِـمِ الصلاَةَ ِإن الصلاَةَ تَنْهى عنِ الْفَحشَاءِ والْمنْكَـرِ ولَـذِكْر الله أَكْبر والله يعلَم ما تَصنَعون ﴾ [العنكبوت:٤٥]

تبين هذه الآية ثمرة الأمر بإقام الصلاة، وهي أنها مـن شأنها أن تروض النفس علي ترك الفواحش، متـي أقيمـت بتمامها، بركوعها، وسجودها، وخشوعها، وطمأنينتها.

يقول صاحب الظلال- رحمه الله -: إن الصـلاة حـين تقام تنهي عن الفحشاء والمنكر، فهي إتصال بـالله يخجـل

صاحبه، ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقي بها، وهي تطهر وتجرد لا يتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما.

ويقول ابن كثير- رحمه الله -: وقال أبو العالية في قوله تعالي:

﴿إن الصلاَةَ تَنْهى عن الْفَحشَاءِ والْمنْكَر ﴾

قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شئ من هذه الخلال فليست بصلاة؛ الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله؛ القرآن يأمره وينهاه.

ويقول الإمام ابن تيمية- رحمه الله -: الصحيح أن معني الآية؛ أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر: فإنها تنهي عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة علي ذكر الله تعالي.

وفي الحديث: لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر(١).

وروي عن ابن عباس وابن مسعود- رضي الله عنهما- قالا: في الصلاة منتهي ومزدجر عن معاصي الله تعالي؛

فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكـر لـم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا.

وروي- مـرفوعا- مـن حديـث عمران بن حصين وابن عباس- رضي الله عنهما- من لم تنهه صـلاته عـن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا(٢).

يقول القرطبي: فالمعني المقصود من الحديث إشارة إلي أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته لغلبة المعاصي علي صاحبها.

وروي الإمام أحمد- رحمـه الله - مـن حـديث أبـي هريرة- رضي الله عنـه- قـال: جـاء رجـل إلـي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانا يصلي بالليل فـإذا أصبح سرق، فقال: إنه سينهاه ما تقـول أي أن محافظته علي الصلوات ستجعله يتوب عن الموبقات.

ومن ثم فالصلاة المقبولة هي التي تمـلأ القلـب نـورا وخشية، فيتطهر القلب ثم يفيض النور علي الجوارح فيكفها عن محارم الله تعالي.

فقد روي في الحديث القدسي إنما أتقبل الصـلاة ممـن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل علي خلقـي، ولـم يبـت

مصرا علي معصيتي، وقطع النهار فـي ذكـري، ورحـم المسكين، وابن السبيل، والأرملة، ورحم المصاب... ذلـك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتي، وأستحفظه ملائكتي، أجعل له في الظلمة نورا، وفي الجهالة حلما، ومثله فـي خلقـي كمثل الفردوس في الجنة(١).

***

ثانيا: الزكـــاة

الحكمة من الزكاة:

فرض الله - عز وجل- الزكاة تطهيرا لنفس المزكي من أمراض الشح والبـــخل، والطمـع والأثـرة وغيـــرها، وتطهـيرا لنفـس المزكـي عليـه مـن أمـراض الحقـد والحسـد، والغـل وسـائر أمـراض القلـب، وتطهيـرا للمال بإخراج حق الله فيه.

يقول تعالي:﴿ خُذْ مِن أَموالِهِم صدقَةً تُطَهرهم وتُـزكيهم بِها وصل علَيهِم إِن صلاَتَك سكَن لهم والله سمِيع علِـيم ﴾ [التوبة:١٠٣].

المن والأذي يبطلان مفعول الزكاة:

فإذا كانت الزكاة من شأنها أن تطهر نفـس المزكـي، ونفس المزكي عليه، فإن المن والأذي لا يزيدان كلا منهمـا إلا دنسا.

يقول الله تعالي ﴿ الَّذِين ينْفِقُون أَموالَهم فِي سبِيل الله ثُم لاَ يتْبِعون ما أَنْفَقُوا منا ولاَ أَذًى لهم أَجرهم عِنْد ربهـم ولاَ خَوفٌ علَيهِم ولاَ هم يحزنُون ﴾ [البقرة:٢٦٢]

فاشترطت الآية؛ لقبول الصدقة ألا تتبع بالمن والأذي.

والمن: أن يتحدث الإنسان بما أعطي حتي يبلـغ ذلـك المعطي له فيؤذيه.

يقول الله تعالي: ﴿ قَولٌ معروفٌ ومغْفِرةٌ خَير من صدقَةٍ يتْبعها أَذًى والله غَنِي حلِيم *.يا أَيها الذِين آمنُوا لاَ تُبطِلُـوا صدقَاتِكُم بِالْمن والأذَى كَالذِي ينْفِقُ مالَه رِئَـاء النـاسِ ولاَ يؤْمِن بِالله واليومِ الآخِرِ فَمثَلُه كَمثَل صفْوانٍ علَيـهِ تُـراب فَأَصابه وابِلٌ فَتَركَه صلْدا لا يقْدِرون علَى شَيءٍ مما كَسـبوا والله لاَ يهدِي الْقَوم الْكَافِرِين ﴾ [البقرة:٢٦٣-٢٦٤]

يقول صاحب الظلال- رحمه الله -: والمن عنصر كريه لئيم، وشعور خسيس واط، فالنفس البشرية لاتمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب، أو رغبة في إذلال الآخـذ، أو رغبة في لفت أنظار الناس، فالتوجـه إذن للنـاس لالله بالعطاء؛ وكلها مشاعر لا تجيش في قلب طيب، ولا تخطر كذلك في قلب مؤمن.

فالمن من ثم يحيل الصدقة أذي للواهب وللآخذ سـواء؛ أذي للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء، ورغبة في

رؤية أخيه ذليلا له كسيرا لديه؛ وبما يمـلأ قلبـه بالنفـاق والرياء والبعد من الله .

وأذي للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام، ومن رد فعل بالحقد والانتقام.

وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة، وملء البطن، وتلافي الحاجة... كلا! إنما أراده تهذيبا وتزكية وتطهيـرا لنفس المعطي، واستجاشة لمشـاعره الإنسـانية وارتباطـه بأخيه- الفقير- في الله وفي الإنسانية، وتذكيرا له بنعمة الله عليه، وعهده معه في هذه النعمة أن يأكل منها فـي غيـر سرف ولا مخيلة، وأن ينفق منها في سبيل الله في غير منع ولا من.

كما أراده ترضية وتندية لنفس الآخذ، وتوثيقـا لصـلته بأخيه في الله وفي الإنسانية؛ وسدا لخلة الجماعة كلها، لتقوم علي أساس من التكافل والتعاون يذكرها بوحـدة قوامهـا، ووحدة حياتها ووحدة اتجاهها، ووحدة تكاليفها، والمن يذهب بهذا كله، ويحيل الإنفاق سما ونارا، فهو أذي في ذاته يمحق الإنفاق، ويمزق المجتمع، ويثير السخائم والأحقاد.

الصدقة وصلة الرحم:

ما فرضت الصدقة(الزكاة) إلا لتقوية روابط الجماعـة، وتوثيق أواصرها؛ وأولي الناس بالإنسان هم أقاربه، لأن في ذلك زكاة وصلة.

ففي الحديث الشريف الصدقة علي المسكين صدقة وعلي ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة(١).

والصدقة علي ذوي الأرحام تطهر بـواطن الكاشـحين منهم، وتطفئ نار العداوة في دواخلهم (وذلك إذا لـم تتبـع بالمن والأذي).

وسأل رجل رسول الله -صـلى الله عليـه وسـلم- أي الصدقة أفضل؟ قال: علي ذي الرحم الكاشح(٢).

ثالثا: الصيـام

حكمة الصيام:

كما ذكرنا دور الصلاة في تهـذيب الأخـلاق وتقـويم السلوك، وعرفنا كيف أن الصلاة إذا لم تعمل علي ذلك فـلا فائدة منها، وكذلك الزكاة إذا لم يقصد بها وجه الله تعـالي، ولم تؤد بلا من ولا أذي فإنها لا تحقق غرضها الأساسـي، وهو التطهير، وبالتالي لا تعمل علي تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك.

فكذلك الصيام له دور في تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ويكون ذلك بتحقيق معني التقوي الذي أراده الله - سـبحانه وتعالي- من افتراضه للصيام حيث يقول- سبحانه وتعالي- : ﴿يا أَيها الذِين آمنُوا كُتِب علَيكُم الصيام كَما كُتِـب علَـى الذِين مِن قَبلِكُم لَعلكُم تَتقُون﴾ [البقرة:١٨٣].

فالغرض هو تقوي الله - عز وجل- التي تعمر القلـب فتصلحه وتقتل الدغل الذي فيه؛ فيفيض منـه النـور علـي جوارح الإنسان؛ فيهذب أخلاقه ويقوم سـلوكه فـإذا صـام الإنسان صوما صحيحا جني ثمرة ذلك وهي التقوي.

أما إذا أدي الصيام ولم يكن له مردود علي القلب، ومن ثم علي الأخلاق والسلوكيات فلا فائدة منه.

وإقرارا لهذا المعني قال رسول اا -صـلى ا عليـه وسلم-: من لم يدع قول الزور والعمل به فليسا حاجة في أن يدع طعامه وشرابه(١).

فالصيام الذي لا يكف صاحبه عن قول الزور، وشـهادة الزور، فلا فائدة منه، وقال- صلي اا عليه وسلم- أيضا: ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصـيام مـن اللغـو والرفث فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل إنـي صـائم(٢). ويقول-صلى ا عليه وسلم- أيضا: رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش(٣).

وقال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام.

وروي عن جابر- رضي اا عنه-: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب، ودع أذي الجار، وليكن عليك سكينة ووقار يوم صومك، ولا تجعل يـوم صـومك ويوم فطرك سواء.

وا   در القائل:

أهل الخصوص من الصوام صـومهم
صون اللسان عن البهتـان والكـذب
والعارفون وأهـل الأنـس صـومهم
صون القلوب عن الأغيار والحجـب

***

رابعا: الحج

يحسب كثير من الناس أنه بمجرد الذهاب إلي الأراضي المقدسة، وأداء المناسك يكون بذلك قد حج حجـا مقبـولا! بصرف النظر عن الأخلاق والسلوك والمعاملات!

وهذا فهم خاطئ، وسلب لأسرار العبادات وأثرها؛ وإنما الحج المقبول هو ذلك الحج الذي يغسل صاحبه من الذنوب والآثام، ولا يكون ذلك إلا إذا أحدث الحج في النفس تغييـرا انعكس علي سلوكه وأخلاقه ومعاملاته؛ وهـو مـا سـماه الرسول- صلي اا عليه وسلم- الحج المبرور.فعـن أبـي هريرة- رضي اا عنه- قال: سئل رسول اا -صـلى ا عليه وسلم- أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان باا ورسـوله. قيل ثم ماذا؟ قال: ثم جهاد في سبيل اا . قيل ثم ماذا؟ قال: ثم حج مبرور(١).

وإن من بر الحج:

١- ترك الرفث والفسوق والجدال: لقوله تعالي:{ بحـج أشهر معلومات فمن فرض فـيهن بحـج فـلا رفـثا لا

فسوقا لا جدال في بحجا ما تفعلوا من خير يعلمه بلها تزودوا فإن خير بزاد بتقوي'ا اتقون يا أولـي الألبـاب}[البقرة:١٩٧].

والرفث المقصود هنا هو الفاحش من القول، والفسـوق هو العصيان.

وفي الحديث، عن أبي هريرة- رضي اا عنه- قـال: قال رسول اا -صلى ا عليه وسلم: من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه(٢).

٢- الإحسان إلي الناس بجميـع الوجـوه: فكمـا فـي الحديث: أن النبي-صلى ا عليه وسلم-: سئل عـن البـر فقال: حسن الخلق(٣).

وكان ابن عمر- رضي اا عنهما- يقول:

٣- ومن بر الحج أن يطيب العبد نفقته:

وا در القائل:

٤- ومن بر الحج ألا يقصد العبد بحجه رياء ولا سمعة:

قال رجل لابن عمر- رضي اا عنهمـا- مـا أكثـر الحاج! فقال: ما أقلهم!!

وقيل: الركب كثير والحاج قليل.

٥- ومن بر الحج إطعام الطعام وإفشاء السلام:

فقد سئل الرسـ ـ ـول -صلى ا عليه وسلم- مـا بـر الحج؟ قال: إطعام الطعام وإفشاء السلام(١).

٦- ومن بر الحج الزهد في الدنيا:

قال الحسن- رحمه اا -: بر الحج: أن يرجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة.

٧- قال النووي- رحمـه اا -: الأصـح الأشـهر أن المبرور هو الذي لا يخالطه إثم، مأخوذ مـن البـر وهـو الطاعة، وقيل هو المقبول، ومن علامة القبـول أن يرجـع خيرا مما كان، ولا يعاود المعاصي.

قلت: الحج المبرور: هو الحج الذي يحدث في صـاحبه تغييرا نفسيا شاملا؛ فيغير وجهته، ويغير تصـوره وفكـره ومنهاجه في الحياة، فيتغير بذلك هدفه في الحيـاة، فيتغيـر بذلك سلوكه، وأخلاقه، وإذا شئت فقل: إن الحج المبرور هو الذي يحدث في صاحبه ثورة تصحيح شاملة.

أخي المسلم: تبين لك مما سبق مدي الرباط الوثيق بـين الحج كعبادة محضة وبين تقويم السلوك وتهـذيب الأخـلاق

كثمرة ناتجة عن بر الحج، وكيف أنهما متلازمان ولا يمكن الفصل بينهما.

هوامش الفصل الأول

(١) رواه الإمـام مالـك فـي الموطـأ- ورواه أحمـد فـي مسنده بلفظ(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) من حـديث أبي هريرة- وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح[انظر جـ ١٧ حديث رقم٨٩٣٩].

(١) رواه مسلم عـن أبـي هريـرة ورواه أحمـد فـي مسـنده جـ ١٧ حديث رقم٨٨٢٩.

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط بإسناد حسـن، وفـي الكبير موقوفا، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيـب، ومعني تحترقون: تهلكون من كثرة الذنوب.

(١) رواه ابن جريـر عـن عبـد الله بـن مسـعود مرفوعـا وموقوفا والموقوف أصح.

(٢) رواه ابن جرير.

(١) أخرجه البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) رواه أحمـد والترمـذي وقـال: حـديث حسـن، والنسـائي، وابـن ماجـة، والحـاكم عـن سـلمان بـن

عـامر، وصـححه الألبـاني فـي صـحيح الجـامع، ورواه كذلك الدارمي.

(٢) رواه الإمام أحمـد فـي مسـنده وإسـناده حسـن، ورواه الدارمي عـن حكـيم بـن حـزام مرفوعـا. الكاشـح: المضمر لعداوتك في باطنه.

(١) رواه البخــاري وأبــو داود والترمــذي.(٢) رواه ابــن خزيمة.

(٣) رواه ابــن ماجــه وصــححه الألبــاني فــي صــحيح الجامع.

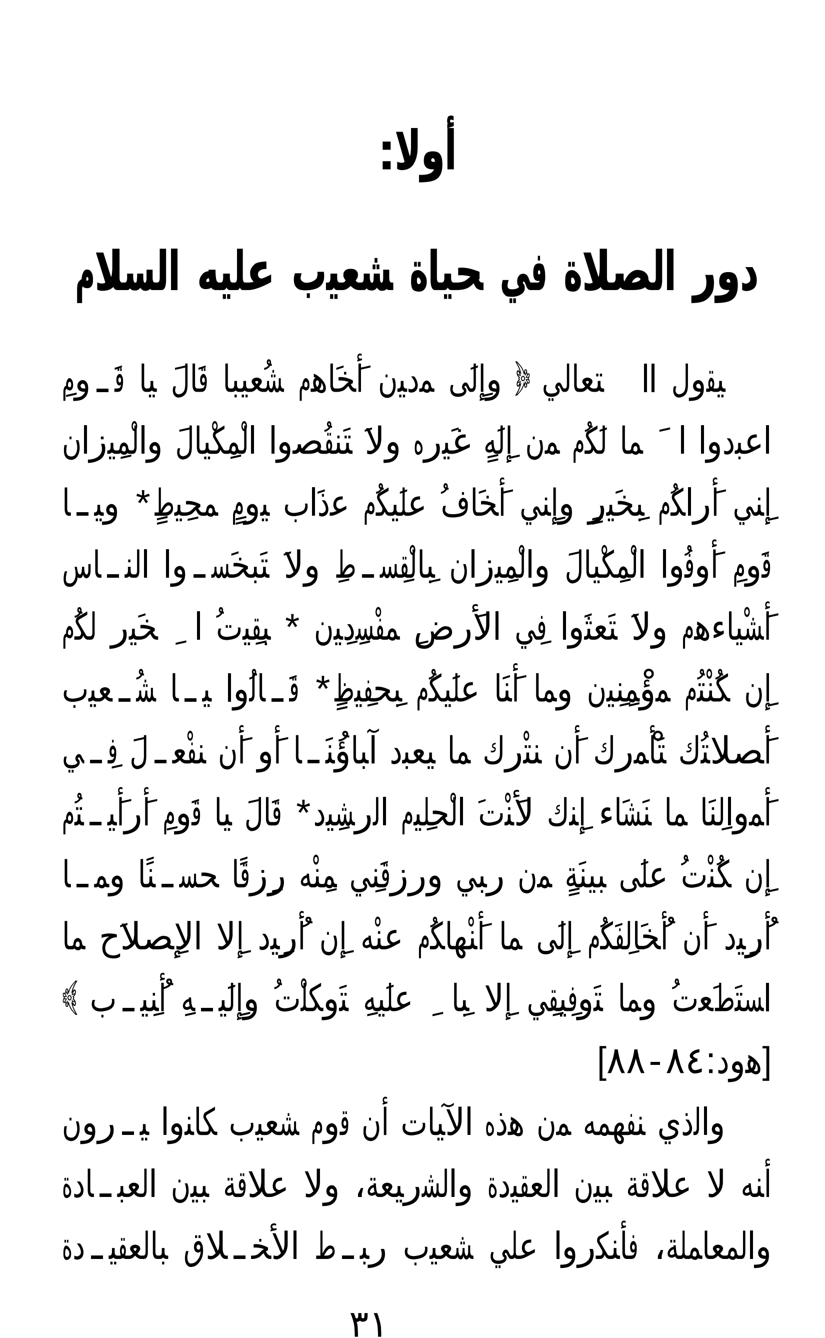
(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه البخــاري وغيــره[ورواه أحمــد فــي مســنده جـ ٢٠ حديث رقم١٠٢٧٩].

(٣) رواه مسلم.

(١) رواه أحمـد والحـاكم مـن حـديث جـابر رضـي اا عنه، قال الحافظ في الفتح: وفي إسناده ضعف فلـو ثبـت لكان هو المتعين دون غيره.

الفصل الثاني



أولا:

دور الصلاة في حياة شعيب عليه السلام

يقول الله تعالي ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ* وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ* قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ* قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٤-٨٨]

والذي نفهمه من هذه الآيات أن قوم شعيب كانوا يرون أنه لا علاقة بين العقيدة والشريعة، ولا علاقة بين العبادة والمعاملة، فأنكروا علي شعيب ربط الأخلاق بالعقيدة

والعبادة، وكأنهم أرادوا أن يقولوا له ما يقولـه كثيـر مـن المسلمين اليوم من أنه لا علاقة البتة بين العبادة والمعاملة.

والذي يتدبر هذه الآيات يجد أن صـلاة شـعيب عليـه السلام كانت وراء صموده أمام قومه وثباته علي دعوتـه، فكانت العمل البارز في حياته، والمعلم الواضح في دعوته، ومصدر الزاد الذي يتزود منه، حتي أنهم يرجعـون طلـب شعيب لهم بإيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم إلي الصلاة، فيقولون له: أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبـد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟!

يقول القرطبي- رحمه الله -: وروي أن شـعيبا عليـه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا علـي العبـادة فرضـها ونفلها. ويقول: الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكـر، فلمـا أمرهم ونهاهم عيروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة واستهزؤوا به فقالوا له ما أخبر الله عنهم والداعية الذي لا يكون لسان صدق لدعوته يسئ إليها بانحرافه عن أهـدافها ومنهاجها، فالناس- غالبا- لا يفرقون بين الدعوة والداعية، فتراهم ينفرون من الدعوة إذا رأوا انحرافا فـي الداعيـة، فتري شعيبا يقول:(وما أريد أن أخالفكم إلي ما أنهاكم عنه)

فهو لا يأمرهم بالعزائم ويترخص لنفسه، ولا يحرم علـيهم المكروهات ويبيح لنفسه الموبقات كما يفعل بعـض الـذين يتصدون للدعوة اليوم.

ويلقن شعيب الدعاة درسا عظيما وهو أن التزام الداعية بما يدعو الناس إليه هو بداية الإصلاح، فكيف يطمع الداعية في الإصلاح وهو لم يبدأ بنفسه ليجعل عمله وحده هو الذي يتكلم؟ فكيف يريد الداعية أن يصلح غيره وهو عاجز عـن إصلاح نفسه؟!!

وا   در من قال: عليكم أنفسكم فإن انتصرتم عليها كنتم علي غيرها أقدر، وإن عجزتم كنتم علي غيرها أعجز.

لقد انتشر الإسلام في كثير من بلاد العالم بالقدوة الحسنة حينما رأي الناس في دعاة الإسلام ما لم يجدوه في غيرهم.

ألا إن الدعوة الإسلامية اليوم تحتاج إلي من يكون لسان صدق لها يعبر عنها بسلوكه وأخلاقه ومعاملاته لا بمجـرد الكلام والشعارات.



ثانيا:

دور الصلاة في حياة إبراهيم عليه السلام

إبراهيم وسارة علي أرض مصر:

وصل إبراهيم- عليه السلام- إلي مصر وكان بها جبار من الجبابرة فأرسل إلي سارة. فإذا بإبراهيم- عليه السلام- يتوجه إلي اا بالصلاة والدعاء: فهـذا مـا فعلـه- عليـه السلام- لأن اا هو المرتجي، وهو الحافظ لعباده وأوليائـه وهو الذي يكشف الضر ويدفع البلاء، فاستجاب اا دعـاء إبراهيم- عليه السلام- ورد كيد الفاجر في نحـره وحمـي عرض رسوله إبراهيم عليه السلام.

ألا ما أحوج الدعاة إلي اا عز وجل إلي الصلاة لتكون ملاذهم الذي يلوذون به، ليطلبوا من اا معيته ونصرته، ألا ما أغير اا علي أعراض دعاته إذا أخلصوا في تـوجههم إليه وإذا ضحوا في سبيل دعوتهم.

إبراهيم- عليه السلام- وهاجر وإسماعيل بجوار البيت الحرام:

أمر الله عز وجل إبراهيم أن يذهب بإسماعيل وأمه هاجر إلي مكة ويتركهما بجوار البيت الحرام.

إبراهيم- عليه السلام- يتوجه إلي الله بالدعاء:

بعد أن ترك إبراهيم ولده إسماعيل وأمه- بأمر من الله - توجه إلي الله بالدعاء.

﴿ ربنَا إِني أَسكَنتُ مِن ذُرِيتي بِوادٍ غَير ذِي زرعٍ عِنْد بيتِك الْمحرمِ ربنَا لِيقِيموا الصلاَةَ فَاجعلْ أَفْئِدةً من الناس تَهوِي إِلَيهِم وارزقْهم من الثمراتِ لَعلهم يشْكُرون ﴾

[إبراهيم:٣٧].

وكان إبراهيم- عليه السلام- ما جاء بابنه وزوجه إلي هذا المكان إلا ليقيموا الصلاة، فإذا كانت ذريته تقيم الصلاة وعلي صلة دائمة بالله فإنها تكون في حفظ الله ورعايته فإن غاب الأب فالله موجود.

فهل تحقق طلب إبراهيم؟

نعم تحقق!.. لقد ربت هاجر إسماعيل علي طاعـة الله عز وجل... فقد ربته علي إقام الصلاة وعلـي الصـدق ﴿ واذْكُر فِي الْكِتَابِ إِسماعِيلَ إِنه كَان صادِقَ الْوعـدِ وكَـان رسولاً نبِيا * وكَان يأْمر أَهلَه بِالصلاَةِ والزكَاةِ وكَان عِنْـد ربهِ مرضِيا ﴾

[مريم:٥٤-٥٥].

ألا ما أحوج الدعاة إلي الله عز وجل إلي الثقة بموعود الله تعالي، فاستسلام إبراهيم- عليه السـلام- الاستسـلام المطلق لأمر الله عز وجل، وثقته بأن الله لن يضيع ابنـه وزوجه لهي الزاد للتغلب الكامل والاجتياز الكامل للمنعطف الخطير الذي يتساقط عنده الكثير مـن الـدعاة، ألا وهـو منعطف الزوجة والولد اللذان يكونان بمنزلة القيد الذي يربط الدعاة فلا يجعلهم ينطلقون متحررين من العلائق.

وما أحوجهم كذلك إلي الزوجة التي ترعـي أولادهـم وتحسن تربيتهم، ليكونوا أنصارا لدعوة الله عز وجل بـدلا من أن يكونوا عوائق لآبائهم، وتاريخ الدعوة يشهد بأنه مـا ترك الداعية ولده وزوجها إلا حفظه الله في دعوته وفـي ولده وزوجته، والكثير من الدعاة الذين قضوا نحـبهم كـان

الله عز وجل هو الخليفة في أولادهم فحملوا مشاعل النـور وكانوا علي الدرب نفسه الذي سار عليه آباؤهم وإن لم يرهم آباؤهم فعناية الله تعالي كانت تتعهدهم وترعاهم.

﴿ ولْيخْشَ الذِين لَو تَركُوا مِن خَلْفِهـم ذُريـةً ضِـعافًا خَافُوا علَيهم فَلْيتقُوا اللهَ ولْيقُولُوا قَولاً سدِيدا ﴾ [النساء:٩].

***

ثالثا: دور الصيام في حياة نوح - عليه السلام

روي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: صام نوح الدهر إلا يوم الفطر ويوم الأضحي، وصـام داود نصـف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر(١).

يحتاج الدعاة إلي الله تعالي إلي الإرادة القوية والعزيمة التي لا تلين كما يحتاجون إلي ما يجعلهم يسـتعلون علـي ضرورات الحياة ورغبات النفس وشهواتها، يحتاجون إلـي ما يجعلهم يجتازون المنعطفات التي تعرض لهم علي طريق الدعوة، فلا بد من إعداد النفوس التي تجتاز عقبات الطريق، والصيام خير معين للداعية إلي الله تعالي.

***

رابعا: دور الصلاة في حياة الرسول صلى ا عليه وسلم - وفي حياة أصحابه رضوان ا عليهم.

يقول اا تعالي: ﴿ يا أَيها الْمزملُ * قُمِ الليلَ إِلا قَلِيلاً * نِصفَه أَوِ انقُص مِنْه قَلِيلاً * أَو زِد علَيهِ ورتل الْقُرآن تَرتِيلاً * إِنا سنُلْقِي علَيك قَولا ثَقِيلاً ﴾

[المزمل:١-٥]

فاا عز وجل أعد مهمة عظيمة ليقوم بها محمد-صلى ا عليه وسلم- وهذه المهمة الكبري ليقوم بهـا فلابـد وأن يكون قد أعد لها الإعداد الكامل. وخير إعداد للداعيـة هـو الإعداد الإيماني، والزاد الروحي، وقوة النفس، وخير وسيلة لذلك كله الصلاة والتبتل والتضرع إلي اا - عـز وجـل- لطلب العون منه- عز وجل- علي أداء التكاليف، ومن ثـم افترض اا - عز وجل- علي الرسول والمسلمين في البداية قيام الليل وظل الوضع هكذا عاما كاملا، ثم نسخ في حـق الصحابة وبقي الحكم بالوجوب في حق الرسول-صـلى ا عليه وسلم-، ولكن بعد أخذ الصحابة قسـطا وفيـرا مـن

التربية، فلما ذاقوا حلاوة قيام الليل ما تركوه، وإن صار في حقهم مندوبا لا واجبا، إلا أن الـنفس إذا عشـقت طاعـة وتذوقت حلاوتها وجدت سعادتها في ممارستها.

يقول صاحب الظلال- رحمه الله -: وإن قيـام الليـل والناس نيام والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسـافها والاتصال بالله وتلقي فيضه ونوره والأنس بالوحدة والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن وكأنما هو يتنـزل مـن الملأ الأعلي، وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري، ولا عبارة واستقبال إشـعاعاته وإيحاءاتـه وإيقاعاته في الليل الساجي، إن هذا كله هو الزاد لاحتمـال القول الثقيل والعبء الباهظ والجهد المرير الـذي ينتظـر الرسول، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل وينيـر القلب في الطريق الشاق الطويل ويعصـمه مـن وسوسـة الشيطان ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير.

وفي الحديث كان النبي-صلى الله عليه وسلم- يصـلي حتي ترم- أو تنتفخ- قدماه فيقال له فيقول أفلا أكون عبـدا شكورا(١).

أبو عبيدة يوصي قبل موته:

بينما أبو عبيدة بن الجراح في بلاد الشام يقود جيـوش المسلمين من نصر إلي نصر حتي فتح الله علي يديه بـلاد الشام وعند ذلك دهم بلاد الشام طاعون ما عرف الناس مثله فأرسل عمر- رضي الله عنه- رسالة ليستقدمه إليه، فلمـا أخذ أبو عبيدة الر سالة قال: قد علمت حاجة أمير المؤمنين إلي فهو يريد أن يستبقي من ليس بباق ثم كتب إليه يقول: يا أمير المؤمنين إني قد عرفت حاجتك إلي وإني في جند مـن المسلمين ولا أجد بنفسي رغبة عن الذي يصيبهم ولا أريـد فراقهم حتي يقضي الله أمره. فإذا أتاك كتابي هذا فحللنـي من عزمك وائذن لي بالبقاء.

فلما قرأ عمر الكتاب بكي حتي فاضت عيناه فقال له من عنده: أمات أبو عبيدة يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا..! ولكـن الموت منه قريب.

فما لبث أبو عبيدة أن أصيب بالطاعون فلمـا حضـرته الوفاة أوصي جنده فقال: إني موصيكم بوصية إن قبلتموهـا لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة، وصوموا شـهر رمضـان، وتصدقوا، وحجـوا، واعتمـروا، وتواصـوا، وانصـحوا لأمرائكم، ولا تغشوهم ولا تلهكم الدنيا، فإن المرء لو عمـر

ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلي مصـرعي هـذا الذي ترون والسلام عليكم ورحمة اا ثم التفت إلي معاذ بن جبل وقال: يا معاذ صل بالناس(٢).

ومن هذا نري ما كان عليه الصحابة رضوان اا عليهم من تعظيم لشعائر اا فها هو أبو عبيدة- رضي اا عنه- في لحظاته الأخيرة يوصي بالصـلاة والصـيام والتصـدق والحج والعمرة والنصيحة وقبل أن يموت يأمر معاذا بـأن يصلي بالناس. ونشاط الصـحابة- رضـوان اا علـيهم أجمعين- في ممارسة العبادات هو سر مواصلتهم للسير في الطريق دون فتور ولا كلال ولا ملال.

وبعض الأفراد السالكين طريق الدعوة إلي اا عز وجل يقطعون شوطا في الطريق ثم تجد عـزيمتهم قـد وهنـت ونشاطهم قد تضاءل، وحماستهم قد انطفأت، فربما لم يقوموا بأعمالهم الدعوية، أو يقومون بها بصـورة شـكلية فقـط، وبرتابـة الذي يؤدي عملا ثقيلا عليه بعد أن كـان يؤديـه بحب واشتياق وحماسة.

وفي الحقيقة إذا تتبعت أحـوالهم تجـد أن أكثـرهم لا يصلون إلي هذه المرحلـة إلا بعـد أن يهملـوا فـي أداء

العبادات، لأن مردود العبادات يعود علي الدعوة، فإذا كـان المردود صفرا فماذا يرجع علي الدعوة؟!

فالكثير من العاملين في حقل الـدعوة لا يحـافظ علـي الصلوات الخمس في جماعة- فضلا عن ترك قيام الليـل- وأما عن الصيام فلا صيام غير الفريضة، وعـن التصـدق والإنفاق فهما ليسا أحسن حظا من الصلاة والصيام، ناهيـك عن الإهمال في الورد القرآني والأذكار وغيرها.

فإذا كان الفرد قد وصل إلي هذا المستوي فماذا ينتظـر منه دعويا؟!

وقف أبو الدرداء- رضي االله عنـه- ذات يـوم أمـام الكعبة فقال: أليس إذا أراد أحدكم سفرا أن يجعل لـه زادا؟ قالوا: بلي... يا أبا الدرداء.

قال فسفر الآخرة أطول.. ثم قال لهم: صـلوا ركعتـين بالليل لظلمة القبور، وصوموا يوما شديدا حره لطول يـوم النشور، وحجوا حجة لعظائم الأمور.

***

خامسا: ثعلبة يتساقط علي طريق الدعوة

أخي المسلم أسوق لك نموذجا للذين يتسـاقطون علـي طريق الدعوة نسأل الله الثبات علي الحق- ليتبين لنا كيـف أن الإهمال في أداء العبادات من صلاة وزكاة وغيرها يكون مؤشرا يؤذن بالخطر.

والفرد في حقل الدعوة الإسلامية إذا كان غير منضـبط تعبديا؛ فلن يكون منضبطا دعويا. فهل ينتظر من الفرد الذي لا يؤدي الصلوات في أوقاتها أن يؤدي واجباته الدعوية في مواعيدها؟!.

حمامة المسجد: كان ثعلبة بن أبي حاطب ملازما مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسـلم- حتـي لقـب بحمامـة المسجد.

منعطف المال: روي البغوي عن أبي أمامة البـاهلي- رضي الله عنه- قال: جاء ثعلبة بن أبي حاطب الأنصاري

النبي-صلى ا عليه وسلم- فقال: يا رسول اا ادع اا أن يرزقني مالا.

فقال رسول اا -صلى ا عليه وسلم- ويحك يا ثعلبة! قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعـد ذلـك فقال: يا رسول اا ادع اا أن يرزقني مالا.

فقال-صلى ا عليه وسلم-: أما لك في أسوة حسـنة؟! والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك، فقـال: يـا رسـول اا : ادع اا يرزقني مالا والذي بعثك بالحـق لـئن رزقنـي اا مـالا لأعطين كل ذي حق حقه.

فقال-صلى ا عليه وسلم ـ: اللهم ارزق ثعلبة مالا.

قال: فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود فضـاقت عليـه المدينة فتنحي عنها، فكان يصلي مع الرسول-صلى ا عليه وسلم- الظهر والعصر، ويصلي في غنماته سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتي تباعد عن المدينة، فصـار لا يشـهد جمعة ولا جماعة.

فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقي الركبان يسألهم عن الأخبار؟ فذكره رسول اا -صلى ا عليه وسلم- ذات يوم

فقال: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنما ما يسعها واد، فقال -صلى الله عليه وسلم-: يا ويح ثعلبة.. يا ويح ثعلبة.

نزول آيات الزكـــاة:

﴿ فأنزل الله آية الزكاة. خُذْ مِن أَموالِهم صدقةً تُطَهِّرهم وتُزكيهم بِها وصل عليهم إِن صلاتَك سكَن لهم والله سميع عليم ﴾ [التوبة:١٠٣].

فبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلا من بني سليم ورجلا من بني جهينة، وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذانها، وقال لهما: مرا علي ثعلبة بن أبي حاطب، ومرا علي رجل من بني سليم فخذا صدقاتهما.

فخرجا حتي أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية، انطلقا حتي تفرغا ثم عودا إلي، فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلي خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قالا: ما هذه عليك.

قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة.

فمرا علي الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا إلـي ثعلبـة، فقال: أروني كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية، ما هـذه إلا أخت الجزية.

اذهبا حتي أري رأيي.

قـال: فأقبـلا فلمـا رآهمـا رسـول الله -صـلى الله عليه وسلم- قـال- قبـل أن يتكلما-: يا ويح ثعلبة... يـا ويح ثعلبة.. ثم دعا للسلمي بخير فأخبراه بالذي صنع ثعلبـة فأنزل الله في حقه:

﴿ ومِنْهم من عاهد الله لَئِن آتَانَا مِن فَضـلِهِ لَنَصـدقَن ولَنَكُونَن مِن الصالِحِين* فَلَما آتَاهم من فَضـلِهِ بخِلُـوا بِـهِ وتَولوا وهم معرِضون * فَأَعقَبهم نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم إِلَى يـومِ يلْقَونَه بِما أَخْلَفُوا الله ما وعـدوه وبِمـا كَـانُوا يكْـذِبون ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

ومن ذلك نري أن تساقط ثعلبة بـدأ بإهمالـه الصـلاة وانشغاله عنها ثم انتهي بمنعه الزكاة.

أولا: بر الوالدين

يقول الله تعالي: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما* واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

ويقول تعالي: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ [النساء:٣٦]

ويقول: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنًا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [العنكبوت:٨].

ويقول: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير

*وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾
[لقمان:١٤-١٥].

ويقول: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾
[الأحقاف:١٥].

ومن خلال تأملنا لهذه الآيات نري أن الله عز وجل أوصي الإنسان بوالديه وأكد علي ذلك، دون أن يوصي الأب بابنه أو الأم بابنها وذلك لأن الله عز وجل قد فطرهما علي حبهما لأولادهما وعلي التضحية في سبيلهما فالأب يجوع ليشبع أولاده ويتعري ليكتسوا ويتعب ليستريحوا، الأم تسهرليناموا فتقوم علي راحتهم فلا تهنأ بطعام ولا شراب ولا نوم حتي تطمئن عليهم؛ فعاطفة الأمومة والأبوة تقومان مقام الوصية بالأولاد أما الأبناء فسرعان ما يكبرون

ويتزوجون ويكون لهم أولاد فيولون اهتمامهم لأبنائهم وقـد ينسون الآباء فمن هنا جاء القرآن مؤكدا حقهما علي الأبناء فقد أوجب االله عز وجل طاعتهما وبرهما وجعل طاعتهمـا تلي طاعته سبحانه وتعالي مباشرة، ففي قولـه تعـالي:{إا قضي' ربك ألا تعبدوا إلا إياه ا بالوالدين إحسـانا} ربـط محكم بين عبادة االله تعالي والإحسان إلي الوالدين وفي ذلك رفع لقيمة الوالدين وإعلاء لشأنهما فقـد روي الشـيخان أن عبد االله بن مسعود رضي االله عنه قال: يا رسول االله : أي العمل أحب إلي االله تعالي؟ قال: الصلاة علي وقتها، قـال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين(١).

ولكن يجب ألا يختل التوازن عند الأبناء في بـر أحـد الوالدين علي حساب الآخر: فقد جاء رجل ليبايع رسول االله صلى االله عليه وسلم علي الجهاد- أو يستأذنه في الجهـاد- فسأله الرسولصلى االله عليه وسلم: فهل من والـديك أحـد حي؟ فقال الرجل: نعم بل كلاهما حي، فيقول رسـول االله صلى االله عليه وسلم فتبتغي الأجر من االله تعـالي؟ فيقـول الرجل: نعم، فيقول رسول االله صلى االله عليه وسلم فارجع إلي والديك فأحسن صحبتهما(٢) ففي هذا الحديث تقرير من

الرسول عليه الصلاة والسلام بوجوب البر لكـلا الوالـدين علي السواء.

برهما بعد موتهما:

سأل رجل النبيصلى ا عليه وسلم فقال: يا رسول اا هل بقي من بر أبوي شئ بعد موتهما أبرهمـا؟ قـال نعـم خصال أربع: الدعاء لهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهـدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحـم لـك إلا مـن قبلهما(٣).

إنه الوفاء لهما بعد موتهما، إنها لأعلي مراتـب الحـب والبر أن يوطد المسلم أواصر المودة والصلة بأهل ودهمـا، فقد قابل عبد اا بن عمر- رضي اا عنهما- صديقا لوالده عمر رضي اا عنه فبالغ في بره وإكرامه، فقال بعض من معه: أما كان يكفيك أن تتصدق عليه بدرهمين؟ فقـال ابـن عمر: قال النبيصلى ا عليه وسـلم احفـظ ود أبيـك، لا تقطعه فيطفئ اا نورك(١).

بر الوالدين المشركين:

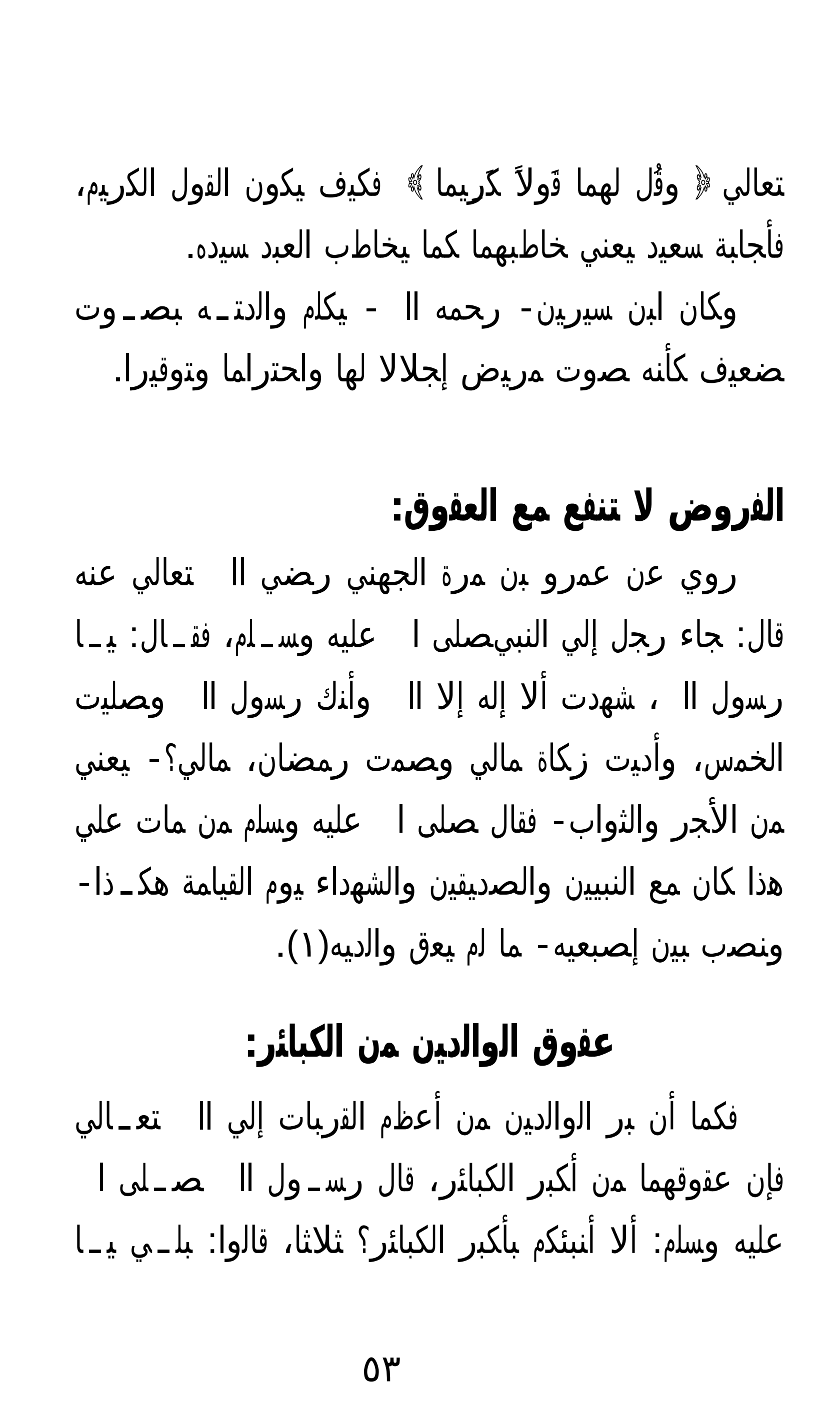
أوصي الله عز وجل ببر الوالدين المشركين، يقول الله تعالي: ﴿ وإن جاهداك على أن تُشْرك بِي ما ليس لَك بِهِ عِلْم فَلاَ تُطِعهما وصاحِبهما فِي الدنْيا معروفًا ﴾ .

تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: قدمت علي أمي- وهي مشركة- في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام فاستفتيت الرسول عليه الصلاة والسلام قلت: قدمت علي أمي وهي راغبة، أفاصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك(٢).

البر في حالة الكبر:

خص الله تعالي حالة الكبر فقال: ﴿ إِما يبلُغَن عِنْدك الْكِبر أحدهما أو كِلاَهما فَلاَ تَقُل لهما أُف ولاَ تَنْهرهما وقُل لهما قَولاً كَرِيما ﴾ . وذلك لأنها الحالة التي يحتاج فيها الوالدان إلي الرعاية الخاصة، وذلك لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فيجب علي الولد أن يكون معهما في خير ذلة في أقواله وأفعاله وسكناته ونظراته.

فقد سأل رجل سعيد بن المسيب رضي الله عنه، قائلا: لقد فهمت آية بر الوالدين كلها إلا قوله



تعالي ﴿ وقُل لهما قَولاً كَرِيما ﴾ فكيف يكون القول الكريم، فأجابة سعيد يعني خاطبهما كما يخاطب العبد سيده.

وكان ابن سيرين- رحمه اا - يكلم والدتـه بصـوت ضعيف كأنه صوت مريض إجلالا لها واحتراما وتوقيرا.

الفروض لا تنفع مع العقوق:

روي عن عمرو بن مرة الجهني رضي اا تعالي عنه قال: جاء رجل إلي النبيصلى ا عليه وسـلم، فقـال: يـا رسول اا ، شهدت ألا إله إلا اا وأنك رسول اا وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي وصمت رمضان، مالي؟- يعني من الأجر والثواب- فقال صلى ا عليه وسلم من مات علي هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكـذا- ونصب بين إصبعيه- ما لم يعق والديه(١).

عقوق الوالدين من الكبائر:

فكما أن بر الوالدين من أعظم القربات إلي اا تعـالي فإن عقوقهما من أكبر الكبائر، قال رسـول اا صـلى ا عليه وسلم: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا، قالوا: بلـي يـا

رسول الله . قال: الإشراك بالله ، وعقوق الوالـدين، وكـان متكئا فجلس وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور(٢).

العقوق ذنب معجل عقوبته:

روي عن أبي بكرة رضي الله عنه، عن النبيصلى الله عليه وسلم أنه قال: كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلـي يوم القيامة، إلا عقوق الوالدين فإن الله تعالي يعجله لصاحبه في الحياة الدنيا قبل الممات(٣).

التسبب في سب الوالدين من الكبائر:

يقول رسول الله صلى الله عليه وسـلم إن مـن أكبـر الكبائر أن يلعن الرجل والديه فاستغرب القوم، فقالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسـب أمه فيسب أمه(٤).

حقوق الوالدين يورث سوء الخاتمة:

روي عن عبد الله بن أبي أوفي رضي الله تعالي عنـه قال: كنا عند النبيصلى الله عليه وسلم فأتاه آت فقـال: يـا رسول الله : شاب يجود بنفسه، فقيل له: قل لا إلـه إلا الله ،

فلم يستطع! فقال صلى ا عليه وسلم: أكان يصلي؟ فقـال: نعم فنهض الرسول صلى ا عليه وسلم ونهضنا معه فدخل علي الشاب وقال له قل لا إله إلا ا ! فقال لا أستطيع قـال لم؟ قال: كنت أعق والدتي. فقال النبي صلى ا عليه وسلم: أحية والدته؟ قالوا: نعم، قال: ادعوها فدعوها فجاءت، فقال عليه الصلاة والسلام: هذا ابنك؟ قالت نعم، فقال لها: أرأيت إن أججت نار ضخمة؟ فقيل لك إن شفعت له خلينـا عنـه، وإلا أحرقناه بهذه النار؟ أكنت تشفعين له؟ قالت: يا رسـول ا إذا أشفع، قال فأشهدي ا وأشهديني أنك قد رضـيت عنه، قالت: اللهم إني أشهدك، وأشهد رسولك أني قد رضيت عنه! فقال عليه الصلاة والسلام: يا غلام قل: لا إله إلا ا وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسـوله، فقالهـا الغلام، فقال عليه الصلاة والسلام: الحمد ا الذي أنقذه بـي من النار(١).

ليس للوالدين من طاعة في حق ا :

لا شك أن رابطة الإيمان والعقيدة هي من أقوي الروابط وأوثقها علي الإطلاق فإذا انقطعت هذه الرابطة بين الوالدين وولدهما فكان الابن مستظلا براية التوحيد والأبوان يقفـان

تحت راية أخري غيرها فحينها ليس للوالدين حق الطاعـة والإتباع ولكن لهما فقط حسن المعاملة وحسن الرعاية. فقـد كان سعد بن أبي وقاص بارا بأمه، فقالت له: ما هذا الـدين الذي أحدثت؟ وا لا آكل ولا أشرب حتي ترجع إلي ما أنت عليه أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه. ثـم إنها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد عليهـا وقال: يا أماه: لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني، فكلي إن شئت، وإن شئت فـلا تـأكلي، فلمـا أيست منه أكلت وشربت، فأنزل ا قوله تعالي

﴿ ووصينَا الإِنْسان بِوالِديهِ حسنًا وإِن جاهداك لِتُشْرِك بِي ما لَيس لَك بِهِ عِلْم فَلاَ تُطِعهما إِلَي مرجِعكُم فَأُنَبئُكُم بِما كُنْتُم تَعملُون ﴾ [العنكبوت:٨](٢).

كيف يفعل الولد الطائع مع الوالد الفاسق:

قد يكون الوالدان أو أحدهما منحرفا عن جادة الصواب، بأن يكون تاركا لفريضة أو مرتكبا لكبيرة، فواجـب الابـن الطائع البار بوالديه في هذه الحالة أن يتأتي إليهمـا برفـق وتؤدة وسماحة ليزحزحهما عن الغي الذي يتمسكان به فـلا يشتد ولا ينهر ولا يعق ولا يقسو ولا يغلـظ بـل يحـاول

إنقاذهما مما هما فيه، ويستعين عليهما بالدعاء إلي الله عـز وجل لهما بالهداية.

فقد روي مسلم عن أبي هريرة قال: كنت أدعو أمي إلي الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره، فأتيت رسول الله صـلى الله عليه وسلم وأنا أبكي قلت: يا رسول الله: إني كنت أدعـو أمي إلي الإسلام فتأبي علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم أهد أم أبـي هريـرة فخرجـت مستبشرا بدعوة النبيصلى الله عليه وسلم فلما جئت فصرت إلي الباب. فإذا هو مجاف فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك! يا أبا هريرة! وسـمعت خضخضـة المـاء قـال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلـه الله وأشـهد أن محمدا عبده ورسوله قال: فرجعت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته وأنا أبكي من الفرح قال: قلت يا رسـول الله: أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدي أم أبـي هريـرة. فحمد الله وأثني عليه وقال: خيرا قال: قلت يا رسـول الله:

ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلي عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم حبب عبدك هذا- بقصد أبا هريرة- وأمه إلي عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين، فما خلق مؤمن ولا يراني إلا أحبني(١).

حكم الجهاد في سبيل الله بغير إذن الوالدين:

لا يتطوع الولد للجهاد في سبيل الله إلا بإذن والديه، فقد روي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلي النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد، فقال أحي والداك؟ قال: نعم. قال ففيهما فجاهد(٢).

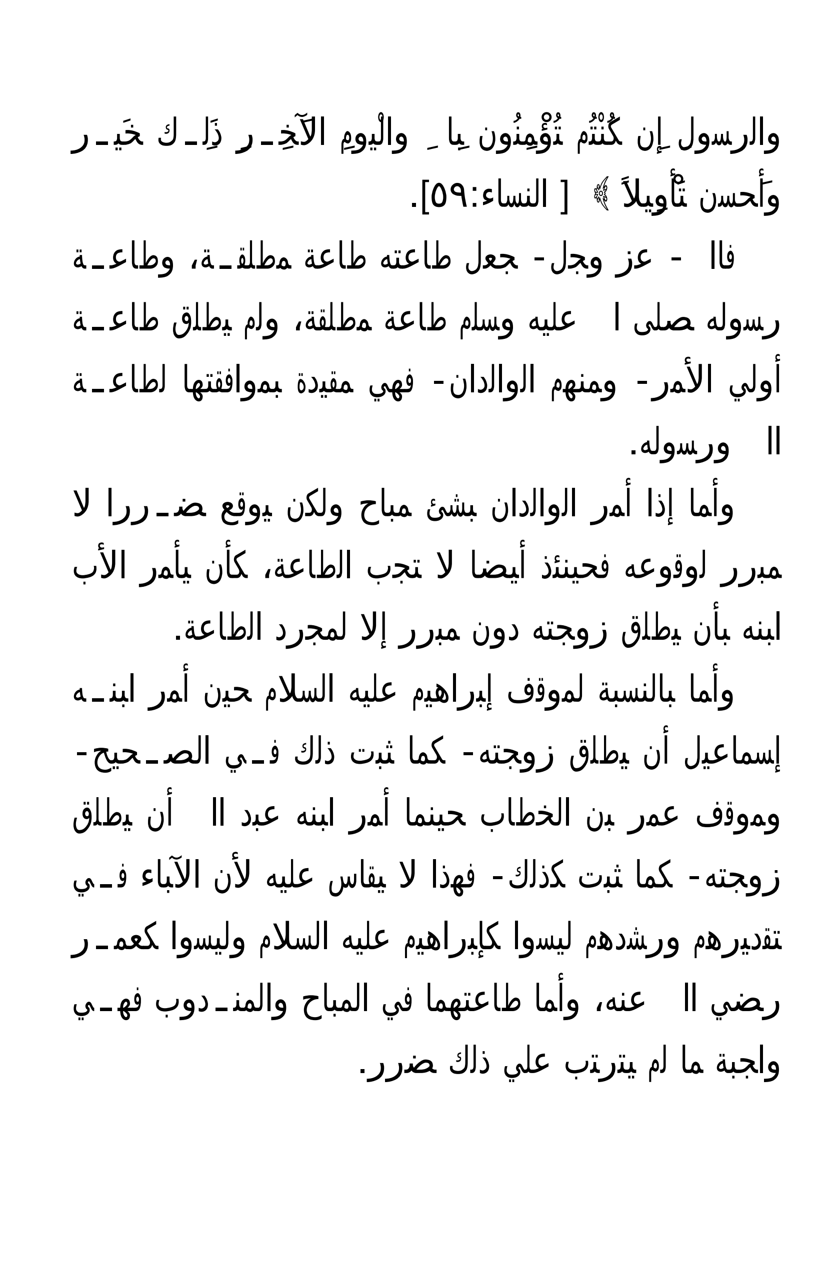
أما إذا تعين الجهاد(صار فرض عين) فلا يجب إذن الوالدين حينئذ يقول تعالي: ﴿ انْفِروا خِفَافًا وثِقَالاً وجاهِدوا بِأَموالِكُم وَأَنْفُسِكُم فِي سبِيل الله ذَلِكُم خَيـر لكُم إِن كُنْتُم تَعلَمون ﴾[التوبة:٤١].

يقول القرطبي في المسألة الرابعة في تفسيره لهذه الآية وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو علي قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب علي جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا، شبابا وشيوخا، كل

علي قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب لـه، ولا يتخاف أحد يقدر علي الخروج، من مقاتل أو مكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان علي من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا علي حسب ما لزم أهل تلـك البلـدة، حتي يعلموا أن فيهم طاقة علي القيام بهم ومدافعتهم. وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنـه غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد علـي من سواهم، حتي إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نـزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخـرين. ولـو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخـروج إليه حتي يظهر دين الله وتحمي البيضة وتحفـظ الحـوزة ويخزي العدو. ولا خلاف في هذا(١).

حدود طاعة الوالدين:

طاعة الوالدين لا تجب إذا أمرا بمعصية الله تعالي، بل الواجب حينئذ عدم الطاعة، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وذلك لأن طاعة الوالدين مقيدة وليست مطلقة. يقول الله تعالي: ﴿ يا أَيها الذِين آمنُوا أَطِيعوا الله وأَطِيعوا الرسولَ وأُولِي الأمرِ مِنْكُم فَإِن تَنَازعتُم فِي شَـيءٍ فَـردوه إِلَـى الله



والرسول إِن كُنتُم تُؤْمِنُون بِا ِ واليومِ الآخِـرِ ذَلِـك خَيـر وأحسن تأْوِيلاً ﴾ [النساء:٥٩].

فاا - عز وجل- جعل طاعته طاعة مطلقـة، وطاعـة رسوله صلى ا عليه وسلم طاعة مطلقة، ولم يطلق طاعـة أولي الأمر- ومنهم الوالدان- فهي مقيدة بموافقتها لطاعـة اا ورسوله.

وأما إذا أمر الوالدان بشئ مباح ولكن يوقع ضـررا لا مبرر لوقوعه فحينئذ أيضا لا تجب الطاعة، كأن يأمر الأب ابنه بأن يطلق زوجته دون مبرر إلا لمجرد الطاعة.

وأما بالنسبة لموقف إبراهيم عليه السلام حين أمر ابنـه إسماعيل أن يطلق زوجته- كما ثبت ذلك فـي الصـحيح- وموقف عمر بن الخطاب حينما أمر ابنه عبد اا أن يطلق زوجته- كما ثبت كذلك- فهذا لا يقاس عليه لأن الآباء فـي تقديرهم ورشدهم ليسوا كإبراهيم عليه السلام وليسوا كعمـر رضي اا عنه، وأما طاعتهما في المباح والمنـدوب فهـي واجبة ما لم يترتب علي ذلك ضرر.

طاعة الوالدين في المسائل الخلافية:

إذا أمر الوالدان أو أحدهما بأمر فيه خلاف شرعي بين الحل والحرمة، فيجب علي الابن أن يوازن بين الضرر الناتج عن طاعته لوالديه والضرر الناتج عن مخالفته لهما، فأي الأمرين كان أخف ضررا فعله الابن، فإذا كانت مخالفة الوالدين لهذا الأمر ينتج عنه مالا يمكن دفعه فالذي أراه وأنصح به أن تقدم حينئذ طاعتهما من باب ارتكاب أخف الضررين.

كيف يوفق الداعية بين دعوته وطاعته لوالديه:

بعض الشباب الذين يمن الله عز وجل عليهم بالهداية ومعرفة طريق الدعوة يتعجل الأمور ويريد أن يغير كل شئ في يوم وليلة، فتراه يعطي للمندوبات حجم الواجبات والمكروهات حجم المحرمات؛ وقد يضخم بعض الفرعيات فتطغي علي الكليات، فهو بتعجله هذا يجلب علي نفسه ما لا يمكن أن يتحمله في تلك الفترة، وبعدم توازنه بين الأمور يجلب علي نفسه العنت والمشقة. ولكن الأسلوب الأمثل- في رأيي- هو ضبط هذه الحماسة وتوجيهها الوجهة السليمة،

ومراعاة الأولويات من فقه الدعوة، والتدرج في التغيير سنة من سنن اا عز وجل في الكون. ولكي يوفق الشاب بـين دعوته وطاعته لوالديه فيجب عليه أن يشخص حالة والديه، فإذا كان الوالدان محاربين للدعوة عن اعتناق لفكـر آخـر معاد للدعوة، فننصح حينها بألا يكون هناك مواجهـة بـين الابن ووالديه، بل يكون التعامـل معهمـا حينئـذ بالفطنـة والكياسة وذلك لخطورة الموقف حينئذ وذلك حتي لا يلاقـي الابن مالا يمكنه أن يتحمله فتكون الفتنة عن الهداية. وأما إن كانت محاربة الوالدين لابنهما عن خوف عليه- كعادة الكثير من الآباء والأمهات- فيجب علي الولد حينئـذ أن يطمـئن والديه ويذكرهما دائما بأهمية وضرورة الإيمـان بالقضـاء والقدر، وأن ما قدر للإنسان فإنه ملاقيه لا محالـة، وعليـه كذلك أن يكسب ودهما ويتلاطف معهما دون التخلـي عـن دعوته أو التنازل عن مبدأ.

ثانيا: صلة الرحم

يقول اا تعالي:  يا أَيها الناس اتقُوا ربكُم الذِي خَلَقَكُم من نفْسٍ واحِدةٍ وخَلَقَ مِنْها زوجها وبث مِنْهما رجالاً كَثِيرا

وِنساء واتقُوا ا َ الذِي تَساءلُون ِبِهِ والأرحـام ِإن ا َ كـان علَيكُم رقِيبا ﴾ [النساء:١].

ويقول: ﴿ وآتِ ذَا الْقُربى حقه والْمِسكِين وابن السـبِيل ولاَ تُبذر تَبذِيرا ﴾ [الإسراء:٢٦]

ويقول: ﴿ واعبدوا ا َ ولاَ تُشْرِكُوا ِبِهِ شَيئًا وِبالْواِلـدين ِإحسانًا وِبِذِي الْقُربى والْيتَامى والْمساكِين والْجارِ ذِي الْقُربى والْجارِ الْجنُبِ والصاحِبِ ِبالجنْبِ وابنِ السبِيل ومـا ملَكَـتْ َأيمانُكُم ِإن ا َ لاَ يحِب من كَان مخْتَالاً فَخُورا ﴾ [النساء:٣٦]

ومن خلال هذه الآيات يتبين لنا كيـف أن المعـاملات متصلة بالعقيدة اتصالا وثيقا بل إن المعاملات إنما تنبثق من العقيدة، وا سبحانه وتعالي في الآية الأولي ربط بين تقواه سبحانه وتعالي وتقوي الرحم{ا اتقوا بله الـذي تسـاءلون بها الأرحام} وتقوي اا نعلمها وأما تقوي الأرحام فمعناها أن نتعامل مع الأرحام بحذر شديد ونتقيها حتـي لا تجـرح وحتي لا تخدش فيجعل الإنسان بينه وبين الأرحـام وقايـة تحميها من كل شئ قد يؤثر عليها.

فهنا قرن اا سبحانه وتعالي بين تقواه عز وجل وتقوي الرحم لما لها من قداسة خلعها اا عز وجل عليها.

وفي الآية الثالثة نجد أن الله عز وجل ربط أيضا بين العقيدة المتمثلة في إفراد الله بالعبودية وبين صلة الرحم والإحسان إلي ذي القربي.

***

فضل صلة الرحم

١- صلة الرحم من الإيمان:

روي الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.

٢- تزيد الرزق والعمر:

روي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه.

٣- تجلب حب الأهل وثراء المال:

أخرج البخاري في الأدب المفرد من حديث ابن عمـر رضي الله عنهما: من اتقي ربه ووصل رحمه، نسئ له في عمره، وثري ماله، وأحبه أهله.

٤- صلة الرحم تكفر الذنوب:

روي ابن حبان والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال: أتي النبيصلى الله عليه وسلم رجل فقال: إني أذنبـت ذنبا فهل لي من توبة؟ فقال: هل لك من أم؟ قال لا، قال فهل لك من خالة؟ قال: نعم، قال فبرها.

٥- صلة الرحم تيسر الحساب وتدخل الجنة:

روي البزار والطبراني والحاكم عن أبي هريرة رضـي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته. قالوا: وما هي يا رسول الله ؟ بأبي أنت وأمي؟ قال: تعطـي مـن حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك فإن فعلت ذلك يدخلك الله الجنة.

٦- صلة الرحم ترفع الدرجات:

روي البزار والطبراني عن عبادة بن الصامت رضـي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أدلكم

علي ما يرفع الله به الدرجات؟ قالوا: بلي يا رسـول الله .
قال: تحلم علي من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك، وتعطـي من حرمك، وتصل من قطعك.

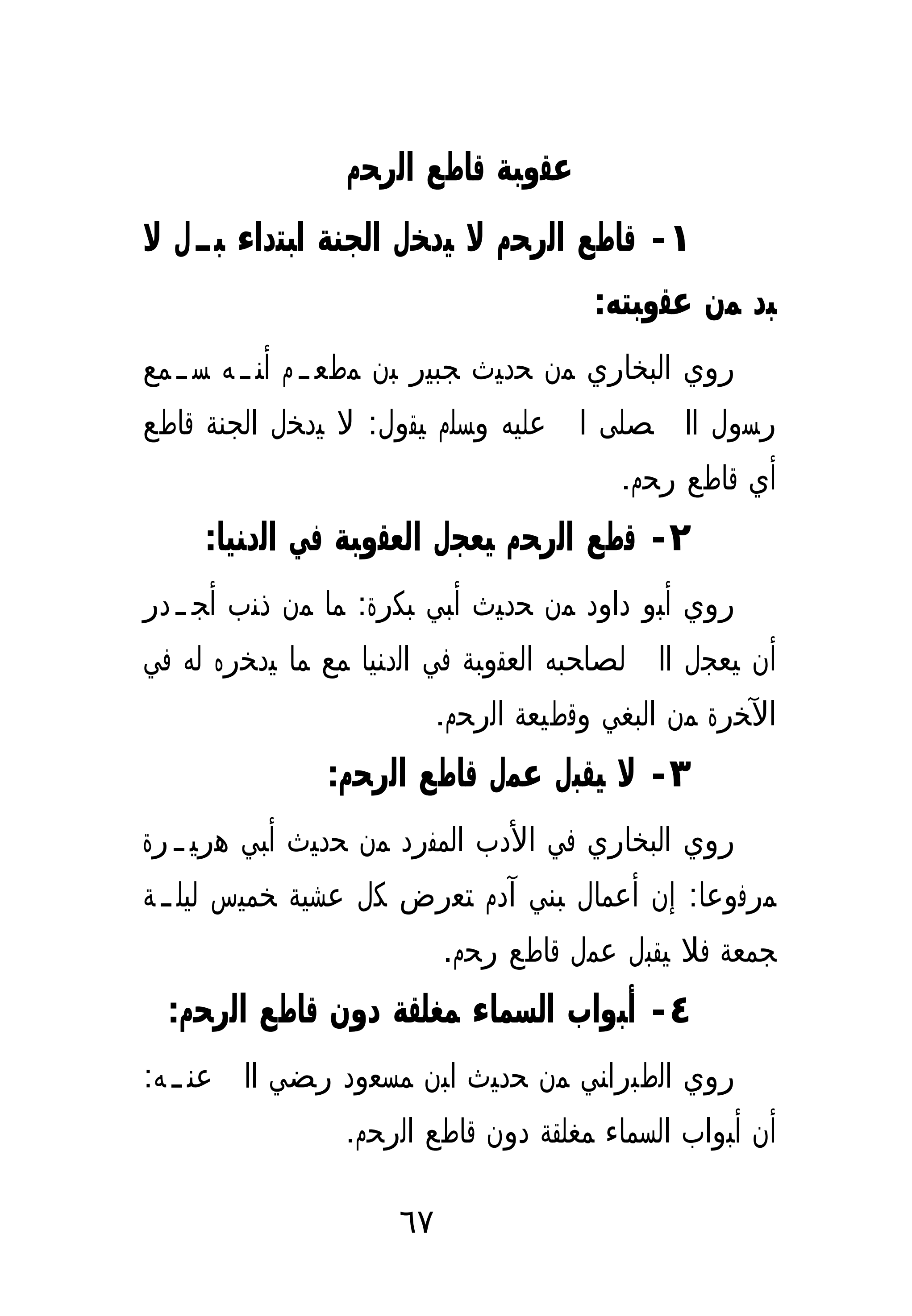
٧- صلة الرحم أعجل الطاعة ثوابا:

أخرج أبو داود في السنن وأورده الألباني في صـحيح الجامع الصغير من حديث أبي بكرة. رضي الله عنه قـال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من ذنب أجـدر أن يجعل الله تعالي لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره لـه في الآخرة من قطيعة الرحم، والخيانة والكذب، وإن أعجـل الطاعة ثوابا لصلة الرحم حتي إن أهل البيت ليكونوا فجـرة فتنموا أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا.

٨- صلة الرحم تدفع ميتة السوء:

روي أبو يعلي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عـن رسول الله صلى الله عليه وسـلم إن الصـدقة وصلـــة الرحـــم يزيد الله بهما في العمر ويدفع بهما ميتة المكروه والمحذور.

***



عقوبة قاطع الرحم

١- قاطع الرحم لا يدخل الجنة ابتداء بـل لا بد من عقوبته:

روي البخاري من حديث جبير بن مطعـم أنـه سـمع رسول اا صلى ا عليه وسلم يقول: لا يدخل الجنة قاطع أي قاطع رحم.

٢- قطع الرحم يعجل العقوبة في الدنيا:

روي أبو داود من حديث أبي بكرة: ما من ذنب أجـدر أن يعجل اا لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم.

٣- لا يقبل عمل قاطع الرحم:

روي البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي هريـرة مرفوعا: إن أعمال بني آدم تعرض كل عشية خميس ليلـة جمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم.

٤- أبواب السماء مغلقة دون قاطع الرحم:

روي الطبراني من حديث ابن مسعود رضي اا عنـه: أن أبواب السماء مغلقة دون قاطع الرحم.

وأخرج الطبراني عن الأعمش قال: كان ابـن مسـعود جالسا بعد الصبح في حلقة فقال: أنشـد الله قـاطع رحـم لمـا قام عنا، فإنا نريد أن ندعوا ربنا وإن أبواب السـماء مرتجة دون قاطع الرحم(١).

٥- لا تنزل الرحمة علي قوم فـيهم قـاطع رحم:

روي البخاري في الأدب المفرد من حديث ابـن أبـي أوفي- مرفوعا- إن الرحمة لا تنزل علي قوم فيهم قـاطع رحم.

٦- من قطع الرحم قطعه الله:

روي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه- عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله - تعالي- خلـق الخلق حتي إذا فرغ من خلقه، قالت الرحم هذا مقام العائـذ بك من القطيعة. قال: نعم؛ أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلي يا رب، قال فهو لك.

قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: ﴿ فـاقرءوا إن شئتم فَهَلْ عسيتُم إِن تَوليتُم أَن تُفْسِدوا فِي الأَرضِ وتُقَطعـوا أَرحامكُم ﴾ [محمد:٢٢].

***

الأرحام أولي بالصدقات

١- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصدقة علي المسكين صدقة وعلي ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة(٢).

٢- روي البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِر حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبون ﴾[آل عمران:٩٢].

قام أبو طلحة إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله : إن أحب مالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالي أرجو برها وذخرها عند الله تعالي فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنني أري أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

***

ليس الواصل الذي يعامل أرحامه بالمثل

بعض الناس يعاملون أرحامهم معاملـة التجـار، فـإن أحسنوا إلـيهم ردوا بالإحسـان وإن أسـاءوا إلـيهم ردوا بالإساءة؛ فهؤلاء يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها(١).

وقد جاء رجل إلي النبيصلى الله عليه وسلم، فقال: يـا رسول الله: إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إلـيهم ويسيئون إلي ويجهلون علي وأحلم عنهم، قال: لئن كان كما تقول كأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير علـيهم ما دمت علي ذلك(٢).

وصل الرحم العامة

روي أن رجلا قدم إلي معاوية، فقال له: سألتك بـالرحم التي بيني وبينك؛ قال معاوية: أمن قريش أنـت؟ قـال: لا. قال: فمن سائر العرب؟ قال: لا، قال: فأية رحم بيني وبينك؟ قال: رحم آدم! فابتسم معاوية وقـال: رحـم مجفـوة والله لأكونن أول من يصلها، وقضي حاجته.

الأرحام أولي بالدعوة إلي ا

لا شك أن أقرب الناس لقبول الدعوة هم أقارب الداعية، وذلك لأنهم أكثر الناس معرفة به، وأكثر الناس حرصا علي حمايته، واستماتة في الذود عنه وهم أحرص النـاس علـي حفظ أسراره، والثبات معه عند المحن والشدائد. لـذا فـإن لوطا عليه السلام حينما رأي نفسه يقف أمام القوم وحده بلا عصبة ولا عشيرة تعضده وتشد من أزره﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِـي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠]

وأما عن شعيب فإنهم كـانوا يحسـبون ألـف حسـاب لعشيرته وأهله.

{قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقولا إنا لنراك فينا ضعيفاا لولا رهطك لرجمناكا ما أنت علينـا بعزيـز}[هود: ٩١].

وغالبا ما تقف العشيرة وراء ابنها الداعيـة؛ ولكـن إذا وقفت وراءه مؤمنة بدعوته فإن ذلك له أكبر الأثر علي قوة انطلاق الدعوة ونجاحها فكانت قوتهم قوة للدعوة، وأمـا إذا وقفت وراءه عصبية وحمية فقط كان في ذلك قوة للداعيـة فقط.

لذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كـان حريصـا علي إسلام أهله وعشيرته، وهكذا ينبغي علـي الداعيـة أن يركز علي دعوة أقاربه، فهم آخر الناس تخليا عنه وهم آخر الناس انفضاضا من حوله، وليعلم الداعية أن دعوته لأقاربه حق لهم عليه، فإذا كانوا أولي بصدقته من غيرهم فهم أحوج إلي

دعوته من غيرهم!.

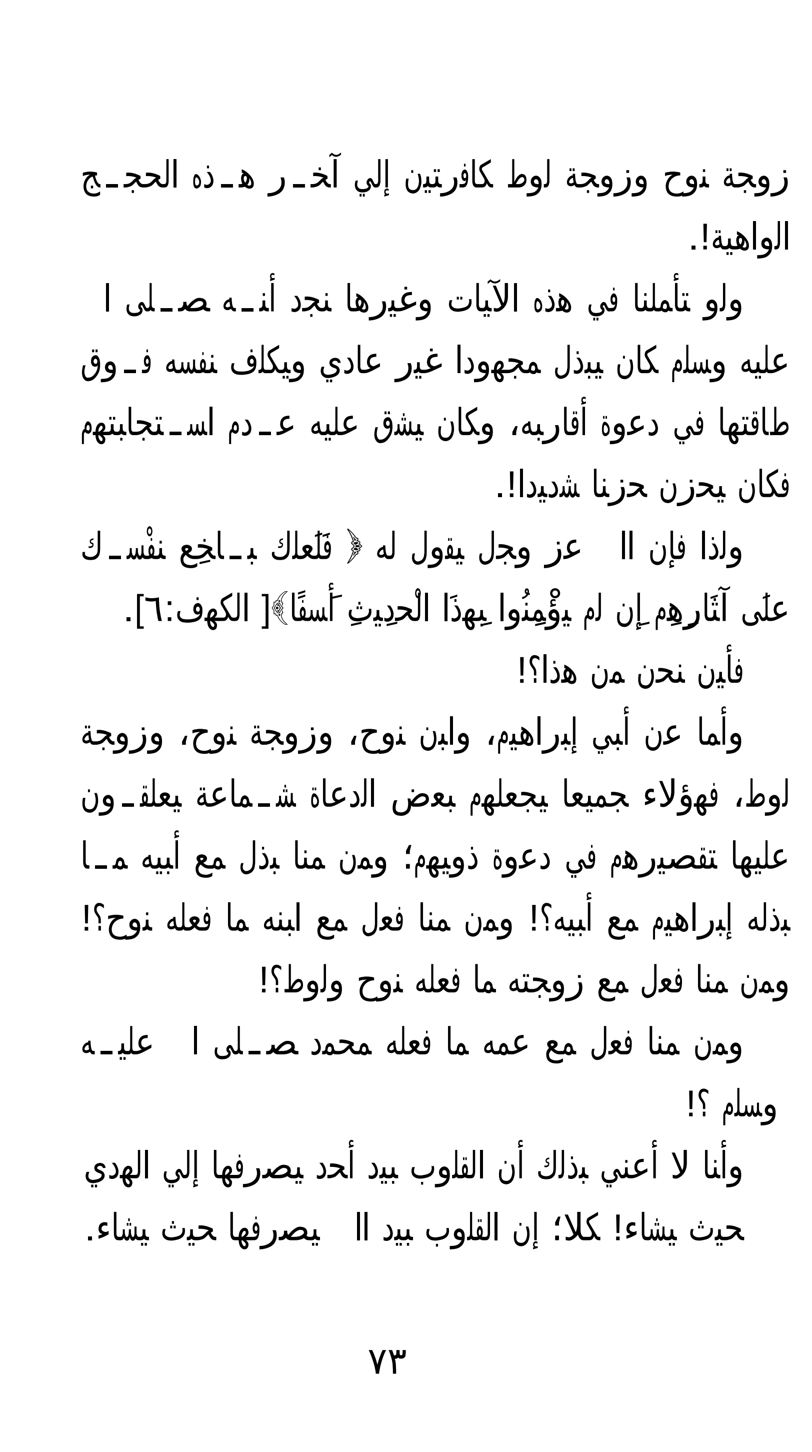
***

شبهات يثيرها بعض الدعاة

قد يقصر بعض الدعاة في دعوة أقاربهم بـل وأبنـائهم وبناتهم ويبرر تقصيره هذا ببعض النصوص من القرآن مثل قوله تعالي:﴿ إِنكَ لاَ تَهدِي من أَحببتَ ولَكِن الله يهدِي مـن يشَاء﴾ [القصص:٥٦].

وقوله:﴿ لَيس علَيك هداهم ولَكِن الله يهدِي من يشَـاء ﴾[البقرة:٢٧٢].

وإذا عوتب في ذلك يقول: لقد كان أبو إبراهيم- عليـه السلام- كافرا، وكان ابن نوح- عليه السلام- كافرا، وكانت



زوجة نوح وزوجة لوط كافرتين إلي آخـر هـذه الحجـج الواهية!.

ولو تأملنا في هذه الآيات وغيرها نجد أنـه صـلى ا عليه وسلم كان يبذل مجهودا غير عادي ويكلف نفسه فـوق طاقتها في دعوة أقاربه، وكان يشق عليه عـدم اسـتجابتهم فكان يحزن حزنا شديدا!.

ولذا فإن اا عز وجل يقول له ﴿ فَلَعلك بـاخِع نفْسـك علَى آثَارِهِم إِن لم يؤْمِنُوا بِهذَا الْحدِيثِ أَسفًا﴾[الكهف:٦].

فأين نحن من هذا؟!

وأما عن أبي إبراهيم، وابن نوح، وزوجة نوح، وزوجة لوط، فهؤلاء جميعا يجعلهم بعض الدعاة شـماعة يعلقـون عليها تقصيرهم في دعوة ذويهم؛ ومن منا بذل مع أبيه مـا بذله إبراهيم مع أبيه؟! ومن منا فعل مع ابنه ما فعله نوح؟! ومن منا فعل مع زوجته ما فعله نوح ولوط؟!

ومن منا فعل مع عمه ما فعله محمد صـلى ا عليـه وسلم ؟!

وأنا لا أعني بذلك أن القلوب بيد أحد يصرفها إلي الهدي حيث يشاء! كلا؛ إن القلوب بيد اا يصرفها حيث يشاء.

ولكن لا يعني هذا أن نترك العمل والسعي.

***

مؤشر خطـــــر

نري كثيرا من الدعاة إلي اا - عز وجل- لا يجعلـون أولادهم وزوجاتهم مجالا للدعوة! فكثيرا ما تجد أولاد الدعاة ليسوا دعاة!! بل وربما وجدتهم يسيرون في إتجـاه مضـاد تماما لما عليه آباؤهم، والسبب في ذلك هو أن الآبـاء لـم يجعلوهم مجالا لدعوتهم.

ثالثا: إكرام الجار

يقول ا تعالي:﴿ واعبدوا ا ـ ولاَ تُشْـ ركُوا بِـ ـهِ شَـ يئًا وبِالْوالِدين ِإحسانًا وبِذِي الْقُربى والْيتَامى والْمساكِينِ والْجارِ ذِي الْقُربى والْجارِ الْجنُبِ والصاحِبِ بِالجنْبِ وابنِ السـ بِيل وما ملَكَتْ أَيمانُكُم ِإن ا ـ لاَ يحِب من كَان مخْتَالاً فَخُورا﴾ [النساء:٣٦]

فهذه الآية الكريمة أرجعت الإحسان إلي الوالـ دين وذي القربي واليتامي والمساكين والجيران وابن السبيل وما ملكت اليمين أرجعت كل ذلك إلي أصل واحد وهـ و عبوديـ ة اا وعدم الإشراك به، فهو الربط بين العقيدة والمعاملة.

يقول صاحب الظـ لال- رحمـ ه اا - إن التشـ ريعات والتوجيهات- في منهج اا - إنما تنبثق كلهـ ا مـ ن أصـ ل واحد، وترتكز علي ركيزة واحدة، إنها تنبثق من العقيدة في اا ، وترتكز علي التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة.. ومـ ن ثم يتصل بعضها ببعض؛ ويتناسق بعضـ ها مـ ع بعـ ض؛ ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية؛ وتصبح دراسـ ة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلي أصلها الكبير الـ ذي تلتقـ ي

عنده؛ ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير واف بتحقيق صفة الإسلام؛ كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الإسلامي في الحياة. انتهي

وقد جاءت السنة المشرفة مبينة ومفصلة حدود الجوار، وحقوقه، وجاء التطبيق العملي للرسولصلى ا عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أولا: حدود الجوار:

فقد روي الطبراني عن كعب بن مالك رضي اا عنـه قال: أتي رسول اا صلى ا عليه وسلم رجل فقـال: يـا رسول اا إني نزلت في محلة بني فلان، وإن أشدهم إلـي أذي أقربهم لي جوارا، فبعث رسول اا صـلى ا عليـه وسلم أبا بكر وعمر وعليا رضي اا عنهم يأتون المسـجد، فيقومون علي بابه، فيصيحون ألا إن أربعين دارا جار، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه أي شروره. أي أن حدود الجوار أربعون جارا من كل جهة من الجهات.

ثانيا: حقوق الجار علي جاره:

(أ) كف الأذي عن الجار:

إذا كان كف الأذي عن الناس عموما أمرا أوجبـه االله عز وجل، وجعله من حسن الخلق الذي جاء به الإسلام، فإن كف الأذي يزداد وجوبا في حق المسلم عموما، بل ويـزداد أكثر في حق الجار.

فقد روي الإمام أحمد والطبراني عن المقداد بن الأسود رضي االله عنه قال: قال رسول االله صلى االله عليه وسـلم لأصحابه: ما تقولون في الزنا؟ قـالوا: حـرام حرمـه االله ورسوله، فهو حرام إلي يوم القيامة، قال: فقال رسـول االله صلى االله عليه وسلم لأن يزني الرجل بعشرة نسـوة أيسـر عليه من أن يزني بامرأة جاره، قال: ما تقولون في السرقة؟ قالوا حرمها االله ورسوله فهي حرام إلي يوم القيامة قـال: لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره.

بل إن رسول االله صلى االله عليه وسلم نفي كمال الإيمان عن الذي لا يأمن جاره من شره.

فقال صلى ا عليـه وسـلم واا لا يـؤمن.. واا لا يؤمن.. واا لا يؤمن.

قيل يا رسول اا : لقد خاب وخسر.. من هذا؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه قالوا: وما بوائقه؟ قال: شره(١).

بل إن رسول اا صلى ا عليه وسلم جاءه رجل ذات يوم يشكو جاره، فقال له: اطرح متاعـك علـي الطريـق فطرحه، فجعل الناس يمرون عليه ويلعنونـه؛ فجـاء إلـي النبيصلى ا عليه وسلم، فقال: يا رسول اا لقيـت مـن الناس.. قالوما لقيت منهم؟ قال: يلعنوني، قال: لقد لعنك اا قبل الناس فقال: إن لا أعود فجاء الذي شكاه إلي النبيصلى ا عليه وسلم، فقال له: ارفع متاعك فقد كفيت(٢).

فانظر كيف جعل الرسول صلى ا عليه وسلم الـرأي العام ضد هذا الرجل حتي لامه كل الناس ولعنوا فعله هـذا حتي اضطروه أن يراجع نفسه ويكف أذاه.

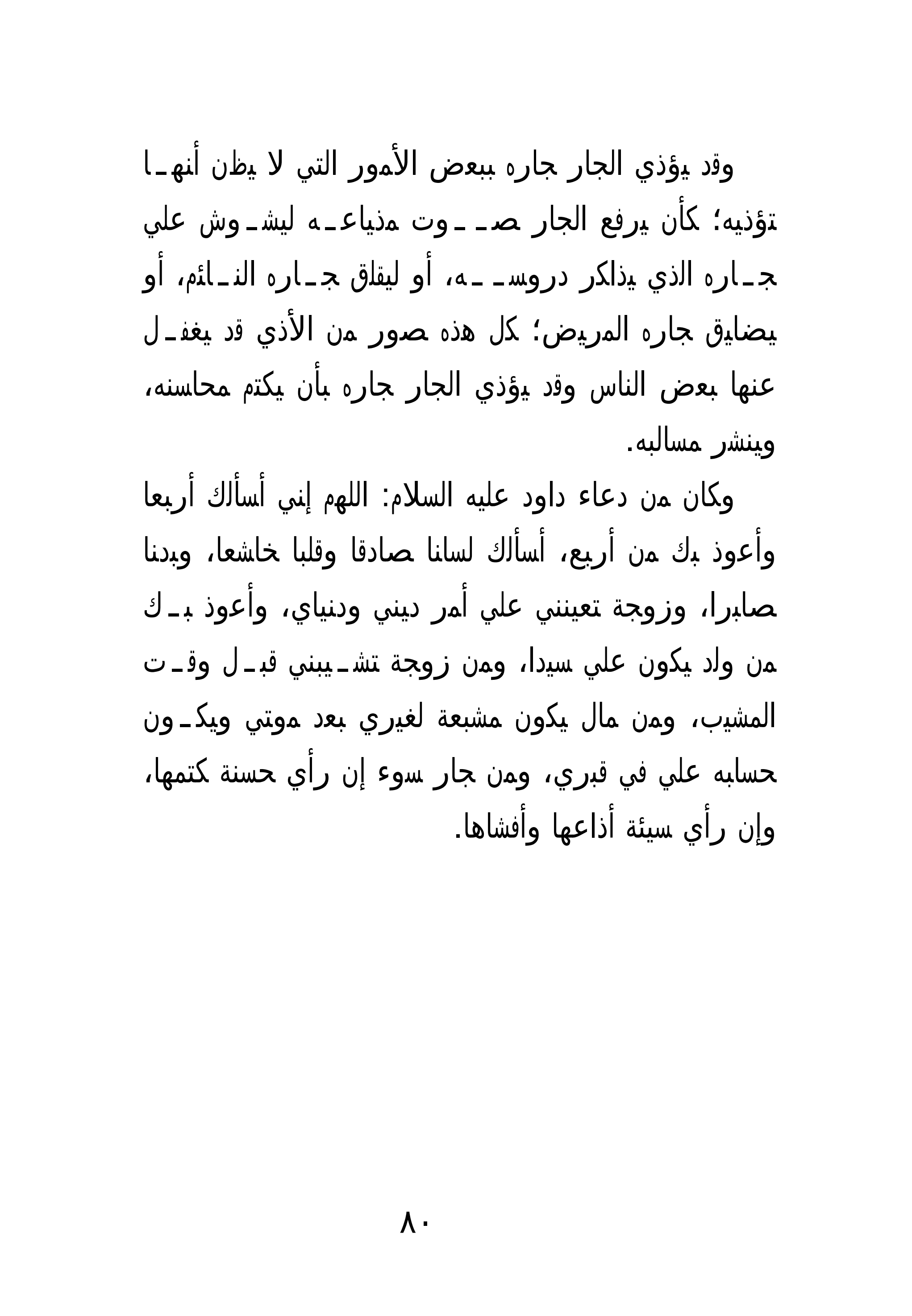
بل إن الرسولصلى ا عليه وسلم يبين في حديث أكثر صراحة ووضوحا أن العبادة مع إيذاء الجار والإصرار علي ذلك لا تغني عن صاحبها شيئا.

فقد قال رجل: يا رسـول االله.. إن فلانـة تكثـر مـن صلاتها وصدقاتها وصيامها.. غير أنهـا تـؤذي جيرانهـا بلسانها، قال: هي في النار.

قال: يا رسول االله: فإن فلانة تذكر من قلـة صـيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار مـن الأقـط ولا تـؤذي جيرانها، قال: هي في الجنة(١).

فهذه أمرأة صوامة قوامة متصدقة إلا أن عبادتها هذه لم تقوم سلوكها، ولم تهذب أخلاقها، فما أغنت عنها عبادتهـا، وأمرأة أخري قليلة صلاة النوافل، قليلة صيام التطوع، قليلة صدقة التطوع- بحسب طاقتها- ولكن خلقها حسن، وسلوكها قويم، فقد أثرت فيها عبادتها فلها الجنة.

هذا وللأذي صور متعددة؛ فقد يؤذي الجار جاره بلسانه، بسببه، أو قذفه، أو غيبته، أو تجريحه، أو التشهير به- بدون داع شرعي- وقد يؤذيه ببصره، بأن يتطلع إلـي عوراتـه، وقد يؤذيه بأذنه، بأن يتجسس عليه ليطلع علي أسراره، وقد يؤذيه بقلبه بالحقـد، والحسـد، والكراهية، والضغينة، وقد يؤذيه بهتك عرضـه، أو سرقة ماله، أو ترويعه.



وقد يؤذي الجار جاره ببعض الأمور التي لا يظن أنها تؤذيه؛ كأن يرفع الجار صوت مذياعه ليشوش علي جاره الذي يذاكر دروسه، أو ليقلق جاره النائم، أو يضايق جاره المريض؛ كل هذه صور من الأذي قد يغفل عنها بعض الناس وقد يؤذي الجار جاره بأن يكتم محاسنه، وينشر مسالبه.

وكان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع، أسألك لسانا صادقا وقلبا خاشعا، وبدنا صابرا، وزوجة تعينني علي أمر ديني ودنياي، وأعوذ بك من ولد يكون علي سيدا، ومن زوجة تشيبني قبل وقت المشيب، ومن مال يكون مشبعة لغيري بعد موتي ويكون حسابه علي في قبري، ومن جار سوء إن رأي حسنة كتمها، وإن رأي سيئة أذاعها وأفشاها.

الهوامش

(١) رواه مسلم.(٢) متفق عليه.

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) متفق عليه من حديث أبي بكره نفيع بن الحارث.

(٣) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٤) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(١) رواه الطبراني وأحمد.(٢) رواه الترمذي.

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب: من فضائل أبي هريرة الدوسي.

(٢) متفق عليه.

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٨.

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن الأعمش لم يدرك ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن، والنسائي وابن ماجة والحاكم عن سليمان ابن عامر وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(١) رواه البخاري من حديث الحسن بن عمرو مرفوعا.

(٢) رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، والمل هو الرماد الحار.

(١) رواه البخاري.(٢) رواه الطبراني والبزار بإسناد حسن بنحوه.

(ب) الإحسان إلي الجار:

لا يكتفي بكف الأذي عن الجار، بـل لابـد أن يتعـدي الجار ذلك إلي درجة الإحسان إليه بكل صـور الإحسـان فيقولصلى ا عليه وسلم: ما زال جبريل يوصيني بالجـار حتي ظننت أنه سيورثه(١).

ويقول أيضا: خير الأصحاب عند اا تعـالي خيـرهم لصاحبه، وخير الجيران عند اا تعالي خيرهم لجاره(٢).

بل إن الرسولصلى ا عليه وسلم ينفي عن الجار كمال الإيمان وتمامه إذا بات شبعانا وجاره جـائع وهـو يعلـم، فقالصلى ا عليه وسلم: ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع إلي جنبه، وهو يعلم(٣).

أي ما آمن إيمانا كاملا تاما يدفع صاحبه إلي الإحسـان إلي الجار، وتفقد حاله.

ويقول سفيان الثوري- رحمه اا - من الجفاء أن يشبع الرجل وجاره جوعان لا يطعمه شيئا.

وروي الخرائطي والطبراني عن عمـرو بن شعيب عن أبيـ ـه عن جده عن النبيصلى ا عليه وسلم قـال: مـن أغلق بابه دون جاره مخافة علي أهله ومالـه فلـيس ذلـك

بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه، أتدري مـا حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خيـر هنأتـه، وإذا أصـابته مصيبة عزيته، وإذا مات أتبعت جنازته، ولا تستطل عليـه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه بقتـار ريـح قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فاهـد لـه منهـا فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغـيظ بها ولده.

وبين رسول اصلى ا عليه وسـلم درجـات الجـوار فيقول: الجيران ثلاثة جار له حق: وهو المشرك، وجار لـه حقان: وهو المسلم، له حق الجوار، وحق الإسلام؛ وجار له ثلاثة حقوق: مسلم له رحم، فله حق الجوار، وحق الإسـلام والرحم(١).

وقال مجاهد: كنت عند عبد اا بن عمر، وغـلام لـه يسلخ، فقال: يا غلام: إذا سلخت فأبدأ بجارنا اليهودي، حتي قال ذلك مرارا. لأني سمعت رسول اا صـلى ا عليـه وسلم يقول: ما زال جبريل- عليه السلام- يوصيني بالجار حتي ظننت أنه سيورثه(٢).

ومن النماذج التي سجلها التاريخ لتشهد للمسلمين بحسن معاملتهم لأهـل الذمـة(٣)- مراعـاة لحـق الجـوار- مـا روي مـن أن عبـد الله بن المبارك كان له جـار يهـودي، فـأراد أن يبيـع داره، فقيـل لـه: بكـم تبيـع؟ قـال بألفـين، فقيل لـه: لا تسـاوي إلا ألفـا، قـال: صدقتـم، ولكـن ألف للدار، وألف لجوار عبـد الله ابـن المبـارك!! فأخبـر ابـن المبـارك بـذلك فدعـاه فأعطاه ثمن الدار، وقال: لا تبعها!

ولولا ما لقيه اليهودي من حسن جـوار عبـد الله بـن المبارك ما نطق بهذه الشهادة.

(جـ) احتمال أذي الجار:

فلا يكتفي أن تكف أذاك عنه، وتحسن إليه، بل يجب أن تصبر علي أذاه، ففي هذا رفع لدرجاتك عند الله تعالي، فقد روي البزار والطبراني عن عبادة بن الصامت رضـي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم علي ما يرفع الله به الدرجات؟ قالوا: بلي يا رسول الله، قـال: تحلم علي من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي مـن حرمك، وتصل من قطعك.

وفي الحديث ليس حسن الجوار كف الأذي عن الجـار. ولكن حسن الجوار الصبر علي أذي الجار(١).

ويروي أن رجلا جاء إلي ابن مسعود رضي الله تعالي عنه، فقال له: إن لي جارا يؤذيني ويشتمني ويضيق علـي، فقال: اذهب فإن هو عضي الله فيك فأطع الله فيه.

***

الداعية مع جيرانه

الإنسان بطبيعته أسير الإحسان، فهو يحب الذي يحسـن إليه، ومن ثم فهو يطيعه عن حب، فالداعية ينبغي أن يدرك ذلك جيدا، وإحسان الداعية إلي جاره ينبغي أن يتميز عـن إحسان المسلم العادي إلي جاره، فإحسان الداعية إلي جـاره يعني أن يعيش همومه ومشاكله وأحواله وأحزانه، فيكشـف منها ما يعينه الله عليه، ويعيش الباقي معه بقلبه ووجدانـه ونصحه وتوجيهه، والداعية الذي يعيش منزويا عن جيرانه، لا يعرف عن ظروفهم وأحوالهم وهمـومهم شـيئا كيـف يستطيع أن يوصل لهم دعوته ؟!.

فإحسان الداعية إلي جيرانه يعني أن يكون بيتـه قبلـة لجيرانه، يقصده الجيران في قضاء حـوائجهم، يقصـدونه

لحفظ أسرارهم، يقصدونه لإبـداء النصـيحة والمشـورة، يقصدونه لمعرفة أمور دينهم.

وأما أن يعيش الداعية في برجه العاجي وينتظر أن يقول له الناس سمعنا وأطعنا فهيهات.. هيهات!

***

رابعا: قضاء الحوائج

يقول الله تعالي:{ يـا أيهـا الـذين آمنـوا اركعـوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخيـر لعلكـم تفلحـون}[الحج:٧٧].

ففي هذه الآية المباركة يأمر الله عز وجـل المـؤمنين بالركوع والسجود- كناية عن الصلاة- ثم يأمرهم بالعبـادة عموما، ثم يقرن الله - عز وجل- بذلك الأمر بفعل الخيـر الذي يمثل مردود الصلاة والعبادة علي معاملات الإنسـان، وأخلاقه وسلوكه. ويقول تعالي:{ولكل وجهة هو موليهـا فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن اللـه علي' كل شيء قدير}[البقرة:١٤٨].

يبين الله سبحانه وتعالي في هذه الآية أن مذاهب الناس في هذه الحياة مذاهب شتي فهذا يختار الكفر، وهذا يختـار

الإيمان، وهذا يختار الطاعة، وهذا يختار المعصية؛ وهـذا يختار الظلمات، وهذا يختار النور؛ وهـذا يعمـل لعقيـدة ودعوة، وهذا يعمل لشهوة ونزوة؛ وبينما هذه مذاهب الناس فإذا باالله يختار لنا فعل الخيرات والمسابقة إليها، ثم يـربط االله - عز وجل- فعل الخيرات بجمع االله لنا لمحاسبتنا، وأن االله بقدرته وعظمته يفعل كل شئ.

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي- رحمـه االله -: إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعـة من االله وأنهم لن يلاقوه!! نقول لهم إنكـم سـتفاجأون فـي الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق، والجنة حق، والنـار حق. ستفاجأون بما يحدث لكم.. ومن لم يؤمن ولم يسـارع إلي الخير سيلقي الخزي والعذاب الأليم..

إن االله ينصحنا أن نؤمن، وأن نسارع فـي الخيـرات لننجوا من عذابه(١).

قلت: وحينئذ يكون الجزاء من جنس العمل وينفـع االله الإنسان بما صنع من معروف، فقد بين ذلـك رسـول االله صلى االله عليه وسلم فقال: من نفس عن مؤمن كربـة مـن كرب الدنيا نفس االله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومـن

يسر علي معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلي الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه(١).

ففي هذا الحديث يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يتولي بنفسه توفية الشخص بجزاء ما صنع من معروف لأخيه؛ فتفريج الكرب من العبد لأخيه يقابله تفريج الكرب من الله عز وجل للعبد، وتيسير العبد علي أخيه يقابله تيسير الله علي العبد، ومعاونة العبد لأخيه، ومشيه في قضاء حوائجه يقابله معاونة الله للعبد.

وفي الصحيحين عن حذيفة وأبي مسعود الأنصاري أنهما سمعا النبيصلى الله عليه وسلم يقول: مات رجل فقيل له: بم غفر الله لك؟

فقال: كنت أبايع الناس فأتجاوز عن الموسر وأخفف عن المعسر.

فإكرام العبد لأخيه بالتخفيف عنه يقابله إكرام الله عـز وجل له بالتجاوز عن سيئاته. وكان ابن عباس- رضي الله عنهما- يقول: صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكأ.

صور من قضاء الحوائج وفعل المعروف

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجـل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليهـا متاعـه صـدقة، والكلمة الطيبة صـــــدقة، وبكل خطوة تمشـيها إلـي الصلاة صدقة، وتميط الأذي عن الطريق صدقة(١).

٢- كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب للحـي أغنامهم، فلما استخلف قالت جارية مـنهم الآن لا يحلبهـا. فقال أبو بكر بلي وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيـه شئ كنت أفعله.

٣- روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج في سواد الليل فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتا، ثم دخل بيتـا آخر.

فلما أصبح طلحة ذهب إلي ذلك البيـت؛ فـإذا بعجـوز عمياء مقعدة! فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت إنـه يتعهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني ويخـرج عنـي الأذي!

فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! أعثرات عمر تتبع!

٤- في الحديث أفضل الأعمال إدخال السـرور علـي المؤمن، كسوت عورته، أو أشبعت جوعته، أو قضيت لـه حاجته(٢).

٥- بعث الحسن البصري قوما من أصحابه في قضـاء حاجة لرجل وقال لهم: مروا بثابت البناني فخذوه معكم فأتوا ثابتا فقال: أنا معتكف فرجعوا إلي الحسن فـأخبروه فقـال: قولوا له يا أعمش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة، فرجعوا إلـي ثابـت، فتـرك اعتكافه وذهب معهم.

٦- يقول مجاهد: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمـه فكان يخدمني، وكان كثير من الصـالحين يشـترط علـي أصحابه أن يخدمهم في السفر.

***

الدعاة وقضاء الحوائج

كثير من الذين يتصدرون للدعوة إلي الله عـز وجـل يقصرون مفهوم الدعوة علي مجرد الـوعظ والإرشـاد! أو التلقين والحفظ!

وأنا لا أقلل من أهمية كل ذلك وضرورته ولكن ينبغـي أن ننتبه إلي نقطتين:

الأولي: أننا لا نستطيع توصيل الدعوة من خلال الوعظ فقط أو التعلم فقط إذ ليس كل النـاس يقبـل علـي التعلـيم والحفظ، ولا علي استماع الوعظ والإرشاد فيجب أن ينخرط الدعاة في خدمة الناس وقضاء حوائجهم في سائر المؤسسات والهيئات فإن ذلك يعمل علي الإتصال بكل أفراد المجتمـع وإزالة الحواجز بينهم وبين الدعوة.

الثانية: أن أغلب الناس- إن لم يكن كلهم- تسـتطيع أن تأسره بالإحسان إليه وقضاء حوائجه فتوجد بـذلك المـودة والألفة التي توجد الصلة القلبية بينك وبينه، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: ما رأيت رجلا أوليته معروفـا إلا أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيت رجلا أوليته سوءا إلا أظلـم ما بيني وبينه.

ولكن قليل من الناس تستطيع أن تأسره بوعظك وعلمك.

ولذلك تنبهت الحملات التبشـيرية(التنصـيرية) لأثـر الأعمال الخدمية علي الناس فتوسعت في ذلك وخصصت له الأموال الطائلة وذلك اقتناعا منها بأثر ذلك علي الناس.

فبم تفسر قيام إرساليات التنصير بإنشاء المـدارس فـي البلاد الإسلامية؟ وبم تفسر إقامة المستشفيات؟ وبـم تفسـر تلاطفهم مع فقراء المسلمين؟ وبم تفسر مسـاعداتهم الماديـة لفقراء المسلمين ؟!.

فهل يبنون المدارس لتعليم المسلمين؟!

وهل يقيمون المستشفيات لمعالجة مرضي المسلمين؟

وهل يتلاطفون مع فقراء المسلمين من باب إغنائهم ابتغاء وجه الله ؟!

وهل يقدمون المساعدات المالية وتوفير فـرص العمـل مساعدة منهم في حل مشاكل المسلمين؟!

أم يفعلون كل ذلك لسواد عيون المسلمين؟!

إنهم يفعلون كل ذلك خدمة لدعوتهم وعقيـدتهم؟ وذلـك لأنهم لو لم يكسبوا من كل ذلك سوي أن ينزعوا من قلـوب المسلمين كراهيتهم لرضوا بذلك.

فكيف إذا تعلق بهم أطفال المسلمين وفقراؤهم؟!

وكيف إذا اكتسب الأطفال منهم سلوكهم وعاداتهم؟!

بل وكيف إذا استطاعوا أن يربـوا أجيـالا فـي ديـار المسلمين صلتهم بالإسلام مبتوتة؟!

ولكن مما يشرح الصدر أن قطاعا كبيرا مـن الـدعاة يتفانون في خدمة الناس وقضاء حوائجهم، فيسهرون لـيلهم علي حاجة الناس والسعي فـي قضـائها ليضـربوا بـذلك النموذج العملي للدعوة إلي االله عز وجل.

***

نماذج عملية من الخدمات الدعوية

النموذج الأول: لسيدنا موسي عليه السلام، وهـو الموقف الذي ذكره لنا القرآن الكريم في قوله تعالي: ﴿ ولَما ورد ماء مدين وجد علَيهِ أُمةً من الناسِ يسقُون ووجد مِـن دونِهم امرأَتَين تَذُودانِ قَالَ ما خَطْبكُما قَالَتَا لاَ نَسـقِي حتـى يصدِر الرعاء وأَبونَا شَيخٌ كَبِيـر * فَسقَى لَهما ثُم تَـولى إِلَى الظل فَقَالَ رب إِني لِما أَنزلْتَ إِلَي مِـن خَيـرٍ فَقِير ﴾

[القصص:٢٣،٢٤].

فها هو موسي عليه السلام يخرج مـن مصـر طريـدا هاربا فارا من ملاحقة جند فرعون له، فيخرج بلا زاد وبلا دليل إلي طريق مجهول، ويتجه إلي مكان مجهول لا يعرف فيه أحدا؛ يخرج موسي عليه السلام وحيدا إلا من معية الله ، وبينما هو جالس في الحر الشديد، بلا زاد وبلا اسـتعداد إذا به يجد الرجال الرعاة يوردون أغنامهم لتشرب من المـاء؛ ثم نظر موسي فوجد امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء، فلم يقبل موسي بفطرته السليمة، أن يقعد عـن تلبيـة دواعـي

الفطرة والمروءة وهو موسي المعروف بالنجدة والمعروف، والذي بالأمس القريب قتل نفسا- خطأ- من أجل أن استغاث به ضعيف. وأمام هذا الموقف تناسي موسي أنه متعب قـد لاقي ما لاقي من الجوع والألم والخوف، فغالب كـل هـذا وقام فسقي لهما ثم لجأ إلي الله عز وجل يطلب منه المـن والعطاء.

وهـــذا الموقــف لموسي عليـه السـلام يبين لنا كيف أن كسب ود الناس يكون بقضاء حوائجهم، وكيـف أن تفريج الكرب عن الناس يفتح قلوبهم للداعية.

فبمجرد أن وصلت البنتان إلي أبيهما وأخبرتاه بما كـان من موسي وكيف أنهما احترمتا فيه شخصيته القوية ونفسـه الذكية.

﴿ فَجاءتْه إِحداهما تَمشِي علَى استِحياءٍ قَالَـتْ إِن أَبِـي يدعوك لِيجزِيك أَجر ما سقَيتَ لَنَا فَلَما جاءه وقَـص علَيـهِ الْقَصص قَالَ لاَ تَخَفْ نَجوتَ مِن الْقَـومِ الظـالِمِين* قَالَـتْ إِحداهما يـا أَبـتِ اسـتَأْجِره إِن خَيـر مـن اسـتَأْجرتَ الْقَوِي الأَمِين ﴾

[القصص:٢٥-٢٦]

النموذج الثاني: لسيدنا محمدصلى ا عليه وسلم:

لقد ضرب لنا رسول اا صلى ا عليه وسـلم المثـل الأعلي في التفاني في قضاء حوائج الناس، حتـي صـارت حياته كلها هكذا، ونلمس ذلك فنجده واضحا جليا في كلمات خديجة بنت خويلد- رضي اا عنها- لرسول اا صلى ا عليه وسلم في ليلة نزول الوحي عليه لأول مـرة، حينمـا ذهب إلي خديجة قائلا: زملوني زملوني وأخبرهـا الخبـر، قالت له خديجة كلا أبشر فواا لا يخزيـك اا أبـدا إنـك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمـل الكـل، وتكسـب المعدوم وتقري الضيف وتعين علي نوائب الحق(١).

وكل هذه الصفات تنم عن شخصية وجدت نفسـها فـي قضاء حوائج الناس وحسن إكرامهم.

***

خامسا: أدب الحديث

القدرة علي الكلام والبيان من أجل النعم التي أنعم بهـا الله علي البشر؛ فالبيان من مقومات النجـاح فـي الحيـاة والتفاعل مع الغير، فيقول الله تعـالي ﴿ الـرحمن * علـم الْقُرآن * خَلَقَ الإِنْسان * علمه البيان ﴾ [الرحمن:١-٤].

إلا أن الناس كثيرا ما يتركون لأنفسـهم الحبـل علـي الغارب، فتضرب يمينا وشمالا، يقول الله تعاليلا: ﴿ خَيـر فِي كَثِيرٍ من نجواهم إِلا من أَمر بِصـدقَةٍ أَو معـروفٍ أَو إِصلاَحٍ بين الناسِ ومن يفْعلْ ذَلِك ابتِغَاء مرضاتِ اللهِ فَسوفَ نُؤْتِيهِ أَجرا عظِيما ﴾ [النساء:١١٤].

ومن ثم أوصي الله عباده أن يختاروا من الكلام أحسنه وأنفعه حتي لا ينزغ الشيطان بينهم، فقال تعـالي: ﴿ وقُـل لعِبادِي يقُولُوا الَتِي هِي أَحسن إِن الشيطَان ينزغُ بيـنَهم إِن الشيطَان كَان لِلإِنْسانِ عدوا مبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣].

ووصف عباده بأنهم يترفعون عن مجاراة الجاهلين بنفس خطابهم، فقال تعالي: ﴿ وعِباد الرحمن الَذِين يمشُـون

علـى الأرضِ هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ [الفرقان:٦٣].

ويقول تعالي: ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص:٥٥].

وأمر ا سبحانه وتعالي الأمم السابقة كذلك بحسن الخطاب والحوار وأدب الحديث فقال تعالي: ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا ا وبالوالدين إحسانًا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنًا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾

[البقرة:٨٣].

بل أمر ا تعالي بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن دون سب ولا فحش.

فقال تعالي: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ [العنكبوت:٤٦].

والذي يسيح في رياض السنة المشرفة يجد أنها عالجت آداب الحديث والحوار معالجة تامة وافية ومن هـذه الآداب المستنبطة من السنة:

١- التفكير في أبعاد الكلام قبل النطق به:

فالمسلم ينبغي له أن يفكر في الكلمة، فإن كانـت خيـرا تكلم بها وإن كانت شرا امتنع عنها، وإن كانت لا فائدة منها أمسك عنها، وأما أن يتكلم الإنسان بكل ما يجئ علي لسـانه فإنه بذلك يعرض نفسه للزلل وهو واقع فيه لا محالة.

فعن أبي هريرة رضي االله عنه: أنه سمع النبيصلى االله عليه وسلم يقول: إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يـزل بها إلي النار أبعد مما بين المشرق والمغرب(١).

وفي حديث معاذ رضي االله عنه قولهصـلى االله عليـه وسلم: وهل يكب الناس في النار علي وجـوههم- أو قـال علي مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم(٢).

فالإنسـان يزرع بقوله وعمله الحسـنات والسـيئات ثم يحصد يوم القيامة ما زرعه، ويبين لنا رسول االله صلى االله عليه وسلم أن الإمساك عن الكلام- إذا كان فـي غيـر الخير- من علامات الإيمان باالله واليوم الآخر، فيقولصلى

ا عليه وسلم: من كان يؤمن باا واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت(١).

وقال الحسن البصري رحمه اا : كانوا يقولون إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره بقلبـه ثـم أمضاه، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشـئ أمضـاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه.

ويقول عبد اا بن مسعود رضي اا عنه: واا الـذي لا إله إلا هو ليس شئ أحوج إلي طول سجن مـن لسـاني. وكان يقول: يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم.

ويقول أبو الدرداء رضي اا عنه: أنصف أذنيك مـن فيك، وإنما جعل لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم.

٢- التثبت من صحة الكلام قبل التحدث به:

فلا ينبغي للمسلم أن يجعل من فيه بوقا من أبـواق نشر الشائعات، والكلام الذي لا أصل له، أو ما زيـد فيـه فغير معناه، يقول اا تعـالي: ﴿ ولاَ تَقْفُ ما لَيس لَك بِهِ

عِلْم إِن السمع والْبصر والْفُؤَاد كُل أُولَئِك كَان عنْـه مسؤُولاً ﴾ [الإسراء:٣٦]

وروي البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أفـري الفـري أن يري الرجل عينيه ما لم تريا.

ومعناه أن يقول بلسانه رأيت كذا وكذا دون أن يري ذلك بعينيه.

وروي الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنـه أن النبيصلى الله عليه وسلم قال: كفي بالمرء كذبا أن يحـدث بكل ما سمع.

وكذلك يجب علي السامع أن يستوثق مما ينقـل إليـه- وخصوصا إذا كان مصدر الكلام غيـر ثقـة- ولا يبنـي علي ما يسمعه أي عمل أو قول حتي يتبين.

يقول الله تعالي: ﴿ يا أَيها الَذِين آمنُـوا إِن جـاءكُم فَاسِقٌ بِنَبأٍ فَتَبينُوا أَن تُصِيبوا قَوما بِجهالَةٍ فَتُصبِحوا علَى مـا فَعلْتُم نَادِمِين ﴾ [الحجرات:٦].

وكم من أمور تفاقمت وتعقدت بسبب عدم الاستيثاق مما يصل إلي الإنسان من كلام.

٣- البساطة وعدم التكلف:

فالمسلم دائما لا يحاول أن يخلع علي نفسه خلعة مزيفة مزورة فلا تراه يتصنع الفصاحة ولا يتعسف في كلامه.

وقد روي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيصلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتي تفهم، وإذا أتي علي قوم سلم عليهم.. وكانصلى الله عليه وسلم يتكلم بكلام فصل لا هزر ولا نزر، ويكره الثرثرة في الكلام، والتشدق به أي التكلف والتصنع.

٤- المخاطبة علي قدر الفهم:

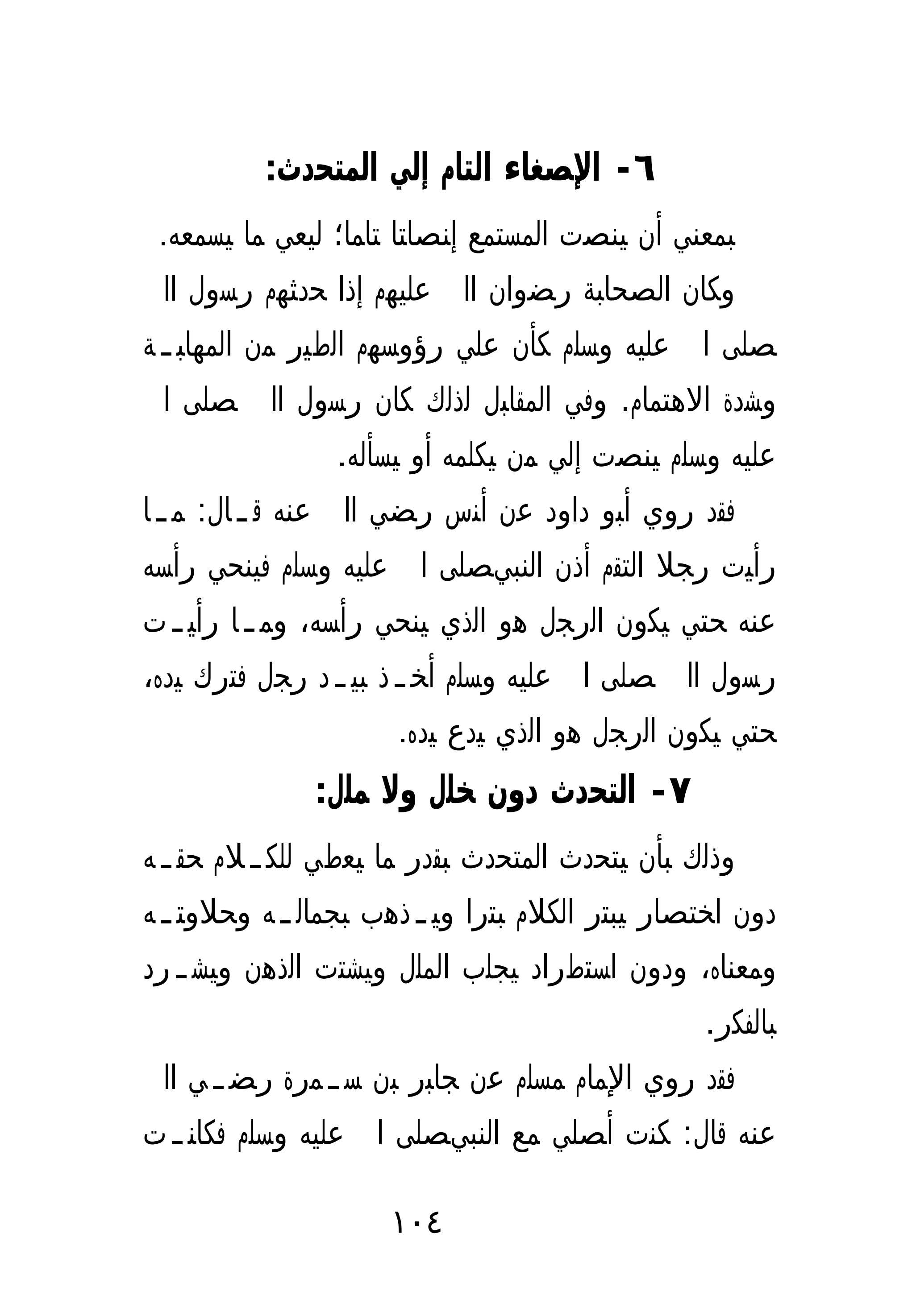
فالمسلم في خطابه لغيره يتكلم بالأسلوب والطريقة التي يفهمها المخاطب، لا التي يفهمها هو، فيخاطب الناس من واقع ظروفهم وبيئتهم وثقافتهم. فلا تراه يشعر الذي أمامه أنه دون ثقافته، ودون مستواه الفكري، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أمرنا معاشر الأنبياء أن نحدث الناس علي قدر عقولهم(١).

ويقول علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفونه، أتحبون أن يكذب الله ورسوله!.

وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

٥- إقبال المتحدث علي الجلساء جميعا:

وذلك بأن يقبل المتحدث علي مستمعيه جميعا فيشملهم بنظراته وحواراته وابتساماته، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه فيظن كل واحد منهم أنه أقربهم إليه منزلة، وأكثرهم حظا من حبه صلى الله عليه وسلم، وذلك من شدة اهتمامه بهم جميعا، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقبل بوجهه علي شر القوم ليتألفه، فقد روي الطبراني بإسناد حسن عن عمرو بن العاص قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل بوجهه وحديثه علي شر القوم يتألفه بذلك. وكان يقبل بوجهه وحديثه علي حتي ظننت أني خير القوم، فقلت يا رسول الله: أنا خير أم أبو بكر؟ فقال: أبو بكر، قلت: يا رسول الله أنا خير أم عمر؟ قال: عمر، قلت: يا رسول الله أنا خير أم عثمان؟ قال: عثمان، فلما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم صدعني، فوددت أني لم أكن سألته.



٦- الإصغاء التام إلي المتحدث:

بمعني أن ينصت المستمع إنصاتا تاما؛ ليعي ما يسمعه.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم إذا حدثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن علي رؤوسهم الطير من المهابة وشدة الاهتمام. وفي المقابل لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصت إلي من يكلمه أو يسأله.

فقد روي أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت رجلا التقم أذن النبي صلى الله عليه وسلم فينحي رأسه عنه حتي يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد رجل فترك يده، حتي يكون الرجل هو الذي يدع يده.

٧- التحدث دون خلل ولا ملل:

وذلك بأن يتحدث المتحدث بقدر ما يعطي للكلام حقه دون اختصار يبتر الكلام بترا ويذهب بجماله وحلاوته ومعناه، ودون استطراد يجلب الملل ويشتت الذهن ويشرد بالفكر.

فقد روي الإمام مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنت أصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم فكانت

صلاته قصدا، وخطبته قصدا أي وسطا وروي أحمد وأبـو داود من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة- فقـام متوكئـا علي عصا- أو قوس- فحمـد الله وأثنـي عليـه، فكانـت خفيفات طيبات مباركات.

٨- حفظ اللسان وصونه إلا عن خير:

فيجب علي المسلم أن يحفظ لسانه ويصـونه مـن كـل الآفات.

فيحفظه من السباب لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سباب المسـلم فسوق وقتاله كفر(١).

ويحفظه من الفحش والتفحش لأن الرسولصلى الله عليه وسلم يقول: إن الله لا يحب كل فاحش متفحش(٢).

ولقوله إن الله تعالي يبغض الفاحش البذئ(٣).

ولقوله ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ(٤).

وحفظ اللسان يكون طبيعة المسـلم حتـي مـع غيـر المسلمين؛ فقد قيل للرسولصلى الله عليه وسـلم ادع علـي المشركين فقال: إني لم أبعث لعانا ولكن بعثت رحمة(٥).

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا عن مجرد كثرة الكلام بغير ذكر الله، فيقول: لا تكثروا الكـلام بغيـر ذكر الله. فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالي قسوة للقلـب وإن أبعد الناس عن الله القلب القاسي(٦).

ويحفظ المسلم لسانه عن عرض المسـلم- خصوصـا- لأن لعرضه حرمة وقداسة، ففي الحديث: كل المسلم علـي المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه(٧).

الهوامش

(١) رواه أحمد والبزار وابن حبان في صحيحه والحـاكم وقـال صحيح الإسناد.

(١) متفق عليه.(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٣) رواه الطبراني والبزار وإسناده حسن.

(١) رواه الطبراني عن جابر رضي الله عنه.(٢) متفق عليه.

(٣) أهل الذمة هم رعايا الدولة الإسلامية من أهل الكتاب.

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه ورواه ابن ماجه.

(١) تفسير الشعراوي المجلد الأول ص٦٥٧.

(١) رواه مسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) متفق عليه.(٢) رواه الطبراني من حديث عمر مرفوعا.

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص١٠١.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه والحاكم وقال صحيح علي شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

(١) متفق عليه.

(١) رواه الديلمي بسـند ضـعيف إلا أنـه له شـواهد كثيرة تجعـله يرتقي إلي درجـة الحسن لغيره.

(١) متفق عليه.(٢) رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

(٣) رواه الطبراني ورجاله ثقات.(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٧) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويجب حفظ اللسان من أن ينقل كلاما إلـي ذي سـلطان- لغيـر مصلحة شرعية- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئا فإني أحب أن أخـرج إلـيكم وأنـا سـليم الصدر(١).

٩- مباسطة الجلساء أثناء التحدث وبعده:

وذلك بأن يقبل المتحدث علـي مسـتمعيه بالابتسـامة الرقيقة، أو الدعابة الخفيفة، وذلك لأن القلوب تمل وتسـأم، فيقول علي رضي الله عنه: إن القلـوب تمـل كمـا تمـل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.

وتقول أم الدرداء- رضي الله عنها-: كان أبو الـدرداء إذا حدث حديثا تبسم، فقلت له: لا: يقول الناس إنك أحمق- أي بسبب تبسمك في كلامك- فقال أبو الدرداء: ما رأيت أو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحـدث حـديثا إلا تبسم، فكان أبو الدرداء إذا حدث حديثا تبسم اتباعا لرسـول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك.

١٠- عدم التناجي بين اثنين دون الثالث:

الإسلام يحافظ علي شعور المسلم نحو أخيه، ويحـرص علي أن تظل أواصر المحبة هي أسـاس العلاقـة بـين المسلمين، لذلك فإن كل ما من شأنه أن يجرح الشـعور أو يوجد الريبة في القلوب فقد نهي عنه الإسلام، وإذا تنـاجي اثنان دون الثالث فإما أنهما يتناجيان سرا في شأن من شئونه

هو، أو أنهما يتناجيان سرا بعيدا عنه لأنه ليس ثقة ولـيس أهلا لأن يشترك في الحوار وفي كلتا الحالتين فـإن ذلـك يوجد في نفسه شيئا تجاههما، لذا فإن رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول: إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجي اثنان دون الآخر حتي تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه(٢).

وقد امتثل السلف لأمر الإسلام وحكمه في ذلك، فها هو عبد الله بن عمر كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريـد أن يناجيه فلم يفعل حتي دعا رابعا ليتحدث مع الآخر، ثم ناجي الطالب للمناجاة.

***

الدعاة وآداب الحديث

يجب أن يكون للداعية إلي الله صورة تميزه عن غيره، وروح تختلف عن غيره، وأدب في الحديث يترفع عن الدنايا، وهذه الصورة ترسمها آيات القرآن في قوله تعالي: ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين * ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ [فصلت:٣٣:٣٦]

وأفضل ما يعبر عما بداخلي حول هذه الآيات هو ما قاله شهيد الإسلام سيد قطب- رحمه الله - وإني أري أن من الخسارة أن أختصر كلامه أو أترك منه شيئا يفقده حلاوته أو يقلل من درجة الاستفادة به.

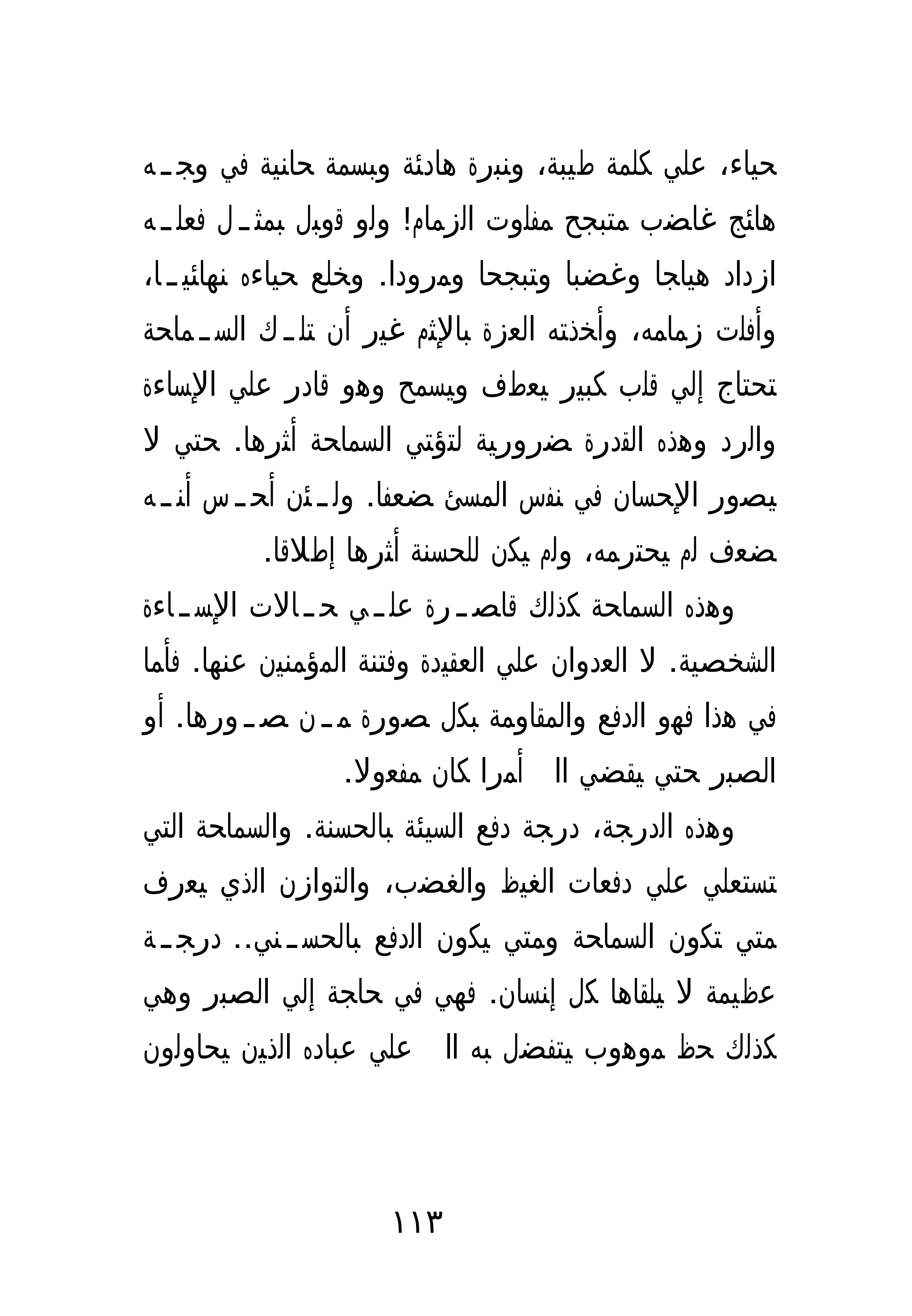
فيقول- رحمه الله - في قوله تعالي: ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾

إن كلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلي السماء. ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة؛ ومع الاستسلام الله الذي تتواري معه الذات. فتصبح الدعوة خالصة الله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ. ولا علي الداعية بعـد ذلـك أن تتلقـي كلمتـه بالإعراض، أو بسوء الأدب أو بالتبجح في الإنكار. فهو إنما يتقدم بالحسنة. فهو في المقام الرفيع؛ وغيره يتقدم بالسـيئة. هو في المكان الدون.

ثم يقول- رحمه الله - في قوله تعـالي: ﴿ ولاَ تَسـتَوِي الْحسنَةُ ولاَ السيئَةُ ﴾ وليس له أن يرد بالسيئة، فإن الحسنة لا يستوي أثرها- كما لا تستوي قيمتها- مع السيئة والصـبر والتسامح، والاستعلاء علي رغبة النفس في مقابلـة الشـر بالشر، يرد النفوس الجامحة إلي الهدوء والثقة، فتنقلب مـن الخصومة إلي الولاء، ومن الجماح إلي اللين.

ثم يقول- رحمه الله - في قوله تعالي: ﴿ ادفَع بِالَتِي هِي أَحسن فَإِذَا الذِي بينَك وبينَه عداوةٌ كَأَنه ولِي حمِيم ﴾

وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة مـن الحـالات وينقلب الهياج إلي وداعة. والغضب إلي سكينة. والتبجح إلي



حياء، علي كلمة طيبة، ونبرة هادئة وبسمة حانية في وجـه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام! ولو قوبل بمثـل فعلـه ازداد هياجا وغضبا وتبجحا ومرودا. وخلع حياءه نهائيـا، وأفلت زمامه، وأخذته العزة بالإثم غير أن تلـك السـماحة تحتاج إلي قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر علي الإساءة والرد وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماحة أثرها. حتي لا يصور الإحسان في نفس المسئ ضعفا. ولـئن أحـس أنـه ضعف لم يحترمه، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقا.

وهذه السماحة كذلك قاصـرة علـي حـالات الإسـاءة الشخصية. لا العدوان علي العقيدة وفتنة المؤمنين عنها. فأما في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة مـن صـورها. أو الصبر حتي يقضي اا أمرا كان مفعولا.

وهذه الدرجة، درجة دفع السيئة بالحسنة. والسماحة التي تستعلي علي دفعات الغيظ والغضب، والتوازن الذي يعرف متي تكون السماحة ومتي يكون الدفع بالحسـني.. درجـة عظيمة لا يلقاها كل إنسان. فهي في حاجة إلي الصبر وهي كذلك حظ موهوب يتفضل به اا علي عباده الذين يحاولون

فيستحقون: ﴿ وما يلّقاها ِإلا الذِين صبروا وما يلّقاهـا ِإلا ذُو حظ عظِيمٍ ﴾ .

إنها درجة عالية إلي حد أن الرسولصلى ا عليه وسلم وهو الذي لم يغضب لنفسه قط؛ وإذا غضبا لم يقم بغضبه أحد. قيل له- وقيل لكل داعية في شخصه-{ا إما ينزغنك من بشيطان نزغ فاستعذ با إنه هو بسميع بعليم}.

فالغضب قد ينزغ، وقد يلقي في الروع قلة الصبر علي الإساءة أو ضيق الصدر عن السماحة. فالاستعاذة باا مـن الشيطان الرجيم حينئذ وقاية، تـدفع محاولاتـه لاسـتغلال الغضب، والنفاذ من ثغرته.

إن خالق هذا القلب البشـري، الـذي يعـرف مداخلـه ومساربه، ويعرف طاقته واستعداده، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه، يحوط قلب الداعية إلـي اا مـن نزغـات الغضب، أو نزغات الشيطان. مما يلقاه في طريقه مما يثير غضب الحليم إنه طريق شاق. طرق السير فـي مسـارب النفس ودروبها وأشواكها وشعابها، حتي يبلغ الداعية منهـا موضع التوجيه ونقطة القياد.

***

سادسا: التواصي بالحق

استخلاف الله عز وجل هذه الأمة وجعل لهـا مقومـات القيادة والريادة والخيرية فقد قال تعالي: ﴿ كُنْتُم خَيـر أُمـةٍ أُخْرِجتْ لِلناسِ تَأمرون بِالْمعروفِ وتَنْهـون عـن الْمنْكَـرِ وتُؤْمِنُون بِالله ولَو آمن أَهلُ الْكِتَابِ لَكان خَيرا لهـم مـنْهم الْمؤْمِنُون وأَكْثَرهم الْفَاسِقُون ﴾ [آل عمران:١١٠].

وقال: ﴿ وكَذَلِك جعلْنَاكُم أُمةً وسطًا لتَكُونُوا شُهداء علَى الناسِ ويكُون الرسولُ علَيكُم شَهيدا وما جعلْنَا الْقِبلَـةَ التِـي كُنتَ علَيها إِلا لِنَعلَم من يتبِع الرسولَ مِمن ينْقَلِب علَى عقِبيهِ وإِن كَانَتْ لَكَبِيرةً إِلا علَى الذِين هدى الله وما كَان الله لِيضِيع إِيمانَكُم إِن الله بِالناسِ لَرؤُوفٌ رحِيم ﴾ [البقرة:١٤٣].

ولتكون هذه الأمة قوية قادرة علي القيام بمهمة القوامـة علي كل الأمم، تقيم العدل بين الناس، فلا بد أن تكون قوية في ذاتها، ولتكون كذلك فقد بين الله عز وجل عوامل هـذه القوة في قوله تعالي ﴿ والْعصرِ إِن الإِنْسان لَفِي خُسـرٍ* إِلا الـذِين آمنُـوا وعمِلُـوا الصـالِحاتِ وتَواصـوا بِـالْحق

وتَواصوا بِالصبرِ ﴾

[العصر].

فالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ هي عوامل قوة هذه الأمة.

يقول صاحب الظلال- رحمه اا -: والتواصي بـالحق ضرورة. فالنهوض بالحق عسير. والمعوقات عـن الحـق كثيرة: هوي النفس ومنطق المصلحة، وتصـورات البيئـة وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين.. والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربي في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة فهو مضـاعفة لمجمـوع الاتجاهـات الفردية، إذ تتفاعل معا فتتضاعف. تتضاعف بإحساس كـل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشـجعه ويقـف معـه ويحبه ولا يخذله.. وهذا الدين- وهو الحق- لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضاعفة علي هذا المثال.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة. فالقيام علي الإيمـان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر علـي

جهاد النفس، وجهاد الغير. والصبر علي الأذي والمشـقة. والصبر علي تبجح الباطل وتنفج الشر. والصبر علي طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعد النهاية!

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة، بمـا يبعثـه مـن إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجـه، وتسـاند الجميـع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار.. إلي آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوهـا، ولا تبرز إلا من خلالها.. وإلا فهـو الخسـران والضـياع انتهي.

ويقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله - فـي كتابـه: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن.

يقول: إن الحق مر والصبر عليـه بـاب للاضـطهاد، والتشبث بالإيمان عند البعض رجعية محقورة ولا بـد مـن عزيمة وجلد.. حتي يكسب المؤمنون المعركة فإذا نظرنا في السنة المشرفة، وجدنا أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم جعل النصيحة- وهي باب من التواصي بالحق- هي الـدين فقالصلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال:الله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم(١).

والنصيحةا : تكون بالاعتقاد السليم والعبادة الصحيحة، وبطاعته والدعوة إلي طاعته وتعظيمه- سبحانه وتعـالي- وتعظيم شعائره.

والنصيحة للرسولصلى ا عليه وسلم- بعـد وفاتـه- بإتباعه فيما أمر به والدعوة إلي ذلك وتكون كذلك بإحيـاء سنته والذود عنها، ورد كيد الكائدين وحقد الحاقدين، وتكون كذلك بتقديمهصلى ا عليه وسلم علي النفس والمال والولد.

والنصيحة لكتاب اا : تكون بتعلمه وحفظه، واتباعـه، والتخلق بأخلاقه، والاستقاء من معينه الصافي، والدعوة إلي تحكيمه في سائر شئون الحياة.

والنصيحة لأئمة المسلمين: تكون بتأليف الناس علـيهم وتأليفهم علي الناس، وتحبيبهم إلي الرعية وتحبيب الرعيـة إليهم، وعدم الخروج عليهم، ووعظهم وإرشادهم وتـذكيرهم بالموت والحساب والمسئولية الكاملة أمام اا عـز وجـل، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والجهر بكلمة الحق عند الجائر منهم، وعدم مداهنتهم، وتكون كـذلك بالجهـاد معهم وعدم خذلانهم أمام الأعداء.

والنصح لعامة المسلمين: يكـون بـأمرهم بـالمعروف ونهيهم عن المنكر ودعوتهم إلي اتباع منهج اا عز وجل، وتكون كذلك بإسداء المعـروف لهـم والنصـح والتوجيـه والإرشاد.

يقول جرير بن عبد اا - رضي اا عنـه-: بايعـت رسول اا صلى ا عليه وسلم علي إقام الصـلاة وإيتـاء الزكاة والنصح لكل مسلم(١).

يقول ابن رجب الحنبلي رحمه اا فـي كتـاب جـامع العلوم والحكم.

وقد أخبر النبيصلى ا عليه وسلم أن الدين النصـيحة، فهذا يدل علي أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمـان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل عليه السلام، وسمي ذلك كله دينا، فإن النصحا يقتضي القيام بأداء واجباته علي أكمل وجوهها وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصحا بدون ذلك، ولا يتأتي ذلك بدون كمال المحبة الواجبة والمسـتحبة، ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات علي هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات علي هذا الوجـه أيضا. انتهي

صور من النصح لأئمة المسلمين

١- نصح الحسن البصري- رحمه الله - لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين.. الإمام العادل هو قوام كل مائل من الحق، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، والإمام العادل.. يا أمير المؤمنين.. كالراعي الشفيق علي ما يرعي، وكالأب الحاني علي ولده، وكالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده. والإمام العادل هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم وينقاد إلي الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال!!!

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك وأنصارك عنده، واذكر إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، لا تحكم بحكم الجاهلين، ولا تسلك سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين علي المستضعفين!!!

ولا تنظر إلي قدرتك اليوم، ولكن انظر إلي قدرتك غدا، وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله، في

مجمع من الملائكة والنبيين ﴿ وعنَتِ الْوجوه ِلِلْحي الْقَيومِ وقَد خَاب من حملَ ظُلْما ﴾ [طه:١١١].

٢- عمر بن عبد العزيز يشترط خمسا لمصاحبته:

قال عمر بن عبد العزيز عندما تولي الخلافة:

مـ ـ ـ ـن أراد أن يصحبني فليصحبنـي بخمـ ـ ـس: يدلنـ ـي عـ ـن العـ ـدل إلـ ـي مـ ـ ـ ـالا أهتـ ـدي إليـ ـه، ويكـ ـون لي علي الخير عونا، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ولا يغتاب عندي أحدا، ويؤدي الأمانـة التي حملها مني ومن الناس.

٣- نصح عبد اا بن عبد العزيز العمري لهارون الرشيد:

حج هارون الرشيد ذات عام وفيما هو يسعي ثم رقـي درجات الصفا، فهتف به عبد اا بن عبد العزيز العمـري فقال: يا أمير المؤمنين: انظر بطرفك إلـي البيـت. فنظـر هارون وقال: قد فعلت. قال العمري: كم من الناس تري؟

قال الرشيد: ومن يحصيهم إلا اا ؟!

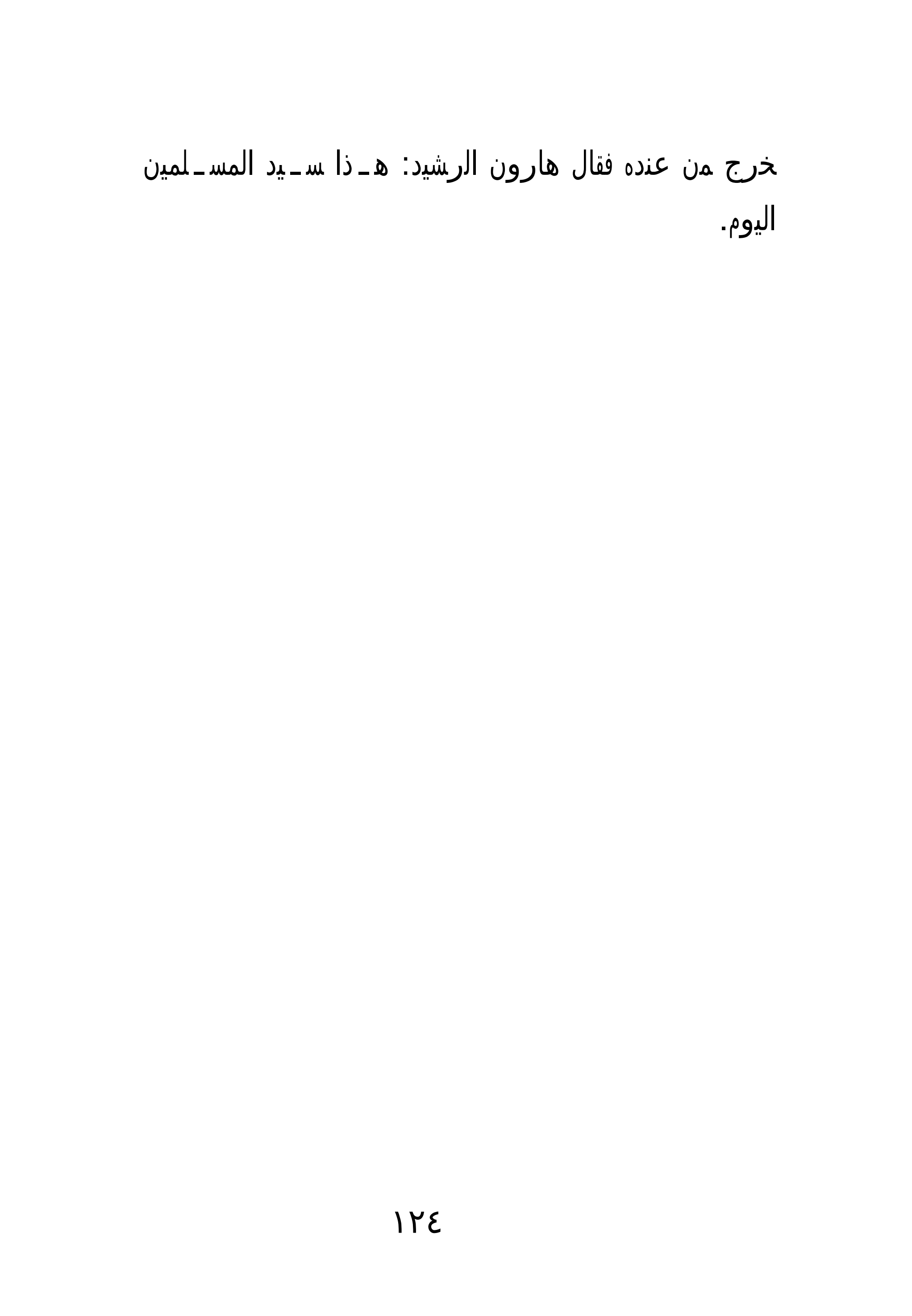
قال العمري: اعلم يا أمير المؤمنين أن كل واحـد مـن هؤلاء يسأل يوم القيامة عن نفسه وأنت وحدك مسئول عـن الجميع فانظر كيف تكون، فبكي هارون.

٤- نصح الفضيل بن عياض لهارون الرشيد:

قال الفضيل بن عياض لهارون الرشيد عندما ذهب إليه يطلب منه النصيحة والتذكرة إن عمر بن عبد العزيـز لمـا ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قـد ابتليـت بهـذا الـبلاء فأشيروا علي. فعد الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصـحابك نعمة. فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك فيها علي الموت، وقـال محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله غدا فلـيكن كبير المسلمين لك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم لـك ولدا. فبر أباك وارحم أخاك وتحنن علي ولدك. وقـال لـه رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله غدا فأحـب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك. وإنـي لأقول لك هذا وإني لأخاف عليك أشد الخـوف يـوم تـزل

الأقدام، فهل معك يرحمك اا مثل هؤلاء القوم من يـأمرك بمثل هذا؟!.

فبكي هارون بكاء شديدا حتي غشي عليه. فقلت: أرفـق بأمير المؤمنين. فقال: يا ابن أم الربيع: قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟ ثم أفاق: فقال زدني. فقال يا أمير المؤمنين.. إن عباس عم رسول اا صلى ا عليه وسلم جاءه فقال يا رسول اا .. أمرني علي إمارة. فقال رسول اا -صلى ا عليه وسلم- يا عباس- عم النبيصلى ا عليه وسلم- نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعـل فبكـي هارون الرشيد بكاء شديدا ثم قال: زدني يرحمك اا . قال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك اا تعالي عن هذا الخلـ ـ ـق يـ ـوم القيامـ ـة فإن استطعت أن تقي هذا الوجـ ـ ـ ـه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبـك غـش لرعيتك فإن النبيصلى ا عليه وسلم قال مـا مـن عبـد يسترعيه اا علي رعية يموت.. يوم.. يموت وهو غـاش لرعيته إلا حرم اا عليه الجنة(١) فبكي هارون الرشيد ثـم



خرج من عنده فقال هارون الرشيد: هـذا سـيد المسـلمين اليوم.

الدعاة والتواصي

النماذج السابقة نماذج من نصح الدعاة لغيـرهم، لكـن الدعاة إلي الله عز وجل يحتاجون إلـي التواصـي بـالحق والتواصي بالصبر فيما بيـنهم وذلـك لأن مهمـتهم شـاقة وطريقهم طويل وعقباته كثيرة، ومنعطفاته خطيرة، فقد ينفد الزاد وتلين العزيمة وتضعف الهمة ولا يستطيع الداعيـة أن يواصل الطريق وحده إذا فلا بد من أن يكون الداعيـة فـي بوتقة واحدة مع إخوانه الدعاة ليصهروا جميعا فيها ويذوبوا، وساعتها يري أحدهم عيب أخيه فيصلحه، ويراه تعثر فيأخذ بيده ليقيل عثرته، ويراه نسي فيذكره، وتنضم المجهـودات المتواضعة والإمكانيات القليلة المحدودة إلي بعضها ليباركها الله عز وجل وينفع بها.

والداعية الذي يعيش منزويا بعيدا عن إخوانه من الدعاة، فمن الذي يستنهضه إذا تعثر؟ ومن الذي يذكره إذا نسـي؟ ومن الذي يعينه إذا ضعف؟ ومن الذي يقومه إذا هو اعوج؟ وكيف ينطبق عليه قولـه تعـالي:{ا تواصـوا بـالحقا تواصوا بالصبر}؟؟!!.

سابعا: الإخـاء

يقول الشيخ عبد الله ناصح علوان الأخوة: هي رابطـة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام..، مع كل من تربطه وإياه من أواصـر العقيـدة الإسـلامية، ووشائج الإيمان والتقوي.. فهذا الشعور الأخـوي الصـادق يولد في نفس المسلم أصدق العواطف النبيلـة فـي اتخـاذ مواقف إيجابية من التعاون، والإيثار، والرحمة، والعفو عند المقدرة... واتخاذ مواقف سليمة من الابتعاد عن كـل مـا يضر الناس في أنفسهم وأمـوالهم وأعراضـهم والمسـاس بكراماتهم... ولقد حث الإسلام علي هذه الأخـوة فـي الله، وبين مقتضياتها وملتزماتها في كثير من الآيـات القرآنيـة والأحاديث النبوية(١).

الأخوة العامة: خلق الله - عز وجل- الناس جميعا مـن أصل واحد ثم تشعبوا وتفرقوا وتعددت ألسنتهم، وتوجهاتهم.

يقول تعالي: ﴿ يا أيها الناس إنا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَـى وجعلْنَاكُم شُعوبا وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إن أَكْرمكُم عِنْد الله أَتْقَـاكُم إن الله عِلِيم خَبِير ﴾ [الحجرات:١٣].

فأسـاس العـلاقة بين البشر أنهـا قائمـة علـي التعـارف لا التنـافر، علي الوئام لا علي الخصام، علـي التعاون لا علي التناحر، فما دام الجميع خلـق مـن أصـل واحد، ويعيش في ظل ألوهيـة إلـه واحـد، فلـم التنـافر والتخاصم؟! ولم التقاتل والتنـازع؟! ولا يمكـن أن يعـيش الناس حقيقة وحدة الأصل إلا إذا عاشوا أولا حقيقة وحـدة الألوهية فأدركوا أن التقوي هي أساس التفاضل بين الناس لا الجنس ولا اللون ولا اللسان، ما دام الجميع من أصل واحد.

أخوة الإيمان(الأخوة الخاصة):

وهي أخوة أوثق رابطة من تلك التي بين النـاس فـي الإنسانية عموما وذلك أن الإنسان مفطور علـي أن يحـب أشباهه ونظائره، ولا شئ يجعل الإنسان يرتبط قلبيا بإنسان آخر إلا أن يعتقد عقيدته ويتصور تصوره ويدين بما يـدين به.

يقول الله تعـالي: ﴿إِنما الْمؤْمِنُـون إِخْـوةٌ ﴾ [الحجرات:١٠].

فهـذه هـــي الآصـــرة التـــي تربـــط المؤمنـين، إنـها وشيجـة العقيدة والإيمـان التـي ينضوي تحتها أتباعها، فالعقيدة والعقيدة وحدها كفيلـة بـأن تربط بين أتباعهـا برباط الأخـوة لا الأخـوة المزيفـة المـزورة! ولكن أخوة الحب... أخوة الإيثار.

وأخوة العقيدة والإيمان هي أقوي من رابطـة النسـب- بدون العقيدة- وذلك لأن رابطة العقيدة لا تـزول بـزوال النسب ولكن رابطة النسب تزول بزوال العقيدة.

يقول القرطبي رحمه الله - في قولـه تعـالي ﴿إِنمـا الْمؤْمِنُون إِخْوةٌ﴾ أي في الدين والحرمة لا في النسـب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخــوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفـة النسب. انتهي.

وتاريخ هـذه العقيـدة ليشـهد أنها متي اسـتقرت في القلوب واجتمـع عليها أصحابها كانت بالفعل أقوي من رابطة النسب، وقد تجلي ذلك في غزوة بدر ومن ذلك:

١- فقد قتل عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة(١).

٢- وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدري بأخيه أبي عزيز بن عمير الـذي خـاض المعركـة ضـد المسلمين، مر به وأحد الأنصار يشد يـده، فقـال مصـعب للأنصاري: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلهـا تفديـه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصـاتك بـي؟! فقال مصعب: إنه- أي الأنصاري- أخي دونك!!!(١).

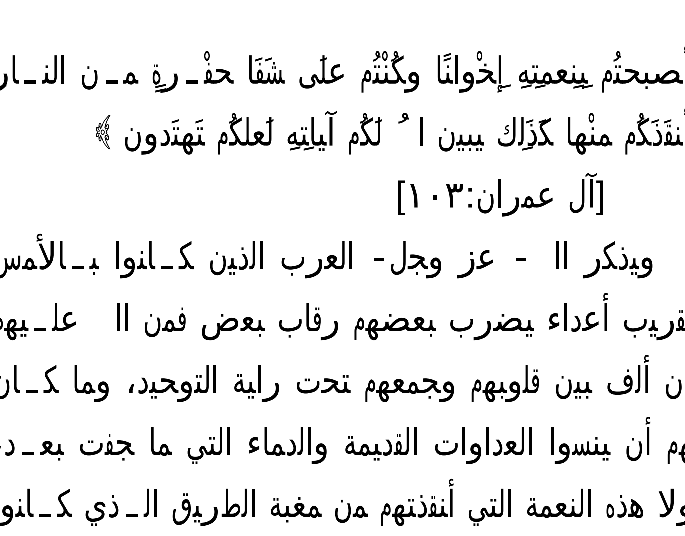
وقد جاءت السنة المشرفة لتؤكد هذا المعني وتبـين أن المسلمين جسد واحد، إذا تألم أحد أعضـائه تألمـت بقيـة الأعضاء مثل المؤمنين في توادهم وتعـاطفهم وتـراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعي لـه سـائر الأعضاء بالسهر والحمي(٢).

وقال: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا(٣).

***

الأخوة من أجل نعم الله

يقول تعالي: ﴿ واعتَصِموا بِحبل الله جمِيعا ولاَ تَفَرقُـوا واذْكُروا نِعمتَ الله علَيكُم إِذْ كُنْتُم أَعداء فَألفَ بـين قُلُـوبِكُم



فَأَصبحتُم بِنِعمتِهِ إِخْوانًا وكُنْتُم علَى شَفَا حفْرةٍ من النار فَأَنقَذَكُم منْها كَذَلِك يبين ا لَكُم آياتِهِ لَعلكُم تَهتَدون ﴾

[آل عمران:١٠٣]

ويذكر ا - عز وجل- العرب الذين كانوا بالأمس القريب أعداء يضرب بعضهم رقاب بعض فمن ا عليهم بأن ألف بين قلوبهم وجمعهم تحت راية التوحيد، وما كان لهم أن ينسوا العداوات القديمة والدماء التي ما جفت بعد، لولا هذه النعمة التي أنقذتهم من مغبة الطريق الذي كانوا يسيرون فيه.

وتبين الآية السابقة ملمحا هاما من ملامح الأمة الإسلامية وهو أن سر قوة المسلمين لا تمكن في عددهم، ولا تكمن في ثرواتهم، ولكن تكمن في تجمعهم علي أساس العقيدة والإيمان، وهو الأمر الذي يعمل الأعداء علي ألا يكون.

لا يزعج أعداء الإسلام أن يلتف المسلمون حول راية العروبة- بعيدا عن الإسلام ولا يزعجهم أن يلتفوا حول قومية من القوميات، بل إن الأعداء أنفسهم يصنعون زعامات لهذه القوميات، فكل راية ينضوي تحتها عدد من

المسلمين لتتناحر زعامات هذه القوميات لتكون النتيجة التي نراها على الساحة اليوم.

ولعل الكثير من المنظمات الإسـلامية- أو العربيـة- الموجودة اليوم هي من تدبير أعداء الإسلام وذلك لتحاول أن تملئ الفراغ الذي تعانيه الأمة من جراء غياب الراية التـي تجمع المسلمين تحتها وهي راية الخلافة الإسلامية.

فتكون هذه المنظمات بمثابة البدائل التـي قـدمها لنـا الأعداء.

يقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه اا : إن ضعف رباط الأخوة الإسلامية نذير شر وهو ذريعة إلـي تـدخل غيـر المسلمين كي يستغلوا الأوضاع المائلة لمصالحهم الخاصـة، والإسلام هو الخاسر أولا وآخرا(١).

***

من متطلبات الأخوة

١- المناصرة والمؤازرة:

فالأخوة تتطلب أن ينصر الأخ أخاه ويشـد مـن أزره، ونصره له يختلف باختلاف المواقف؛ فنصره له حينما يكون مظلوما يكون بالوقوف إلي جانبه ومساعدته في إثبات حقه، والعمل علي رفع الظلم عنه، ونصره له إذا كان ظالما يكون بكفه عن ظلمه وبأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

وفي الحديث: انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قال أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما؟! قال: تحجزه عن ظلمه فـذلك نصره(٢).

يقول الشيخ محمد الغزالي- رحمـه اا - وقـد هـان المسلمون أفرادا، وهانوا أمما يوم وهت أواصـر الأخـوة بينهم، ونظر أحدهم إلي الأخوة نظرة اسـتغراب وتنكـر، وأصـبح الأخ ينتقص أمـام أخيـه فيهـز كتفيـه ويمضي لشـأنه كأن الأمـر لا يعنيه(١).

٢- المشي في قضاء الحوائج:

فقد جاء في الحديث إن ا تعالي عبادا اختصهم بحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنـون مـن عذاب اا (٢).

وقد روي عن رسول اا -صلى ا عليه وسـلم- إن ا عند أقوام نعما أقرها عندهم ما كانوا في حوائج المسـلمين، ما لم يملوهم، فإذا ملوهم نقلها إلي غيرهم(٣).

٣- خفض الجناح والتواضع:

يقول اا تعالي: ﴿ محمد رسولُ ا ِ والـذِين معـه أَشِداء علَى الْكُفار رحماء ﴾ [الفتح:٢٩].

فإذا كانوا فيما بينهم فهي الرحمة، والتواضع، والتسامح، وإذا كانوا مع الكفار فهي الشدة والغلاظة والقوة.

ويقول تعالي: ﴿ يا أَيها الذِين آمنُوا من يرتَد مِـنْكُم عن دِينِهِ فَسوفَ يأْتِي ا ُ بِقَومٍ يحِبهم ويحِبونَه أَذِلـةٍ علَـى الْمؤْمِنِين أَعِزةٍ علَى الْكَافِرِين يجاهِدون فِـي سـبِيلِ ا ِ ولاَ يخَافُون لَومةَ لائِمٍ ذَلِك فَضلُ ا ِ يؤْتِيهِ من يشَاء وا ُ واسِـع علِيم ﴾

[المائدة:٥٤]

فهذه صفات الجيل المنتصر الذي يحقق الله على يديه نصره.

٤- المواساة بالمال عند الحاجة إلي ذلك:

فلا تقف الأخوة عند حد الكلمات الجوفاء والشعارات الدعائية، بل تتحول إلي واقع عملي يتمثل في بذل المال لسد حاجة المحتاجين، وأقل ذلك أن تعطيه من فضل مالك وأعلي ذلك أن تؤثره علي نفسك.

وحكي أن رجلا أتي صديقا له، فدق عليه الباب، فقال أهلا وسهلا ما جاء بك؟ قال: علي أربعمائة درهم دين، فدخل مسرعا وأخرج أربعمائة درهم ثم عاد يبكي فقالت امرأته: لم أعطيته إذ شق عليك ذلك: فقال إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتي احتاج إلي مفاتحتي.

***

من نواقض الأخوة

١- الخذلان وعدم المناصرة والمؤازرة:

ففي الحديث الشريف قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم علي بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذبه ولا يحقره، التقوي ها هنا، ويشير إلي صدره ثلاثة مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم علي المسلم حرام دمه وماله وعرضه(١).

ويكون هذا علي مستوي الأفراد ومستوي الجماعات، فلا يخفي علينا استغاثات واستنصارات الشعوب الإسلامية في فلسطين، وفي الشيشان، وفي البوسنة والهرسك، وفي كوسوفا، وفي كشمير، وغيرها. فهل هبت الشعوب الإسلامية لتغيث إخوان العقيدة؟! فهل قدمت الشعوب الإسلامية شيئا تبرهن به علي إخوتها للمستنصرين المستجيرين؟!! إن هذا الخذلان، وهذا التقاعس، بل والتواطؤ- أحيانا- لهو ناقض لرابطة العقيدة.

وفي الحديث: لا يقفن أحدكم موقفا يضرب فيـه رجـل ظلما فإن اللعنة تنزل علي من حضره حيـث لـم يـدفعوا عنه(٢).

رجل واحد يضرب ظلما تنزل اللعنة علي من حضـر ذلك ولم يرفع عنه الظلم! فكيف بالألوف التي تذبح!! فكيف بالأطفال التي تقتل!! فكيف بالأعراض التي تهتك؟! كم مـن اللعنات تنزل؟!

الهوامش

(١) رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود.

(١) رواه مسلم عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه.

(١) متفق عليه.

(١) مسـلم من حديث معقل بن يسـار(كتاب الإيمان- بـاب اسـتحقاق الوالي الغاش لرعيته النار).

(١) تربية الأولاد في الإسلام جـ١ ص٣٥٨.

(١) الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.

(١) الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي موسي الأشعري(كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا).

(١) من كتاب نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد من حديث جابر.

(١) من كتاب خلق المسلم.

(٢) رواه الطبراني عن ابن عمر بإسناد حسن.

(٣) رواه الطبراني وأحمد والحاكم بإسناد حسن عن ابن عمر.

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.(٢) رواه الطبراني.

ويقول صلى ا عليه وسلم -: من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر علي أن ينصره أذله اا علي رؤوس الأشهاد يوم القيامة(١).

٢- ترويع المسلم وإخافته:

ألا إن المسلم الحق هو الذي يدفع عن المسلم كل ما يؤذيه، في نفسه أو ماله أو عرضه. أما أن يزعم الذين يروعون المسلمين ويخيفونهم بأنهم لا زالوا إخواننا للمسلمين! هيهات!! وفي الحديث الشريف من كان يؤمن باالله واليوم الآخر فلا يروعن مسلما(٢) وأيضا من أشار إلي أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتي ينتهي وإن كان أخاه لأبيه وأمه(٣).

ويقول: من حمل علينا السلاح فليس منا(٤).

***

الدعاة إلي االله وحق الأخوة

إذا كانت هذه حقوق الأخوة بين المؤمنين عموما فإن الدعاة إلي االله - عز وجل- يحتاجون إلي تدعيم هذه الحقوق بصورة أعمق وأقوي، إذ أن وعورة الطريق، وكثرة العقبات، كل ذلك يحتاج إلي أن يكون الأخ بجانب أخيه بنفسه وماله ووقته وعقله، إنه الامتزاج التام بين أرواح

الدعاة، التكامل الكامل بـين الدعـاة، التكافـل الكافـل لحاجات الدعاة، التعاون المعين علي أعباء الدعوة الجسام.

قال علي بن الحسن- رضي الله عنه- لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريـد بغيـر إذنه؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان!

وقضي ابن شبرمة حاجة كبيرة لأحد إخوانـه، فجـاءه بهدية. فقال ابن شبرمة: ما هذا؟ قال له أخوه: لما أسـديته إلي، قال له: خذ مالك عافاك الله إذا سألت أخاك حاجة فلـم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبـر عليـه أربـع تكبيرات وعده في الموتي!!!

ألا إن المهمة التي تنتظر الدعاة مهمة شاقة لا يصلح لها صف مهلهل!! ولا يصلح لها صف لا يسوده الإيثار فضـلا عن نقائه من أهل الأثرة! لا بد أن يعلم الفرد أنه وحـده لا شئ؛ وبإخوانه كل شئ؛ لا بد أن يعي الداعية جيدا أنه إن لم يكن بإخوانه فلن يكون بغيرهم وهـم إن لـم يكونـوا بـه فسيكونون بغيره، وليعلم الدعاة جميعـا أن أدنـي مراتـب الأخوة سلامة الصدر، وأعلاها الإيثار.

***

ثامنا: الإيثـار

الإيثار معناه: أن يقدم الإنسان حاجة غيره علي حاجته، رغبة في الأجر والثواب، فتراه يجود بماله لأخيه مع حاجته إليه، ويجود بوقته لقضاء حاجة أخيه، مع احتياجه الشـديد إليه.

يقول الله تعالي- واصفا عباده الأبرار- ﴿ يوفُون بِالنذْرِ ويخَافُون يوما كَان شَره مستَطِيرا * ويطْعِمون الطعام علَى حبهِ مِسكِينًا ويتِيما وأَسِيرا * إِنما نُطْعِمكُم لِوجهِ الله لا نُرِيد مِنْكُم جزاء ولاَ شُكُورا * إِنا نَخَافُ مِن ربنَا يومـا عبوسـا قَمطَرِيرا﴾ [الإنسان:٧-١٠].

يقول صاحب الظلال- رحمه الله - وهي صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة علي الوفـاء بتكـاليف العقيدة، مع رحمة ندية بعباده الضعاف، وإيثارا علي النفس، وتحرج وخشية لله، ورغبة في رضاه، وإشفاق مـن عذابـه تبعثه التقوي والجد في تصور الواجب الثقيل.

ويقول في قوله تعالي: ﴿ ويطْعِمون الطعام علَـى حبـهِ مِسكِينًا ويتِيما وأَسِيرا ﴾ .

وهي تصور شعور البر والعطف والخير ممـثلا فـي إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه. فمثل هذه القلوب لا يقال عنها إنها تحب الطعـام الـذي تطعمـه للضـعاف المحاويج علي اختلاف أنواعهم إلا أن تكون في حاجة هـي إلي هذا الطعام، ولكنها تؤثر به المحاويج.

ويقول الله تعالي: ﴿ والذِين تَبوءوا الدار والإِيمـان مِن قَبلِهم يحِبون من هاجر إِلَيهم ولاَ يجِدون فِي صـدورِهِم حاجةً مما أُوتُوا ويؤْثِرون علَى أَنْفُسِـهِم ولَـو كَـان بِهِـم خَصاصةٌ ومن يوقَ شُح نَفْسِهِ فَأُولَئِك هم الْمفْلِحون ﴾ [الحشر:٩].

فهذه الآية الكريمة المباركـة ترسـم صـورة صـادقة للأنصار الذين تبوءوا المدينة قبل المهاجرين، كما تبـوءوا فيها الإيمان، فاتخذوه منزلا لهم ودارا!

هؤلاء الأنصار- في مجموعهم- يمثلون صفحة مشرقة في التاريخ بلغت من إشراقها وعظمتها حدا لولا أن القرآن أخبرنا بها، وصحيح السنة؛ لقلنا إن هذا من نسج الخيـال!! فكما تروي لنا كتب السيرة أن حـب الأنصـار لإخـوانهم المهاجرين بلغ حدا عظيما، إذ مـا نـزل مهـاجري علـي

أنصاري إلي بقرعة! وذلك لأن عدد الراغبين في الإيـواء، المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين!

ولولا أن القرآن نزل فزكي هؤلاء وأخبرنا عن دواخلهم الطاهرة، لقلنا بأن القوم يريدون أن يتجملوا ليشهد لهم الناس بالكرم والسخاء!

أو لقلنا إنهم يريدون أن يسجل التاريخ لهم مآثرهم!

ومن المواقف التي يقف الإنسان أمامها مشدوها: موقف سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه- في الله - عبد الرحمن بن عوف المهاجري، فقد روي البخاري أنهـم لمـا قـدموا المدينة آخي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بـين عبـد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالا فأقسم ما لي نصـفين، ولـي امرأتـان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عـدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلوه علي سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل مـن أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة، فقال النبيصلى الله عليه وسلم: مهيم؟ قال تزوجت قال: كم سقت إليها؟ قال نواة من ذهب(١).

فسعد يعرض علي أخيه المال والزوجة!!

المال الذي يتقاتل عليه الأخوة أبناء الصلب الواحد، والبطن الواحد والثدي الواحد!!! يعرضه سعد علي أخيه عبد الرحمن! والزوجة التي ربما تقاتل الأخوان للتنافس عليها! يتنازل عنها سعد لأخيه عبد الرحمن!

ولا تجد أعجب من موقف سعد إلا موقف أخيه عبد الرحمن الذي ضرب المثل الأعلي في العفة والقناعة، فلا يسيل لعابه إلي المال ولا إلي الزوجة ولكن يقول لأخيه: بارك اللَّه لك في أهلك ومالك.

فإذا كان الأنصار ضربوا المثل في الإيثار فإن المهاجرين ضربوا المثل في العفة والقناعة، أليسوا جميعا تربية محمد-صلى اللَّه عليه وسلم- ؟! أليس المهاجرون هم الذين تركوا أموالهم وديارهم وخرجوا ينصرون اللَّه ورسوله؟! أليس الأنصار هم الذين قطعوا كل الوشائج ووصلوا رابطة العقيدة بينهم وبين إخوانهم المهاجرين؟!

فإذا كانت هذه بعض النماذج من الإيثار فإنه من الممكن أن تتكرر هذه النماذج إذا استقت من نفس المنبع ونهلت

من نفس المنهل الذي استقي منه ونهل أولئـك الأنصـار، فالمنهج موجود ويستطيع أن يخرج الكثير من نماذج الإيثار.

***

صـــور من الإيثار

١- جاء رجل إلي النبي-صلى ا عليه وسلم- فقال: يا رسول اا : إني مجهود- أي شديد الجوع- فأرسل إلي بيت إحدي زوجاته يسألها: هل عندك شئ من الطعام؟ فقالت: لا. والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء. فقال رسول اا صلى ا عليه وسلم لأصحابه: من يضيف هذا الليلة يرحمه اا ؟ فقام رجل من الأنصار، وذهب به إلي بيتـه ودخـل علـي زوجته فقال: أكرمي ضيف رسول اا وفي روايـة: أنـه سألها هل عندك شئ من الطعام؟

فقالت ما عندي إلا قوت صبياني.

فقال علليهم، فإذا أرادوا الطعام فنوميهم! فإذا كان الليل، فضعي الطعام بين يدي الضيف! ثم قـومي إلـي السـراج فأصلحيه، ثم أطفئيه! وأريه أنا نأكل حتي يأكـل الضـيف ويشبع.

ففعلت ما أشار به زوجها، فنومت أطفالها علي الجوع، ووضعت الطعام بين يدي الضيف؟ ثم قامت إلـي السـراج فأطفأته، وهي تظهر أنها تريد إصلاحه وجلست مع زوجها، وضيفها علي الطعام.

وتظاهرا أنهما يأكلان- ولا يأكلان- حتي أكل الضـيف وشبع وحمد الله تعالي فنزل جبريل عليه السـلام، وأخبـر النبي-صلى الله عليه وسلم- بما فعل الأنصاري وزوجته مع الضيف! ولما كان الصباح التفت النبـي-صـلى الله عليـه وسلم- إلي الأنصاري وقال له: إن الله تعالي عجـب مـن صنيعكم بضيفكما البارحـة(١)(أي رضـي عنكمـا كـل الرضا).

٢- وفي معركة اليرموك قدم الماء لعكرمة وأصـحابه فكل منهم يأمر بدفعه إلي صاحبه وهو جريح مثقل، أحـوج ما يكون إلي الماء، فيرده الثاني إلي الثالث، فما وصل إلـي الثالث حتي ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضـي الله عنهم(٢).

٣- قال ابن عمر- رضي الله عنهما- أهدي لرجل من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأس شاه فقال:

أخي فلان أحوج إليه فبعث به إليه، فبعثه ذلك إلـي آخـر، فلـم يـزل يبعـث به واحـد إلـي آخر حتي رجع إلي الأول بعد أن تداول سبعة(٣).

٤- بعث معاوية بن أبي سفيان بثمانين ألف درهم إلـي عائشة، وكانت صائمة، وعليها ثوب خلق فوزعت هذا المال من ساعتها علي الفقراء والمساكين ولم تبق منه شيئا. فقالت لها خادمتها: يا أم المؤمنين، أما استطعت أنا تشـتري لنـا لحما بدرهم تفطرين عليه: فقالت يا بنيـة: لـو ذكرتينـي لفعلت(١).

٥- عوتب عبد الله بن جعفـر- رحمـه الله - لكثـرة عطائه وسخائه فقال: إن الله عودني عادة، وعودت خلقـه عادة فأخاف أن أقطع العادة فتنقطع العادة.

***

قمـة الإيثـار

وأعلي قمة للإيثار أن يؤثر العبد رضي الله علي رضي غيره، وإن عظمت فيه المحن واشتد فيه البلاء.

يقول ابن القيم- رحمه الله - فمن آثر رضي الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم، وجهـالهم وأهـل البـدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل مـن يخـالف هديه هديه فما يقدم علي معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلي الله (٢).

***

صور من الإيثار المذموم

هذه الصور ليست في حقيقتها إيثارا بالمعني الصـحيح ولكنها إيثار في نظر أصحابها. ومن ذلك:

١- أن يؤثر الإنسان غيره بمالـه كلـه، ويقعـد كـلا مضطرا، مستشرفا للناس أو سائلا.

٢- أن يؤثر الإنسان غيره بما يقطـع عليـه طريقـه للوصول إلي الله ، مثل أن يؤثر جليسـه علـي ذكـره الله ، وتوجهه وجمعيته علي الله ، فيكون قد آثره علي الله ، وآثـر بنصيبه من الله ما لا يستحق الإيثار.

٣- الإيثار بما يفسد علي المؤثر وقته، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه علي الله فيفرق قلبه عليـه بعـد جمعيتـه ويشتت خاطره.

٤- الإيثار بالقرب: كمن يـؤثر بالصـف الأول- فـي الصلاة- غيره ويتأخر هو، أو يؤثر غيره بقربه من الإمـام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة.

إيثـار الدعاة إلي الله - عز وجل-

وإيثار الدعاة إلي الله - عز وجل- يتطلب منهم:

١- التجرد الكامل لدعوة الله تبـارك وتعـالي، وبـذل النفس والنفيس في سبيل تبليغ دعوة الله - عز وجل- إيثارا لما عند الله، وإيثارا لرضي الله علي رضي غيره، فإذا كان الداعية كذلك فلا بد من المحن التي تقابله وتعترض طريـق إيثارها - عز وجل-.

يقول ابن القيم- رحمه الله -(والمحنـة تعظـم علـي صاحب هذا الإيثار ليتأخر من ليس من أهله، فإذا احتملهـا وتقدم، انقلبت تلك المحن منحا. وصارت تلك المؤن عونـا. وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة، فإنه ما آثر عبـد مرضاة الله - عز وجل- علي مرضاة الخلق، وتحمل ثقـل

ذلك ومؤنته، وصبر علي محنته إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته. فانقلبت مخاوفه أمانا، ومظان عطبه نجاة، وتعبـه راحـة، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضي، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذلة المتهيبين)(١).

٢- التفاني في حماية القيادات الدعوية، إيثارا لسلامتها علي سلامة الفرد، إذ أن في سلامة القيادة الدعويـة تبقـي الدعوة وتنتشر، وهذا ينبثق من التجرد الكامل للدعوة. ومن هذه الصور:

(أ) موقف علي بن أبي طالب ليلة الهجرة إذ نام مكـان الرسول-صلى الله عليه وسلم- مضحيا بنفسه، مؤثرا لحياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لأن في بقـاء الرسـول بقاء للدعوة.

(ب) خرجت امرأة من الأنصار قتـل أبوهـا وأخوهـا وزوجها يوم أحد مع رسول الله -صلى الله عليـه وسـلم- فقالت ما فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؟

قالوا خيرا هو بحمد الله كما تحبين! قالت: أرونيه حتي أنظر إليه فلما رأته قالت: كل مصيبة بعده جلل(١).

(جـ) رفع المشركون خبيبا- رضي الله عنه- علـي الخشبة ونادوه يناشدونه: أتحب أن محمدا مكانك؟ قـال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها فـي قدمـه فضحكوا منه(٢).

(د) ترس أبو دجانة يوم أحد علي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك(٣).

٣- أن تسود روح الإيثار صف الدعاة إلي الله - عـز وجل- فالإيثار أعلي درجات الحب، وهذه الدرجة العليا من الحب وإن كانت مندوبة بين المسلمين عموما فإنهـا يشـتد ندبها بين الدعاة إلي الله - عز وجل-، إذ أنهم معرضـون للشدائد والمحن فإذا ما كانت روح الإيثار هي السائدة فـي هذا الصف، فإن الأفراد يتسابقون في أيهم يجـوع ليشـبع أخوه! وأيهم يتعب ليستريح أخوه! وأيهم يسهر لينام أخـوه! وأما إذا كانت الأثرة والأنانية سائدة بين أفراد هذا الصـف فإنه ينهار عند أول شدة، إذ يتنازع الأفراد فيما بينهم علـي أيهم يأكل ليجوع الآخر! وأيهم يستريح ليتعب الآخر! وأيهم ينام ليسهر الآخر!!



ومن هنا فقد تحتم علي الدعوة أن تربي أبناءها علي الإيثار، ونبذ الأثرة.

تاسعا: الاتحـــاد

الخطاب الإلهي موجه إلي الجماعة لا إلي الأفراد:

يقول الله تعالي: ﴿ يا أَيها الَّذِين آمنُوا اركَعوا واسجدوا واعبدوا ربكُم وافْعلُوا الْخَير لَعلَّكُم تُفْلِحون * وجاهِدوا فِي الله حق جِهادِهِ هو اجتَباكُم وما جعلَ علَيكُم فِي الدين مِن حرجٍ ملةَ أَبِيكُم إِبراهِيم هو سماكُم الْمسلِمِين مِن قَبلُ وفِي هذَا لِيكُون الرسولُ شَهِيدا علَيكُم وتَكُونُوا شُهداء علَى الناسِ فَأَقِيموا الصلاةَ وآتُوا الزكَاةَ واعتَصِموا بِالله هو مولاكُم فَنِعم الْمولَى ونِعم النصِير ﴾ [الحج:٧٧-٧٨].

ففي هاتين الآيتين يوجه الله - عز وجل- الخطاب للأمة المؤمنة فيأمرها بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير ليرجوا الفلاح، ويكون ذلك استعدادا وتهيئة جماعية للأمة لتقوم بتكاليفها العظام المتمثلة في الجهاد- وهو جماعي لإقامة العدل بين الأمم، لأن الله عز وجل جعل الرسول شاهدا عليهم ليقرر لهم المعايير والموازين التي تصلحهم ثم يقررون هم بدورهم المعايير والموازين التي تحكم الأمم

لتضمن الأمن والأمان والعدل والسلام بين الناس، ومن ثـم فهو عبء ثقيل يحتاج إلي تضافر الجهود.

ويقول تعالي: ﴿إِياك نَعبد وإِياك نَستَعِين * اهـدِنَا الصراطَ الْمستَقِيم * صِراطَ الـذِين أَنْعمـتَ علَـيهم غَيـر الْمغْضوبِ علَيهم ولاَ الضالين﴾ [الفاتحة:٥-٧].

فلا يتوجه العبد إلي ربه بصيغة المفرد، حتي ولو كـان يصلي وحده- بل يتحدث بلسان الجماعة، فنراه ينوب عـن الجماعة في التوجه إلي االله بالعبودية والاستعانة، ويطلـب من االله عز وجل الهداية للجماعة كلها.

والمتأمل جيدا في القرآن والسنة يجد أنهما يغرسان فـي نفس المسلم الشعور بالجماعة في كل أحكامـه وفـي كـل تعاليمه. ففي الصلاة شرعت الجماعة، وشدد في إقامتها.

فقد روي عمر بن الخطاب- رضي االله عنـه- إن االله تبارك وتعالي ليعجب من الصلاة في الجمع(١).

وعن أبي الدرداء- رضي االله عنه- قال: سمعت رسول االله -صلى االله عليه وسلم- يقـول: مـــا مـــن ثلاثـــة فـــي قريـــة ولا بـــدو، لا تقـــام فيهـــم الصلاة،

إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكـل الذئب من الغنم القاصية(٢).

وكذلك شرعت الجمعة، والعيدان، والأذان والمساجد.

فعن ابن مسعود- رضي اا عنه-: أن النبي-صلى ا عليه وسلم- قال لقوم يتخلفون عن الجمعة لقـد هممـت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أحرق علي رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم(٣).

وحتي في صلاة الجماعة- في المسجد- يكره للمسلم أن يصلي وحده خلف الصف، لما في ذلك من الظهور بصورة الانفراد أو الشذوذ عن الجماعة ولو مـن جهـة المظهـر الشكلي فقط..

فقد روي وابصة بن معبد- رضي اا عنه- أن رسول اا -صلى ا عليه وسلم- رأي رجلا يصلي خلف الصـف وحده فأمره أن يعيد الصلاة(٤).

والمقصود من كل ذلك هو إظهار حرص الإسلام علـي الوحدة والجماعة شكلا ومضمونا، جوهرا ومظهرا.

وفي الصيام لا يصوم المسلم وحده ولا يفطر وحده، بل يصوم يوم يصوم الناس ويفطر يوم يفطر الناس، تأكيدا علي روح الجماعة.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قـال رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- الفطر يوم يفطر الناس والأضحي يوم يضحي الناس(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي -صـلى الله عليه وسلم- قال: صومكم يوم تصـومون، وفطـركم يـوم تفطرون، وأضحاكم يوم تضحون(٢).

وفي الوقوف بعرفه لا يقف الحاج وحده ولا يصح ذلـك منه- بل يقف الحجاج جميعا. وتأكيدا لكل ذلـك يقـول الله تعالي:

﴿ يا أيها الرسلُ كُلُوا مِن الطيباتِ واعملُوا صالِحا إِنـي بِما تَعملُون علِيم * وإِن هذِهِ أُمتُكُم أُمةً واحِدةً وأَنـا ربكُـم فَاتقُون * فَتَقَطعوا أَمرهم بينَهم زبرا كُل حِزبٍ بِمـا لَـديهم فَرِحون * فَذَرهم فِي غَمرتِهم حتى حِينٍ ﴾

[المؤمنون:٥١-٥٤].

فهذا خطاب من الله - تعالي- إلي كل الرسـل وكـأنهم موجودون في مكان واحد وفي زمان واحد- علـي تباعـد الزمان والمكان- فيأمرهم الله - عز وجل- بالعمل الصـالح في صورة الجماعة رغم أنهم لم يجتمعوا!!.

ثم تأكيد علي وحدة الأمة ووحدة الربوبية، فتفرق الناس بعد الرسل أحزابا وشيعا ففرح كل حزب بما لديهم من غي وضلال!! والمقصود بالأمة في الآية السابقة هي الدين.

***

اتباع الهوي ومتابعة البغي هو سبب التفرق

قلنا بأن الرسل جميعا جاءوا بدين واحد وأمروا النـاس باتباعه فاتبع الكثير من الناس أهواءهم.

يقول الله تعالي: ﴿ شَرَعَ لَكُم من الدينِ ما وصى بِهِ نُوحا والذِي أَوحينَا إِلَيك وما وصينَا بِهِ إِبـراهِيم وموسـى وعِيسى أَن أَقِيموا الدين ولاَ تَتَفَرقُوا فِيهِ كَبر علَى الْمشْرِكِين ما تَدعوهم إِلَيهِ الله يجتَبِي إِلَيهِ من يشَاء ويهدِي إِلَيهِ من ينِيب * وما تَفَرقُوا إِلا مِن بعدِ ما جاءهم الْعِلْم بغْيا بينَهم ولَـولاَ كَلِمةٌ سبقَتْ مِن ربك إِلَى أَجلٍ مسمى لَقُضِي بينَهم وإِن الذِين أُورِثُوا الْكِتَاب مِن بعدِهِم لَفِي شَك منْه مرِيبٍ ﴾

[الشوري:١٣-١٤]

ما دام شرع ا الذي شرعه لنا هو نفسه الذي وصي به نوحا، وهو نفسه الذي وصي به إبراهيم وموسي وعيسـي، فلم الاختلاف إذا؟! ولم يتقاتل أتباع موسي وأتباع عيسـي؟! ولم يتقاتل أتباع عيسي مع أتباع محمدصلى ا عليه وسـلم ؟! ولم تتقاتل الفرق داخل أتباع النبي الواحد؟! ما دفعهم إلي ذلك إلا أنهم كبر عليهم أن يتجردوا من الهوي والغي، فليس الجهل هو الذي دفعهم لـذلك ولـيس أي شـئ إلا الهـوي والبغي.

يقول صاحب الظلال- رحمه ا - فهم لم يتفرقـوا عن جهل؟ ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذي يربطهم، ويربط رسلهم ومعتقداتهم. إنما تفرقـوا بعـد مـا جاءهم العلم. تفرقوا بغيا بيـنهم وحسـدا وظلمـا للحقيقـة ولأنفسهم سواء. تفرقوا تحـت تـأثير الأهـواء الجـائرة، والشهوات الباغية، تفرقوا غير مستندين إلـي سـبب مـن العقيدة الصحيحة والمنهج القويم. ولو أخلصـوا لعقيـدتهم، واتبعوا منهجهم ما تفرقوا، بل إن ا - عز وجل- يقـول: ﴿ كَان الناس ُأمةً واحِدةً فَبعثَ ا ُ النِبيين مبشرين ومنـذِرين

وَأَنْزلَ معهم الْكِتَاب ِبِالْحق ِليحكُم ببين الناس ِفيما اخْتَلَفُوا ِفيِهِ وما اخْتَلَفَ ِفيِهِ ِإلا الِذين ُأوتُوه ِمن بعدِ ما جـاءتْهم الْبينَـاتُ بغْيا ﴾ [البقرة:٢١٣]

أي وما اختلف في الكتـاب المنيـر المنـزل لإزالـة الاختلاف والتفرق في الدين إلا الذين أتاهم االله الكتاب، فهم قد عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنـزل لإزالـة الاخـتلاف والتفرق سببا في ترسيخ هذا الاختلاف واستحكامه.

***

الاختلاف في الدين انفصال عنه

يقول تعالي: ﴿ ِإن الِذين فَرقُوا ِدينَهم وكَانُوا ِشـيعا لستَ ِمنْهم ِفي شَيٍء ِإنما َأمرهم ِإلَى االلهِ ثُم ينَبُئهم ِبما كَـانُوا يفْعلُون ﴾

[الأنعام:١٥٩].

فهـي البراءة الكاملة، والانفصال التام بين الذين فرقوا دينهم واختلفوا فيه وبين محمد-صلى االله عليه وسلم- رمـز الدين الذي ارتضاه االله للناس ولن يقبل منهم غيره.

ويقول تعالي: ﴿ واعتَصِموا بِحبـل ا ِ جمِيعـا ولاَ تَفَرقُوا واذْكُروا نِعمتَ ا ِ علَيكُم إِذْ كُنْتُم أَعداء فَـأَلفَ بـين قُلُوبِكُم فَأَصبحتُم بِنِعمتِهِ إِخْوانًا وكُنْتُم علَى شَفَا حفْـرةٍ مـن النارِ فَأَنقَذَكُم منْها كَذَلِك يبين ا ُ لَكُم آياتِهِ لَعلكُـم تَهتَـدون* ولْتَكُن منْكُم أُمةٌ يدعون إِلَى الْخَيـرِ ويـأْمرون بِـالْمعروفِ وينْهون عن الْمنْكَرِ وأُولَئِك هم الْمفْلِحـون * .ولاَ تَكُونُـوا كَالَذِين تَفَرقُوا واخْتَلَفُوا مِن بعدِ ما جاءهم الْبينَاتُ وأُولَئِك لَهم عذَاب عظِيم ﴾

[آل عمران:١٠٣-١٠٥].

فيبين االله سبحانه وتعـالي أن الاعتصـام بحبـل االله - القرآن والسنة- هو العصـمة مـن الزلـل والأمـان مـن الاختلاف والتفرق، وأما في حالة التخلي عن حبل االله - عز وجل- فيكون التقاتل والتطاحن كما قال-صـلى االله عليـه وسلم-: لا ترجعوا بعدي كفارا يضـرب بعضـكم رقـاب بعض(١).

يقول الدكتور يوسف القرضاوي- حفظه االله -:

وهذا يدلنا علي أن الذي يوحد الأمة ويجمع شتاتها وجود منهج موحد تعتصم به، وترجع إليه، وهو هنـا حبـل االله :

الإسلام والقرآن، ووجود رسالة مشتركة تشتغل بها وتجعلها أكبر همها، وهو هنا الدعوة إلي الخير والأمر بـ المعروف والنهي عن المنكر أما إذا قعدت الأمة عن الرسالة، أو فقدت المنهج، فإن السبل ستتفرق بها عن يمين وشمال، والشياطين ستتجاذبها من شرق وغرب وهو ما حذر منه القرآن بقوله:

﴿ وَأن هذَا صِراطِي مستَقِيما فَـ اتبِعوه ولاَ تَتبِعـوا السـبلَ فَتَفَرقَ بِكُم عن سبِيلِهِ ذَلِكُم وصاكُم بِهِ لَعلكُم تَتقُون ﴾
[الأنعام:١٥٣](١).

وحرصا علي وحدة الأمة وسلامتها من الاخـتلاف والتفرق؛ يحذرنا القرآن من دسائس غير المسـلمين الـ ذين يكيدون لهم ليفرقوا كلمتهم، ويمزقوا وحدتهم، كما فعل ذلك اليهود في الإيقاع بين الأوس والخزرج بعد أن جمعهـم الله علي الإسلام، فيقول الله تعالي : ﴿ يا أَيها الَذِين آمنُوا إِن تُطِيعوا فَرِيقًا من الَذِين أُوتُوا الْكِتَاب يـردوكُم بعـد إِيمانِكُم كَافِرِين ﴾
[آل عمران:١٠٠].

***

الخروج عن إجماع الأمة

متي استقرت أحوال الأمة، واجتمعت كلمتها - علي الحق- وتوحد صفها وتوجهت نحو أداء مهمتها والقيام برسالتها، فإن خروج فئة أو حتي خروج فرد من الأمة علي هذا الإجماع يعد تعطيلا للأمة وتضييعا لجهدها وجهادها وإيجادا للذريعة التي يتذرع بها الأعداء للكيد والدسيسة بين صفوف الأمة، ومن ثم فقد شدد القرآن علي ذلك فقال عز من قائل ﴿ ومن يشَاقِقِ الرسولَ مِن بعدِ ما تَبين لَه الْهدى ويتبِع غَير سبِيل الْمؤْمِنِين نُولهِ ما تَولى ونُصلِهِ جهنم وساءتْ مصِيرا ﴾ [النساء:١١٥].

ويقول-صلى ا عليه وسلم-: من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية(٢).

وقال: من خرج علي أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشي من مؤمنها ولا يفي بعهد ذي عهدها فليس مني ولست منه(٣).

وليس المقصود بالخروج علي الجماعة هو مجرد الاختلاف في الرأي في المسائل الاجتهادية أو القضايا الطارئة علي الأمة، ولكنه الخروج الذي يجعل الأمة تنقسم

إلي أحزاب وفرق يضرب بعضها بعضا فتضـيع مقـدرات الأمة. وهذا ما يبينه الحديث السابق.

***

التنازع يؤدي إلي الفشل والهزيمة

يقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله -:

إن الشقاق يضعف الأمة القوية، ويميت الأمم الضعيفة.. ولذلك جعل الله أول عظة للمسلمين- بعد ما انتصروا فـي معركة بدر- أن يوحدوا صفوفهم، ويجمعوا أمـرهم. لمـا تطلعت النفوس الضعيفة للغنائم، تشتهي حظها وتتنافس علي اقتسامها، نزل قوله تعالي ﴿ يسأَلُونَك عنِ الأَنْفَال قُل الأنفَالُ لِله والرسول فَاتقُوا الله وأَصلِحوا ذَاتَ بيـنِكُم وأَطِيعـوا الله ورسولَه إِن كُنْتُم مؤْمِنين ﴾ [الأنفال:١]

ثم أفهمهم أن الاتحاد في العمل هـو طريـق النصـر المحقق والقوة المرغوبة ﴿ وأَطِيعـوا الله ورسـولَه ولاَ تَنَازعوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهب رِيحكُم واصبِروا إِن الله مع الصابِرِين ﴾ [الأنفال:٤٦](١).

ولعل سبب الشدة التي لحقت بالمسلمين في أحـد هـو اختلاف الرماة على أميرهم عبد الله بن جبير، ومخـالفتهم بذلك تعليمات الرسول -صلى الله عليـه وسـلم- وذلـك أن التنازع يجعل كل فريق يتبع هواه، ويتأثر وينتصـر لرأيـه ولشخصه فتتشتت الجهود، وتتفرق القلوب، ويحكم الهـوي فيضيع النصر.

***

الخلاف في الفروع لا يوجب الشقاق والتناحر

كلامنا السابق خاص بالاختلاف المذموم وهو الاختلاف في الأصول والعقائد، أما الخلاف في المسائل الفرعية، التي تخضع لإعمال العقول، فمـن الطبيعـي أن يختلـف فيهـا المجتهدون، إذ أن العقول تتفاوت، والظـروف والأحـوال تتباين، ومن ثم فمن اجتهد- وكان مـن أهـل الاجتهـاد- فأصاب فله أجران، أجر علي اجتهاده، وأجر علي إصابته، ومن اجتهد فأخطأ، فله أجر واحد وهو أجر اجتهاده، وذلـك لأنه استفرغ طاقته وعمل بكل إمكاناته ولم يتبع الهوي.

وكما جاء في الحديث إذا اجتهد الحـاكم فأصـاب فلـه أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر(١).

وقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم- يختلفون فـي فهم النصوص الشرعية الظنية الدلالة، ومن ذلك موقفهم في غزوة بني قريظة، فبعد أن رجع النبـي-صـلى الله عليـه وسلم- من غزوة الخندق ووضع السـلاح واغتسـل، أتـاه جبريل عليه السلام فقال قد وضـعت السـلاح؟ والله مـا وضعناه، فاخرج إليهم قال: فإلي أين؟ قال: ههنا، وأشار إلي بني قريظة، فخرج النبي-صلى الله عليه وسلم- إليهم(٢).

ونادي-صلى الله عليه وسـلم- فـي المسـلمين: ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فسار الناس، فـأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصـلي حتـي نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، ولم يرد منا ذلك فـذكروا ذلك للنبي-صلى الله عليه وسلم- فلم يعنف أحدا منهم(٣).

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وفي اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله -صلى الله عليه وسـلم-: ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة علـي النحـو السابق، مع عدم تعنيف النبي-صلى الله عليه وسلم- أحـدا منهم أو معاتبته، دلالة هامة علـي أصـل مـن الأصـول الشرعية الكبري، وهو تقرير مبدأ الخـلاف فـي مسـائل

الفروع، واعتبـار كل من المتخالفين معـذورا ومثابـا، سـواء قلنا أن المصيب واحـد أو متعدد كمـا أن فيـه تقريرا لمبدأ الاجتهـاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل علي أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التـي تتبع من دلالات ظنية، أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم(١).

قلت: لو أراد االله - عز وجل- من الناس الإتفـاق فـي جميع الفروع لجعل لكل الأدلة قطعية الدلالة!! ولكن حكمـة االله - تعالي- اقتضت أن تكون الأغلبية الساحقة من الأدلـة الشرعية(الكتاب أو السنة) ظنيه الدلالة(٢).

وذلك حتي تتحقق صفة المرونـة للتشـريع الإسـلامي والتي تؤهله للصلاحية لكل زمان ومكان. ونخلص مما سبق إلي أن االله عز وجل جعل بعض الأحكام ذات وجه واحـد وبعض الأحكام ذات أوجه متعـددة؛ فالأحكـام التـي ذات وجـه واحـد لا يقبل االله إلا هذا الوجه، وذلك مثل آيـات المواريث، فهي قطعية الثبوت- كسائر القـرآن- وقطعيـة الدلالة؛ إذ لا مصلحة- للناس في أن تكون هذه الآيات ظنية الدلالة وأما عن الأحكام المتعددة الأوجه، فيقبل االله - عـز

وجل- منها أي وجه وذلك تيسيرا علي الأمة ودفعا للحـرج عنها.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي- حفظـه اﷲ -: وقـد عرفنا في عصرنا أناسا يجهدون أنفسهم، ويجهدون النـاس معهم، ظانين أنهم قادرون علي أن يصبوا الناس في قالـب واحد يصنعونه هم لهم، وأن يجتمع الناس علي رأي واحد، يمشون فيه وراءهم، وفق ما فهموه من النصوص الشرعية، وبذلك تنقرض المذاهب، ويرتفع الخلاف، ويلتقـي الجميـع علي كلمة سواء!!

ونسي هؤلاء أن فهمهم للنصوص ليس أكثر مـن رأي يحتمل الخطأ، كما يحتمل الصواب، إذ لم تضمن العصـمة لعالم فيما ذهب إليه، وإن جمع شروط الاجتهاد كلها، كل ما ضمن له هو الأجر علي اجتهاده، أصاب أم أخطأ ولهذا لـم يزد هؤلاء علي أن أضافوا إلي المـذاهب المدونـة مـذهبا جديدا! ومن الغريب أن هؤلاء ينكرون علي أتباع المـذاهب تقليدهم لأئمتها، علي حين يطلبون من جمـاهير النـاس أن يقلدوهم ويتبعوهم(١).

***

الهوامش

(١) رواه أحمد في مسنده وقال السيوطي في الجـامع الصـغير إسناده حسن.

(٢) رواه الطبراني في الكبير وقال السيوطي إسناده حسن.

(٣) رواه مسلم في الأدب، ورواه الترمذي في الفتن، كلاهما عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجة عن ابـن عمـر ورواه مسلم عن أبي هريرة.

(١) صحيح البخاري. باب إخاء النبيصلى ا عليه وسـلم بـين المهاجرين والأنصار.

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي(تفسير ابـن كثيـر جـ ٤ ص٣٣٨).

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص٣٣٨.

(٣) إحياء علوم الدين جـ ٢ ص١٧٢.

(٢،١) تهذيب مدارج السالكين.

(١) تهذيب مدارج السالكين.

(١) رواه ابن إسحاق، ورواه البيهقي مرسلا.(٢) البداية والنهاية جـ ٤ ص٦٣.

(٣) زاد المعاد جـ ٢ ص١٣٠.

(١) رواه أحمد عن عمر بن الخطاب- مرفوعا- بإسناد حسـن، وكذلك الطبراني من حديث بن عمر- مرفوعا- بإسناد حسن، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان، في صحيحيهما والحاكم، وحسنه الألبـاني فـي صـحيح الترغيـب والترهيب.

(٣) رواه مسلم.(٤) رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجة.

(١) رواه الترمذي وقال السيوطي في الجامع الصغير صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجة والترمذي وصححه.

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة من حديث جريـر بن عبد اا .

(١) من كتاب(ملامح المجتمع المسلم).(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(١) من كتاب(خلق المسلم).

اتحاد الدعاة إلي الله - عز وجل

العمل الجماعي واجب يفرضه الدين:

١- يقول الله تعالي: ﴿ كُنْتُم خَيرَ أُمةٍ أُخْرِجـتْ لِلنـاسِ تَأمرون بِالْمعروفِ وتَنْهون عن الْمنْكَرِ وتُؤْمِنُون بِالله ولَو آمن أَهلُ الْكِتَابِ لَكَان خَيرا لهم منْهم الْمؤْمِنُـون وأَكْثَـرهم الْفَاسِقُون ﴾ [آل عمران:١١٠].

٢- ويقول: ﴿ ولْتَكُن منْكُم أُمةٌ يدعون إِلَـى الْخَيـرِ ويأْمرون بِالْمعروفِ وينْهون عـن الْمنْكَـرِ وأُولَئِـك هـم الْمفْلِحون ﴾

[آل عمران:١٠٤].

فالخطاب في الآية الأولي موجـه إلـي الأمـة جميعـا بصفتها الجماعة التي اختارها الله - عز وجـل- وفضـلها علي سائر الأمم بما لها من خصائص الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وفي الآية الثانية يوجب الله - عز وجل- الـدعوة إلـي الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علي فئـة مـن الأمة- علي سبيل فرض الكفاية.

٣- ويقول تعالي: ﴿ إنما وليكم ا ُ ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاةَ ويؤْتُون الزكاةَ وهـم راكعـون *.ومن يتَول ا َ ورسوله والذين آمنُوا فإن حِـزب ا ِ هـم الْغَالِبون ﴾

[المائدة:٥٥-٥٦].

وهل الموالاة إلا الحب والمناصـرة وربـط المصـير بالمصير؟! وهل يمكن ذلك إلا أن يكون داخل الجماعة التي تمثل حزب اا في الأرض؟!

٤- ويقول: ﴿ قُلْ هذِهِ سبِيلي أَدعو إلى ا ِ على بصِيرةٍ أَنَا ومن اتبعنِي وسبحان ا ِ وما أَنَا مِن الْمشْرِكِين ﴾

[يوسف:١٠٨].

وهذه الآية تبين أن سبيل الدعوة هـو سـبيل الرسـول والذين اتبعوه بإحسان؛ وهل كان الرسول إلا مؤسس جماعة تقوم بواجب الدعوة إلي اا ؟!

٥- ويقول تعالي: ﴿ والْمؤْمِنُون والْمؤْمِنَـاتُ بعضـهم أَولياء بعضٍ يأْمرون بِالمعروفِ وينْهون عن الْمنْكَرِ ويقِيمون الصلاةَ ويؤْتُون الزكَـاةَ ويطِيعـون ا َ ورسـوله أُولَئِـك سيرحمهم ا ُ إن ا َ عزيز حكِيم ﴾ [التوبة:٧١].

فهذه الصفات، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسـوله هـي؛ الصفات التي تفرق بين جماعة المؤمنين وجماعة المنافقين؛ لأن الله تعالي يقول فـي صـفات المنـافقين ﴿ الْمنَـافِقُون والْمنَافِقَاتُ بعضهم من بعضٍ يأْمرون بِالْمنكَرِ وينْهون عـن الْمعروفِ ويقْبِضون أَيدِيهم نَسوا اللَّه فَنَسِيهم إِن الْمنَافِقِين هم الْفَاسِقُون ﴾ [التوبة:٦٧].

إذا فهناك حزبان: حزب للجماعة المؤمنة يضمهم جميعا بما لهم من مواصفات، وحزب للمنافقين يضمهم بما لهم من مواصفات، فلا بد للمسلم أن يكون فـي حـزب الجماعـة المؤمنة، مواليا لها ومناصرا ورابطا مصيره بمصيرها.

أما أن يكون المسلم علي الحياد بين الحزبين فلا!!

يقول الإمام ابن القيم- رحمه الله - للذين يكتفون بأمور العبادة الفردية ويتهربون من التكاليف الجماعية والتي مـن أهمها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول عنهم هؤلاء في نظر العلماء من أقل الناس دينا، فأي دين وأي خير فيمن يري محارم الله تنتهك. وحدوده تضاع ودينه يترك، وسـنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- يرغب عنها، وهو بارد القلب

ساكن اللسان؟ شيطان أخرس. وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين سلمت لهم مآكلهم، ورياساتهم، فلا مبالاة بما يجـري علي الدين وهؤلاء مع سقوطهم من عـين الله ومقـت الله لهم، قوبلوا في الدنيا بأعظم بليه، وهم لا يشـعرون وهـو موت القلوب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوي. وانتصاره لدين الله أكمل(١).

٦- يقول تعالي: ﴿ لُعِن الـذِين كَفَـروا مِـن بنِـي إِسرائِيلَ علَى لِسانِ داود وعِيسى ابنِ مريم ذَلِك بِما عصـوا وكَانُوا يعتَدون

* كَانُوا لاَ يتَنَاهون عن منكَرٍ فَعلُوه لَبِئْس ما كَـانُوا يفْعلُون ﴾

[المائدة:٧٨-٧٩].

وهذه الآية تبين أن سبب لعن بني إسرائيل هو تـركهم لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧- ويقول تعالي: ﴿ واتقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبن الذِين ظَلَمـوا مِنْكُم خَاصةً واعلَموا أَن الله شَدِيد الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥]

وهذه الآية تبين أن عدم فعل المنكر، أو عدم الظلم ليس كافيا لنجاة الإنسان بل لابد وأن ينهي الناس عـن المنكـر وعن الظلم.

٨- ويقول تعالي: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينـا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾
[الأعراف:١٦٥].

وتبين الآية أن النجاة في النهي عن المنكر، وأن الهلاك في فعله.

والآية تعقيب علي أصحاب السبت الذين تحايلوا علـي شرع الله، فنهتهم الجماعة المؤمنة فلم ينتهوا.

٩- ويقول تعالي: ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسـر* إلا الذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات وتواصـوا بـالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [العصر].

وما دام الإنسان عموما في خسـران إلا الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات وتواصوا بـالحق وتواصـوا بالصـبر، فتكون هذه الأربعة واجبة، ولا يكـون التواصـي بـالحق والتواصي بالصبر إلا إذا كان ذلك داخل الجماعة.

١٠- وعن ابن عمر- رضي اا عنهما- قال: خطبنـا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس: إني قمت فيكم كمـا قـام رسول اا -صلى ا عليه وسلم- فينـا، فقـال: أوصـيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلـونهم، ثـم يفشـوا الكذب، حتي يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنـين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة(١).

ويظهر من الحديث أن حاجة الناس إلي الجماعة تشـتد كلما طغي الفساد وانتشر.

١١- عن أبي موسي عن النبي-صلى ا عليه وسـلم- والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكـر ولتأخذن علي أيدي المسئ، ولتأطرنه علي الحق إطـرأ أو ليضربن اا بقلوب بعضكم علـي بعـض ويلعـنكم كمـا لعنهم(٢).

والفعل الذي يؤدي تركه إلي اللعن لا شك أن فعله يكون واجبا، وكذلك مما لا شك فيه أن هذه الأمور الـواردة فـي الحديث لا يمكن أن يقوم بها الفرد وحده فعينت الجماعة.

١٢- عن العرس بن عميرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتي تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة علي أن تغيره، ولا تغيره، فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة(٣).

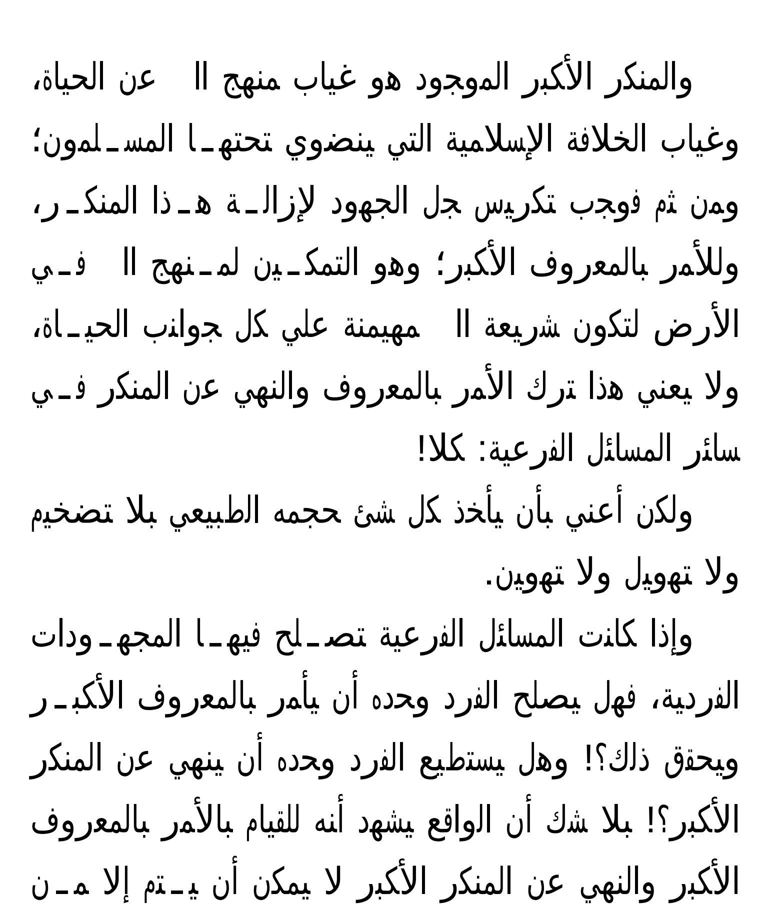
وفي الحديث:

أن المعصية الفردية؛ أي التي يعملها آحـاد النـاس ولا يجهرون بها، لا يرجع عقابها علي سـائر الأمـة، أمـا إذا استساغت الأمة معصية الخاصة وألفتها ولـم تمجهـا مـع القدرة علي ذلك فإن العقوبة حينئذ تشمل العامة والخاصة.

العمل الجماعي ضرورة يحتمها الواقع:

كل الآيات السابقة والأحاديث، وغيرها، يصرفها بعض الدعاة إلي الجزئيات والفروع، فيجعلون من المسائل الفرعية الجزئية قضايا مصيرية!!

فيبذلون قصاري جهدهم ووقتهم ومالهم في معالجة هذه القضايا الثانوية، ونسوا أن هناك المنكر الأكبـر، يجـب أن يزال، وهناك المعروف الأكبر يجب يؤمر به! فكيف توجـد الفروع والأصول مفقودة؟!



والمنكر الأكبر الموجود هو غياب منهج اا عن الحياة، وغياب الخلافة الإسلامية التي ينضوي تحتهـا المسـلمون؛ ومن ثم فوجب تكريس جل الجهود لإزالـة هـذا المنكـر، وللأمر بالمعروف الأكبر؛ وهو التمكـين لمـنهج اا فـي الأرض لتكون شريعة اا مهيمنة علي كل جوانب الحيـاة، ولا يعني هذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فـي سائر المسائل الفرعية: كلا!

ولكن أعني بأن يأخذ كل شئ حجمه الطبيعي بلا تضخيم ولا تهويل ولا تهوين.

وإذا كانت المسائل الفرعية تصـلح فيهـا المجهـودات الفردية، فهل يصلح الفرد وحده أن يأمر بالمعروف الأكبـر ويحقق ذلك؟! وهل يستطيع الفرد وحده أن ينهي عن المنكر الأكبر؟! بلا شك أن الواقع يشهد أنه للقيام بالأمر بالمعروف الأكبر والنهي عن المنكر الأكبر لا يمكن أن يـتم إلا مـن خلال جماعة وذلك للأسباب الآتية:

١- أن أعداء الإسلام يعملون في نظام وتنظـيم، فـي صورة جمعيات سرية، أو في صورة جمعيات علنية تلـبس ثوبا آخر غير ثوبها.

فهل يعمل أعداء الإسلام في دقة ونظام وتخطيط ونحن لا زلنا تختلف في مدي شرعية العمل الجماعي؟! وإذا كـان العمل الجماعي غير واجب! فكيف نواجه تكتلات الأعداء؟! وكيف نواجه تنظيماتهم السرية؟! بل والعلنية؟!

يقول الله تعالي: ﴿ والَذِين كَفَروا بعضهم أَولِياء بعـضٍ إِلا تَفْعلُـوه تَكُـن فِتْنَـةٌ فِـي الأَرضِ وفَسـاد كَبِيـر ﴾ [الأنفال:٧٣].

فهل يعقل أن ينصر الكافرون بعضهم بعضا، ويحاربوننا مجتمعين ونحن نواجههم فرادي؟! أم أن الحل ألا نـواجههم بالمرة؟! فالله - عز وجل- يبين لنا إلا نفعله مـثلهم- فـي تجمعهم ومناصرتهم لبعض- تكن فتنة في الأرض وفسـاد كبير. وهل هناك فتنة وفساد أكبر من تنحية منهج الله عـن الحياة؟!

٢- ما دامت مواجهة الأعداء واجبة، ولا يمكن ذلك إلا من خلال جماعة فتكون الجماعة واجبة إذ أن وسيلة الشـئ تأخذ حكمه أي أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٣- أن مجهود الفرد- أيا كانت قدراته- لا يمكن أن يقيم أمة تستعيد عزتها وكرامتها ومقدسـاتها، لكـن أن تنضـم

المجهودات الفردية إلي بعضها فتكون بناء قويـا، اللبنـة القويـة فيـه تـزداد قوة وتماسـكا، واللبنـة الضـعيفة تتقوي بأخواتها.

يقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله - والاتحاد قوة.. وليس ذلك في شئون الناس فقط، إنه قـانون مـن قـوانين الكون، فالخيط الواهي إذا انضم إليه مثله أصبـح حـبلا متينا يجر الأثقال، وهذا العالم الكبير ما هو إلا جملة ذرات متحدة(١).

٤- الجماعة تنظم مجهودات الأفراد وتوجهها، وتنسـق بينها وتوزع الأدوار في الدعوة بحسب القدرات والطاقـات فتنسجم مع بعضها وتتكامل، وبذا فإنها تستغل كل الطاقـات التي لو تركت دون توجيه لأهملت، أو لأخرجت في غيـر فائدة.

٥- الجماعة تشحذ عزم الأفراد وتصقل أرواحهم دائما، وتوجد لهم الأنشطة الدعوية التي يمارسونها.

٦- الجماعة تعصم الأفراد من الشطط والزلـل الـذي يمكن أن يقع فيه الفرد بعيدا عن الجماعة.

٧- الجماعة تجعل مجهودات الأفراد موجهـة وجهـة واحدة دون أن يهدم الفرد ما يبنيه غيره.

٨- الجماعة بما لقيادتها علـي أفرادهـا مـن السـمع والطاعة تمنع الخلاف الذي قد ينشب بين الأفراد.

فروي أبو هريرة- رضي اا عنه- عن رسـول اا - صلى ا عليه وسلم- قال إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم(١).

فإذا كانوا ثلاثة وجب عليهم أن ينصـبوا مـنهم أميـرا عليهم وذلك لحل مسائل الخلاف وتنظيم الأمور، فما بالـك بالذين يعملون لإحياء أمة؟! ألا يحتاجون إلي مـن يتـولي قيادهم؟!

يقول عمر بن الخطاب- رضي اا عنه- لا إسـلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة.

٩- الجماعة تحافظ علي أفرادها من التساقط والضياع.

وكم شهدت الساحة الإسلامية من أفراد علت أصواتهم، وكان لهم ما لهم من الصيت، ثم فجأة خفيت أصواتهم!!

وكم من الشباب قطعوا أشواطا في الطريق ثم لم يجدوا من يحتويهم ويوجههم الوجهة الصحيحة ويضـعهم ضـمن

لبنات البناء، فذابوا وتفتتوا!! وأخذتهم الريح فألقت بهم فـي مكان سحيق!!

عاشرا: الإحسـان

الإحسان هو أن ينشد الإنسان الكمال في كل شئ:

١- ففي باب المعاملات والعلاقات الشخصية لا يكتفـي بالعدل بل يتعداه إلي الفضل وهو الإحسان.

يقول الله تعالي ﴿إِن الله يأْمر بِالْعـدل والإحسـان وإِيتَاءِ ذِي الْقُربى وينْهى عنِ الْفَحشَـاءِ والْمنْكَـرِ والْبغْـي يعِظُكُم لَعلكُم تَذَكرون﴾

[النحل: ٩٠].

يقول ابن كثير- رحمه الله - يخبر تعالي أنه يـأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ويندب إلـي الإحسـان كقوله: ﴿ وإِن عاقَبتُم فَعاقِبوا بِمِثْلِ ما عوقِبتُم بِـهِ ولَـئِن صبرتُم لَهو خَير للصابِرِين﴾ [النحل:١٢٦].

وقوله: ﴿ وجزاء سيئَةٍ سيئَةٌ مثْلُها فَمن عفَا وأَصـلَح فَأَجره علَى الله إِنه لاَ يحِب الظالِمِين﴾

[الشوري: ٤٠]

وقوله: ﴿ وكَتَبنَا علَيهم فِيها أَن النفْس بِـالنفْسِ والْعـين بِالْعينِ والأَنْفَ بِالأَنْفِ والأُذُن بِالأُذُنِ والسن بِالسن والْجروح

ِقصاص فَمن تَصدقَ ِبِهِ فَهو كَفارةٌ له ومن لم يحكُم ِبما َأنْزلَ
ا ُ فَأُولَئِك هم الظاِلمون ﴾ [المائدة:٤٥]

إلـ ـي غيـ ـ ـ ـ ـر ذلك مـ ـن الآيـ ـات الدالـ ـ ـ ـ ـة علي شريعـ ـ ـة العدل والندب إلي الفضل(١).

ويقول صاحب الظلال- رحمه- وإلي جـ ـوار العـ ـدل.. الإحسان.. يلطف من حدة العدل الصارم الجـ ـازم، ويـ ـدع الباب مفتوحا لمن يريد أن يتسامح في بعض حقه إيثارا لود القلوب، وشفاء لغل الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليـ ـداوي جرحـ ـا أو يكسـ ـب فضـ ـلا. والإحسان أوسع مدلولا، فكل عمل طيب إحسـ ـان، والأمـ ـر بالإحسان يمثل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحيـ ـاة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسـ ـرته، وعلاقاتـ ـه بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جميعا انتهي.

٢- وفي باب الأموال: يكون الإحسان بحسن التصـ ـرف في المال؛ وذلك بإخراج حق اا فيه ثم تعـ ـدي ذلـ ـك إلـ ـي الإنفاق في سبيل اا ، في الجهاد وغيره، ثم إحسان الظـ ـن بااا أنه سيخلف عليه خيرا مما أنفقه، فيكون ذلك قد أحسن

إلي نفسه فلم يعرضها للتهلكة الناتجة عـن تـرك الإنفـاق والجهاد في سبيل الله.

يقول الله تعالي: ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَـى التهلُكَـةِ وَأَحسِـنُوا إِن اللَّهَ يحِـب الْمحسِـنِين ﴾ [البقرة:١٩٥].

والإنفاق في السراء والضراء- مع كظم الغيظ والعفـو عن الناس- من الإحسان الذي يحبه الله.

يقول تعالي ﴿ الَّذِين ينْفِقُـون فِـي السـراءِ والضـراءِ والْكَاظِمِين الْغَيظَ والْعافِين عن الناسِ والله يحِب الْمحسِنِين ﴾ [آل عمران:١٣٤].

وفي باب العمل: يكون الإحسان بإتقانـه فـي أحسـن صورة، بأن يعمل الإنسان العمل لغيره كما يحب أن يعملـه غيره له، فإعطاء العمل حقه، بلا غـش ولا تـدليس، وأداء العمل بلا خمول ولا استهتار، لهو الإحسان الذي يحبه الله.

يقول رسول الله -صلى الله عليه وسـلم- إن الله كتـب الإحسان علي كل شئ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحـتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته(١).

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال مـر رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- علي رجل واضع رجلـه علـي صفحة شاة وهو يحد شفرته، وهي تلحظ إليه ببصرها، قال: أفلا قبل هذا؟ أو: تريد أن تميتها موتات؟!(٢).

وفي رواية الحـاكم: هـلا أحـددت شـفرتك قبـل أن تضجعها(وقال صحيح علي شرط البخاري).

فإذا كان هذا التعامل مع الحيوانـات!! فكيـف يكـون التعامل مع بني البشر؟!

ويقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله - إن الـدين إذا لم يكن ارتفاعا بمستوي الإنسان فما يكون؟ وفي هذه الأيـام العجاف أري جماهير من المسلمين، أبعد أهل الأرض عـن حقيقة الإحسان! بيوتهم رديئة، وطرقهم رديئـة، وسـيرهم ردئ وإذا صنعوا سلعة خرجت من بين أيديهم دون غيرهـا مما يصنع الناس، وإذا أرادوا عملا اسـتغرق الكثيـر مـن الأوقات والجهود، ولم يبلغوا به درجة الاكتمال التي يحققها من بذل جهدا أضعف ووقتا أقل!! كأنهم من طينة غير طينة البشر خلقوا! هؤلاء الناس في انتمائهم الديني ريب كبيـر، ولكي يعود إلي الإسلام يجـب أن يعـاد تشـكيلهم العقلـي

والخلقي حتي إذا باشروا عملا ما أقبلوا عليه بقواهم المادية والأدبية كلها، فخرج سليما كريما.. لا سـيما ونحـن فـي حضارة صناعية تقاس فيها الأبعاد بالمليمتر أو بما دونـه، ولا تقبل فيهـا المجازفـات والمسـاهلات والمصـادفات العمياء(١).

٣- والإحسان في تمثيل الإسلام يكون بتجسيد الإسـلام تجسيدا عمليا في صورة المعاملات والأخلاقيات، بأن يكون الذين يمثلون الإسلام في صورة المعاملات والأخلاقيـات، بأن يكون الذين يمثلون الإسلام هم أسوة لغيرهم من النـاس في جميع المجالات.

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي- رحمه الله - لو أن التمثيل السياسي للأمم الإسلامية في البلاد غير الإسـلامية المتحضرة قد أخذ بمبادئ الإسلام لكان أسوة حسنة. وانظر إلي عاصمة واحدة من عواصم الدول الغربية تجد فيها أكثر من ثلاث وستين سفارة إسلامية، وكل سفارة يعمـل فيهـا جهاز يزيد علي العشرين هب أن هؤلاء كانوا أسوة إسلامية في السلوك والمعاملات في عاصمة غير إسـلامية، حينئـذ يجد أهل ذلك البلد جالية إسلامية ملتزمة ولم تفتنها زخارف

المدنية: لا يشربون الخمر، ولا يراقصون، ولا يترددون علي الأماكن السيئة السمعة، ولا تتبرج نساؤهم، بالا ألا يلفت النظر سلوك هؤلاء؟!

ثم يقول إذن الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلي دين الإسلام(١).

***

جـزاء الإحسان

١- يقول تعالي: ﴿ بلى من أسلم وجهه وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة:١١٢].

فمن أسلم وجهها وأخلص ذاته بكلياته وجزئياتها - عز وجل- فاستسلم استسلاما مطلقا، ثم اتبع ذلك بالإحسان في العمل، فيكون قد جمع بين العقيدة والعمل بمقتضاها، فهؤلاء لهم أجرهم عند ربهم كامل غير منقوص، سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.

٢- يقول تعالي: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾

[الكهف: ٣٠].

فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا فأحسنوا العمل لا يضيع الله عملهم بل: ﴿ أُولَئِكَ لَهم جنات عدنٍ تَجري مِن تَحتِهم الأَنْهار يحلون فِيها مِن أَساوِر مِن ذَهبٍ ويلْبسون ثِيابا خُضرا من سنْدسٍ وإِستَبرقٍ متكِئِين فِيها علَى الأَرائِكِ نِعم الثواب وحسنَتْ مرتَفَقًا ﴾

[الكهف: ٣١].

٣- يقول الله تعالي: ﴿ هلْ جزاء الإِحسان إِلا الإِحسان ﴾

[الرحمن: ٦٠].

فهل يجازي الذين أحسنوا العمل إلا أن نحسن لهم الجزاء؟!

قال القرطبي- رحمه الله - قال عكرمة: أي هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة؟!

وقال ابن عباس: ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمدصلى الله عليه وسلم إلا الجنة.

وقال ابن زيد: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة(١).

٤- ويقول تعالي: ﴿ لِلَّذِينَ أَحسَنُوا الْحسنَى وزِيـادةٌ ولاَ يرهقُ وجوههم قَتَر ولاَ ذِلةٌ أُولَئِك أَصحاب الْجنـةِ هـم فِيها خَالِدون ﴾

[يونس:٢٦].

يقول ابن كثير- رحمه الله - يخبر تعالي أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسني في الـدار الآخرة كقوله تعالي{ هل جـزاء الإحسـان إلا الإحسـان} وقوله{ و زيادة} هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشـر أمثالها إلي سبعمائة ضعف وزيادة علي ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عـنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظـر إلي وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطـوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقـد روي تفسـير الزيادة بالنظر إلي وجهه الكريم عن أبـي بكـر الصـديق وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس وسعيد ابن المسـيب ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن والسدي وغيرهم(٢).

ويقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله : وقـد ثبـت فـي صحيح مسلم عن النبيصلى الله عليه وسلم تفسير الزيـادة

بالنظر إلي وجه الله تعالي في الجنة، وهذا مناسب لجعلـه جزاء لأهل الإحسان، لإن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا علي وجه الحضور والمراقبة كأنـه يـراه بقلبـه وينظر إليه في حال عبادته فكان جزاء ذلك النظر إلي وجه الله عيانا في الآخرة(١).

***

إحسان الدعاة إلي الله - عز وجل -

إذا كان الإحسان مندوبا في حق عامة المسلمين فإن ندبه يزداد أهمية في حق الدعاة إلي الله عز وجـل، إذ أنهـم لا يليق بهم أن يرغبوا الناس في الفضل ويكتفوا هم بالعـدل! وأعني بذلك أن يجعل الداعية نفسه مجالا للتجربة قبـل أن يطلب من الناس فعل الفضل والإحسان، إذ أن حديثه حينئـذ يكون حديث الذي ذاق حلاوة الفضل والإحسان، لا حـديث الذي يعيش في الخيال بعيدا عن الواقع، ولا تؤتي الـدعوة إلي الإحسان والفضل ثمرتها إلا إذا كان الداعية نفسه مـن أهل الفضل والإحسان، فلا يصح أن يطلـب الداعيـة مـن الناس معالي الأمور، ولا يتعالي عن سفاسفها!! وقـد تجـد

بعض الدعاة يطالب الكمال وينشده في المجـالات التـي لا تكلفه جهدا ولا مالا!! فإذا ما كان تاجرا مثلا، تراه يغـالي في أسعاره، شأنه في ذلك شأن باقي الناس إن لم يكن أكثـر منهم مغالاة!! وتراه كثيرا ما تشغله تجارتـه عـن أعمالـه الدعوية، بل والتعبدية المحضة!! وفي هذا المجـال الـذي ينبغي عليه أن يتعامل بالفضل تراه يذهب يلتمس الـرخص والمعاذير!

فإذا ما كان الأمر بعيدا عنه نراه يطالب الناس بالفضـل والإحسان!

وبعض الدعاة إذ ما وقع في محك عملي يتطلـب منـه العفو والصفح تراه يعرض عن الفضل والإحسان، شأنه في ذلك شأن عامة الناس! وعموما فإن المطلوب من الداعية أن يمارس الإحسان والفضل في مجال عمله بالدرجة الأولـي، فالداعية الحق من كان في مجال عمله مثالا يحتـذي، فـي انضباطه وفي إتقانه؟ وفي إخلاصه، أما أن يكون الداعيـة نموذجا سيئا في عمله، فنراه فوضويا، غير مـتقن لعملـه، غير متورع عن الشبهات!!! فهذا يكون قد فشـل فـي أول اختبار تطبيقي عملي فيحتاج إلي مراجعة دقيقـة ومحاسـبة

شديدة لنفسه وليجعل مجال تحديه لنفسه مجال عمله. وعلي الدعوة أن تربي أفرادها علي أن يكون الإحسان متأصلا فيهم فالتسامح والتسامي وترك بعض الحقوق عن طواعية واختيار، ومما هو جدير بالذكر أن هناك بعض المواقف تتطلب من الداعية الشدة ولا يجدي معها التسامح، فهذه تقدر بقدرها.



الهوامش

(١) رواه البخاري.(٢) متفق عليه وهذا لفظ البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(١) من كتاب(فقه السيرة النبوية).

(٢) ظني الدلالة: أي أنه يحتمل أكثر من تأويل تبعا لقواعد اللغة العربية وأوجه الإعراب، وتبعا للعرف والمصلحة وذلك مثـل قولـه تعالي{ والمطلقات يتربصن بأنفسهم ثلاثة قروء} فمن العرب من يسمي الحيض قرءا ومنهم من يسمي الطهر قرءا ومنهم من يجمعهما جميعا فيسمي الطهر مع الحيض قرءا.

(١) من كتاب الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف.

(١) من كتاب(أعلام الموقعين).

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه الطبري ورجاله ثقات.

(١) من كتاب(خلق المسلم).

(١) رواه ابن ماجة والطبراني وهو حسن.

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٨٢.

(١) رواه مسلم من حـديث شـداد بـن أوس، ورواه أبـو داود والترمذي وابن ماجة.

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(١) من كتاب المحاور الخمسة للقرآن الكريم.

(١) تفسير الشعراوي المجلد الثاني.

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ١٧.(٢) تفسير ابن كثير جـ٢.

(١) من كتاب(جامع العلوم والحكم).

(١) حفظ القلب

منزلة القلب في الجسد:

القلب في الجسد كالملك في جنـوده، تعليماتـه منفـذة، وأوامره مطاعة، وطلباته مجابة. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب(١).

يقول ابن رجب الحنبلي- رحمه الله -: فيه إشارة إلـي أن صلاح حركات العبد بجوارحـه واجتنابـه للمحرمـات واتقائه للشبهات بحسب صلاح قلبه فإن كان قلبه سليما ليس فيه إلا محبة الله وخشية الوقوع فيمـا يكرهـه، صـلحت حركات الجوارح كلها ونشأ عن ذلك اجتنـاب المحرمـات كلها، وتوقي الشبهات حذرا من الوقوع في المحرمات، وإن كان القلب فاسدا قد استولي عليه اتباع الهوي وطلب ما يحبه ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعث إلـي كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوي القلب(٢).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا ينظر إلي أجسامكم ولا إلي صوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم(٣).

ولمـا علـم إبليس أن القلـب ملك الجوارح أجلب عليه بالشهوات والشبهات.

أقسام القلوب:

أولا: القلب السليم:

جعل الله عز وجل أساس النجاة في الآخرة هو سـلامة القلب، فقال تعالي علي لسان إبراهيم عليـه السـلام: ﴿ ولاَ تُخْزِنِي يوم يبعثُون * يوم لاَ ينفَع مالٌ ولاَ بنُون * إِلا مـن أَتَى الله بِقَلْبٍ سلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩].

وسلامة القلب تعني سلامته من العلل التي محلها القلب، كالشرك والنفاق والكبر والحسد والحقد، والعجب، والغرور، والرياء، والشح، وحـب الـدنيا، وحـب المـال والجـاه، والبغضاء، والغضب وغيرها.

يقول صاحب الظلال- رحمه الله -: فليست هناك مـن قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص. إخـلاص القلـب كله لله وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومـن كـل غرض، وصفائه من الشهوات والانحرافات. وخلـوه مـن التعلق بغير الله فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزنـا ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾، ولا ينفع شئ من هـذه القـيم الزائلة، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض؛ وهـي لا تزن شيئا في الميزان الأخير!

ويقول الإمام ابن القيم- رحمه الله -: سلامته من خمسة أشياء: من الشرك الذي يناقض التوحيد ومن البدعة التي تناقض السنة، ومن الشهوة التي تخالف الأمر، ومن الغفلة التي تناقض الذكر، ومن الهوي الذي يناقض التجريد والإخلاص انتهي.

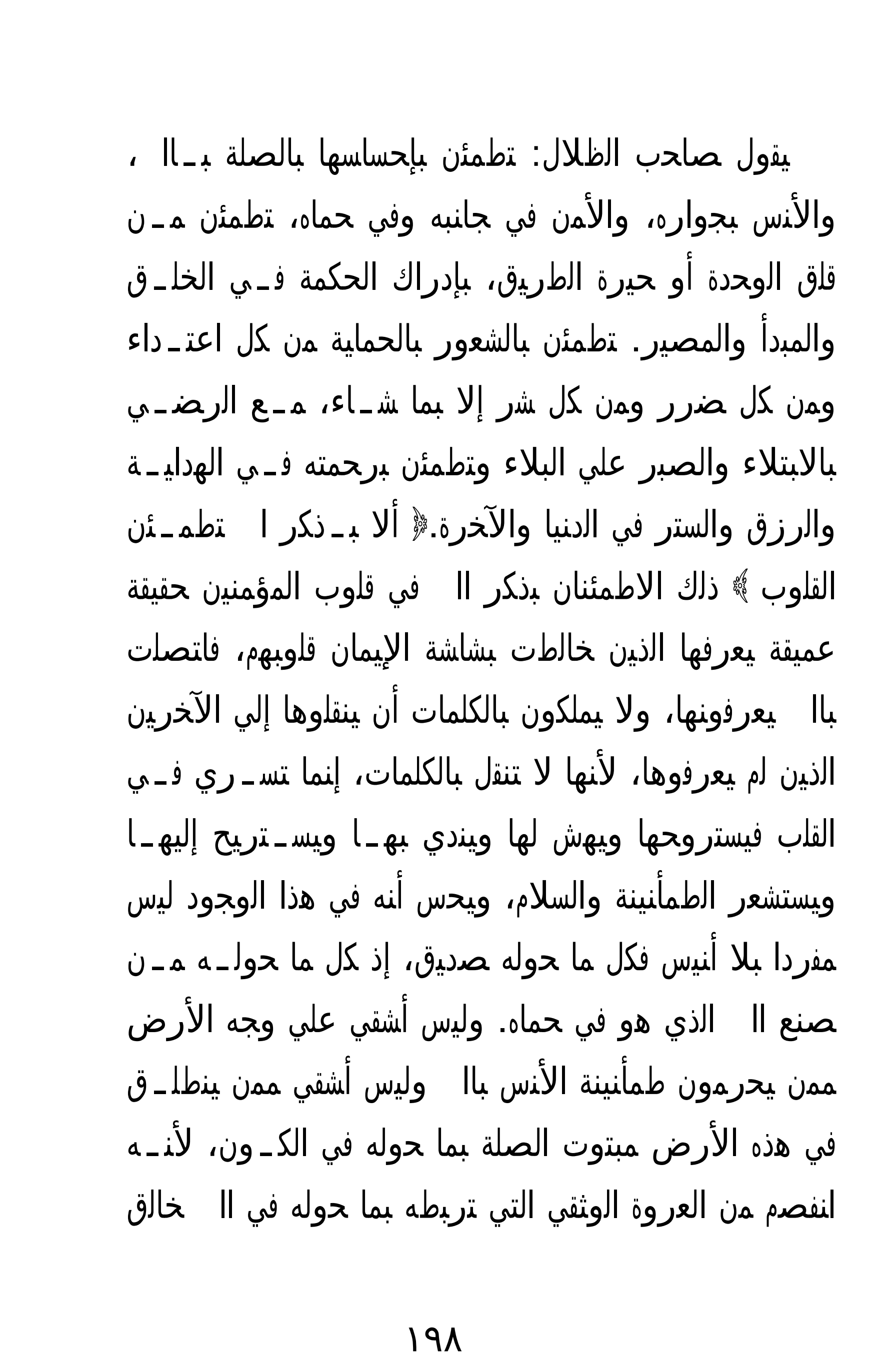
إذا فالقلب السليم هو الذي سلم من الشبهات والشهوات التي ألقي بها الشيطان إليه، فعبوديته لله خالصة، خوفا ورجاء، ومحبة، وإنابة وتوكلا، وإخباتا وخشية، فهو إن أحب فلله، وإن أبغض فلله، وإن أعطي فلله، وإن منع فلله.

علامة سلامة القلب:

هناك علامات يستدل بها علي صحة القلب وسلامته منها:

١- كثرة ذكر الله والطمأنينة بذلك: فاللسان دائما يعبر عما في القلب، فالقلب الممتلئ بحب الله عز وجل لا يجد الحلاوة إلا في ذكر محبوبه.

يقول الله تعالي: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].



يقول صاحب الظلال: تطمئن بإحساسها بالصلة بـاا ، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة أو حيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير. تطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضرر ومن كل شر إلا بما شاء، مع الرضي بالابتلاء والصبر علي البلاء وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.﴿ ألا بذكر ا تطمئن القلوب ﴾ ذلك الاطمئنان بذكر اا في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت باا يعرفونها، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلي الآخرين الذين لم يعرفوها، لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها ويندي بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفردا بلا أنيس فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع اا الذي هو في حماه. وليس أشقي علي وجه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس باا وليس أشقي ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون، لأنه انفصم من العروة الوثقي التي تربطه بما حوله في اا خالق

الكون. ليس أشقي ممن يعيش لا يدري لم جاء؟ ولم يذهب؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة؟ ليس أشقي ممن يسـير فـي الأرض يوجس من كل شئ خيفة لأنه لا يستشـعر الصـلة الخفية بينه وبين كل شئ في هذا الوجود ليس أشـقي فـي الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلـي الله، مطمئنا إلي حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصـلابة والاعتداد.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله: ﴿ألا بـذكر الله تطمـئن بقلـوب﴾ هؤلاء المنيبون إلي الله، المطمئنون بذكر الله، يحسـن الله مآبهم عنده، كما أحسنوا الإنابة إليه، وكما أحسنوا العمل في الحياة) انتهي.

٢- لا يمـل من الطاعـة: لأنـه يجد فـي الطاعـة حـلاوة اتصالـه بالله عـز وجل.

يقول الإمام ابن تيمية- رحمه الله -: إن في الدنيا جنـة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة وقد كـان رسـول الله

صلى ا عليه وسلم يصلي حتي تتورم قدماه فيقال له فـي ذلك فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا(١).

٣- أن يشتاق إلي الطاعة: فالقلب الذي خالط الإيمـان بشاشته يتوق إلي الطاعة، لأنه يجد فيها حياتـه وصـحته، فتراه يحض صاحبه عليها حضا.

٤- إذا دخل في الطاعة ذهـب عنـه همـه وغمـه: يقولصلى ا عليـه وسـلم: وجعلـت قـرة عينـي فـي الصلاة(٢).

٥- أن يكون شحيحا بوقته أن يذهب في غيـر طاعـة: وذلك لأنه يعلم أن وقته هو رأس مالـه، وأن كـل لحظـة مضت عليه دون ذكرا تحسر عليها يوم القيامة، فهو يريد أن يغتنم كل لحظة في عمل يقربه إلي ربـه، يقربـه إلـي الجنة، يباعده عن الشيطان، يباعده عن النار، يقول رسـول اا صلى ا عليه وسلم: من قـال سـبحان اا العظـيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة(٣).

٦- أن يتحسر علي الطاعة إذا فاتته.

٧- أن يأنس باا ويستوحش من غيره.

٨- أن يكون كلام اا عز وجل أحب شئ إلي قلبه.

يقول ابن مسعود- رضي الله عنه-: من كان يحـب أن يعلم أنه يحب الله فيعرض نفسه علي القرآن، فـإن أحـب القرآن فهو يحب الله فإنما القرآن كلام الله.

ثانيا: القلب المريض:

وهو القلب الذي استطاع الشيطان أن يصل إليه بـبعض الشبهات والشهوات إلا أنه لا يزال به بعض الحياة.

ففيـه من محبـة الله ومـن محبـة الشهـوات، وفيه من الحسد والعجب والكبر.

علامات مرض القلب:

١- أن يقدم العبد حظه وشهوته علي طاعة الله ومحبته، وذلك أنه اتخذ إلهه هواه، يقول تعالي: ﴿ أَرَأَيتَ من اتخَـذَ إِلَهه هواه أَفَأَنْتَ تَكُون علَيهِ وكِيلاً ﴾ [الفرقان:٤٣]

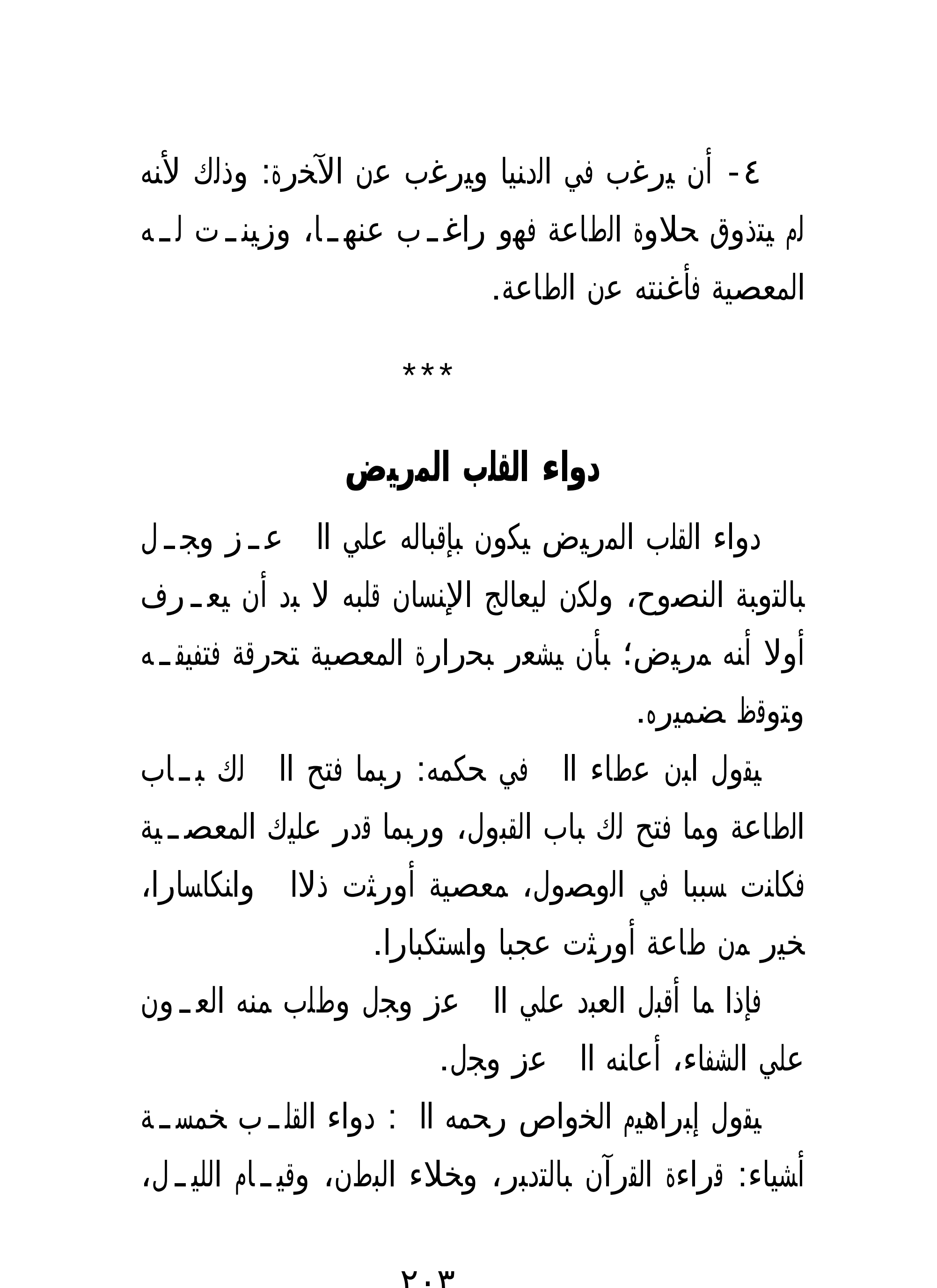
٢- لا يتألم من ارتكاب المعاصي: فتراه يتبـع الـسـيئة بالسيئة، حتي يألفها ويحبها ولا يجد غضاضة في ارتكابها، وذلك أنه بالمواظبة عليها وعدم الاستغفار والتوبـة اسـود القلب وأظلم، يقول تعالي: ﴿ كَلا بلْ ران علَى قُلُـوبِهم مـا كَانُوا يكْسِبون ﴾ [المطففين:١٤].

وفي الحديث: إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبـه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب، صقل قلبـه، فإن عاد زيد فيها حتي تعلو علي قلبـه، وهـو الـران الـذي ذكـر الله فـي كتابه ﴿ كلا بل ران علي قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (١).

٣- يترك صاحبه الدواء ويقبل علي الداء: وذلـك أنـه ملئ بحب الشهوات فهو يقبل عليها وإن علم أن فيها هلاكه، إلا أنه تعلق بها، فإذا كان الله عز وجل حبب الإيمان وزينه في القلوب السليمة، فإن أصحاب القلوب المريضـة حبـب إليهم الفسوق والعصيان.

يقول تعالي: ﴿ واعلَموا أَن فِـيكُم رسـولَ الله لَـو يطِيعكُم فِي كَثِيرٍ من الأمرِ لَعنِتم ولَكِن الله حبب إِلَيكُم الإِيمان وزينَه فِي قُلُوبِكُم وكَره إِلَيكُم الْكُفْـر والْفُسـوقَ والْعِصـيان أُولَئِك هم الراشِدون ﴾ [الحجرات:٧].

ويقول صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتي أكـون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين(١).



٤- أن يرغب في الدنيا ويرغب عن الآخرة: وذلك لأنه لم يتذوق حلاوة الطاعة فهو راغب عنها، وزينت له المعصية فأغنته عن الطاعة.

***

دواء القلب المريض

دواء القلب المريض يكون بإقباله علي الله عز وجل بالتوبة النصوح، ولكن ليعالج الإنسان قلبه لا بد أن يعرف أولا أنه مريض؛ بأن يشعر بحرارة المعصية تحرقة فتفيقه وتوقظ ضميره.

يقول ابن عطاء الله في حكمه: ربما فتح الله لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعصية فكانت سببا في الوصول، معصية أورثت ذلا وانكاسارا، خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا.

فإذا ما أقبل العبد علي الله عز وجل وطلب منه العون علي الشفاء، أعانه الله عز وجل.

يقول إبراهيم الخواص رحمه الله : دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل،

والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين وكلهـا لا يقبـل عليها إلا شخص جاد في معالجة قلبه قبل موته.

***

ثالثا: القلب الميت

وهو القلب الذي لم يعالجه صـاحبه إذا ظهـرت عليـه علامات المرض، حتي استفحل الداء، واستطاع الشيطان أن يسيطر عليه بالكلية، فمليء بحب الشهوات، فصار لا يهوي إلا الشهوات، فإن أحب فللشهوات وإن أبغض فللشـهوات، وإن أعطي فللشهوات وإن منع فللشهوات وإنما يصل القلب إلي هذه الحالة بتناوله سموم القلوب وهي المعاصي.

يقول عبد الله بن المبارك:

وحكي عن شقيق البلخي أنه قال: كان إبراهيم بن أدهـم يمشي في البصرة فاجتمع إليه الناس فقالوا: ما بالنا نـدعوا فلا يستجاب لنا؟ وإن الله تعالي يقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠].

فقال: يا أهل البصرة قد ماتت قلوبكم بعشـرة أشـياء، فكيف يستجاب لكم؟

١- عرفتم الله ولم تؤدوا حقه.٢- قرأتم القـرآن ولـم تعملوا به.

٣- ادعيتم حب الرسول وتركتم سنته.

٤- ادعيتم عداوة الشيطان وأطعتموه.

٥- ادعيتم دخول الجنة ولم تعملوا لها.

٦- ادعيتم النجاة من النار ورميتم فيها أنفسكم.

٧- قلتم الموت حق ولم تستعدوا له.

٨- اشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم.

٩- دفنتم الأموات ولم تعتبروا.

١٠- أكلتم نعمة الله ولم تشكروه عليها.

الدعاة وحفظ القلوب

الدعاة إلي الله عز وجل هـم أطبـاء القلـوب، الـذين يصفون لها الدواء، ويشرفون بأنفسهم علي تعاطيـه، إلا أن هناك بعض الأمراض التي تتعرض لها قلوب الدعاة منها:

١- تحول القلوب علي المدعوين: فقد يتعرض الداعيـة لإيذاء من آحاد الناس- أو حتي من كل الناس- مما يدفعـه إلي حب الانتقام والثأر!!

ولكن هناك أمر يجب علي الداعية أن يدركه تماما، وهو أنه إنما ضحي بوقته وبماله، وبنفسه، انطلاقـا مـن حبـه لهؤلاء الناس، ومن خوفه عليهم من عذاب االله تعالي، فهب لينقذهم وليأخذ بأيديهم من الظلمات إلي النور، فهل يضـحي الداعية بكل ذلك لإنقاذهم ثم بعد ذلك يتمنـي لهـم الهـلاك والانتقام؟!

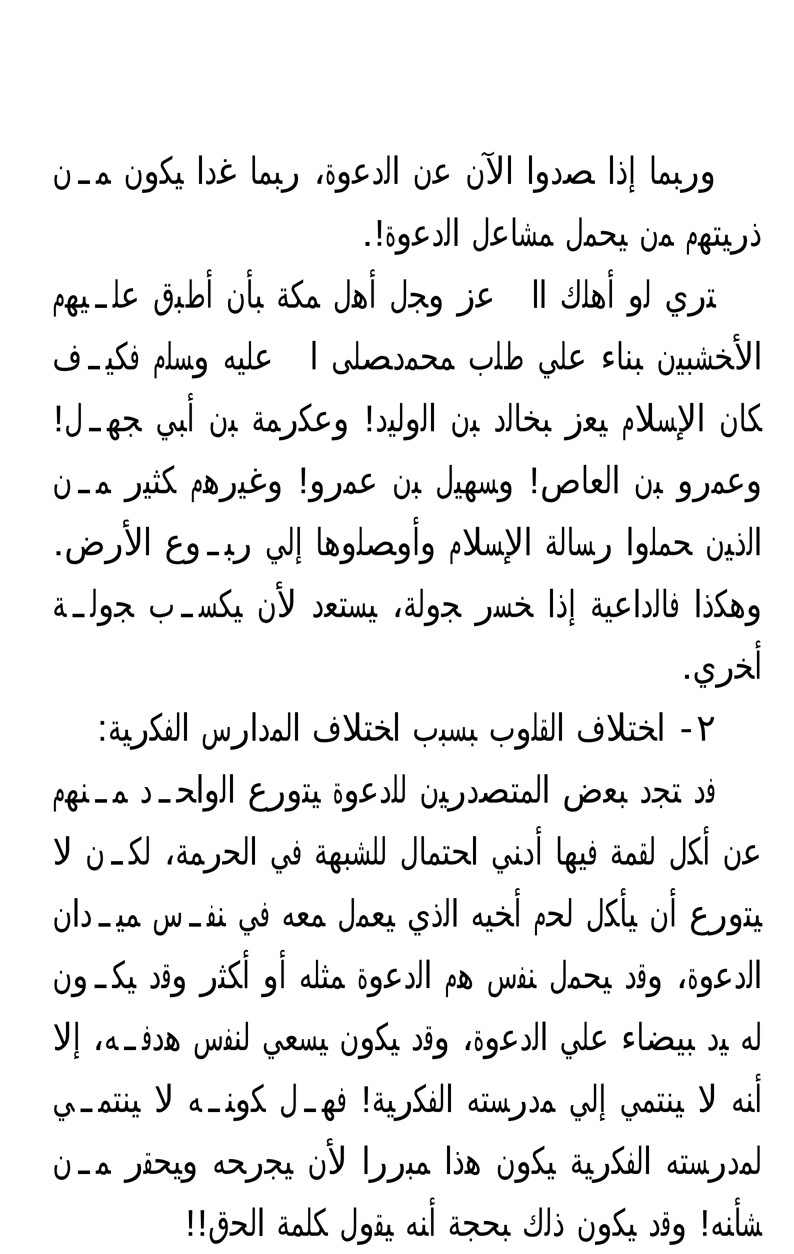
وها هو سيد الدعاة- محمد صلى االله عليه وسلم- يرجع من الطائف بعد أن أغروا به سـفاءهم وعبيـدهم يسـبونه ويصيحون به، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتـي أن رجلـي رسول االله صلى االله عليه وسلم لتدميان، وزيد بن حارثـة يقيه بنفسه حتي شج في رأسه عدة شجاج.

ولكـن رغـم ذلك فـهو لا يتمنـي لهم الهـلاك، ولا يرضي أن ينتقم االله منهم.

فقد روي البخاري ومسلم عن عائشة رضي اا عنهـا: أنها قالت لرسول اا صلى ا عليه وسلم: يا رسـول اا : هل أتي عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يـوم العقبة إذ عرضت نفسي علي ابن عبد ياليل بن عبد كـلال، فلم يجبني إلي ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علي وجهـي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن اا عـز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت. قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد إن اا قد سمع قول قومك لك، وأنـا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول اا صـلى ا عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج اا من أصـلابهم مـن يعبد اا وحده لا يشرك به شيئا.

فالداعية لا يتمني هلاك قومه لأنهم ميدانه الذي يجاهـد فيه؟



وربما إذا صدوا الآن عن الدعوة، ربما غدا يكون من ذريتهم من يحمل مشاعل الدعوة!.

تري لو أهلك اا عز وجل أهل مكة بأن أطبق عليهم الأخشبين بناء علي طلب محمدصلى ا عليه وسلم فكيف كان الإسلام يعز بخالد بن الوليد! وعكرمة بن أبي جهل! وعمرو بن العاص! وسهيل بن عمرو! وغيرهم كثير من الذين حملوا رسالة الإسلام وأوصلوها إلي ربوع الأرض. وهكذا فالداعية إذا خسر جولة، يستعد لأن يكسب جولة أخري.

٢- اختلاف القلوب بسبب اختلاف المدارس الفكرية:

قد تجد بعض المتصدرين للدعوة يتورع الواحد منهم عن أكل لقمة فيها أدني احتمال للشبهة في الحرمة، لكن لا يتورع أن يأكل لحم أخيه الذي يعمل معه في نفس ميدان الدعوة، وقد يحمل نفس هم الدعوة مثله أو أكثر وقد يكون له يد بيضاء علي الدعوة، وقد يكون يسعي لنفس هدفه، إلا أنه لا ينتمي إلي مدرسته الفكرية! فهل كونه لا ينتمي لمدرسته الفكرية يكون هذا مبررا لأن يجرحه ويحقر من شأنه! وقد يكون ذلك بحجة أنه يقول كلمة الحق!!

ألا فلنتق الله في إخواننا الذين يحملون معنا هم الدعوة ويسعون لنشرها ويضحون في سبيلها، وإن اختلفوا معنا في بعض المسائل الفرعية.

أقول: الذين يقومون بأعمالهم الدعوية ليس عندهم من الوقت ما يجعلهم يجرحون غيرهم، وهل فرغوا من الحديث عن كل المسائل الشرعية، فلم يبق إلا الحديث عن نقاط الخلاف بين الدعاة؟!

ولكن الذين أصيبوا بهذا الداء، حتي ولو وجدوا غيرهم مثلهم في كل شئ إلا أنه لا ينتمي لمدرستهم الفكرية فسيجرحونه أيضا!!

والدعاة الصادقون هم الذين يصححون أخطاء غيرهم بدلا من أن يهدموا ما بناه غيرهم!!

٣- إعجاب الداعية بنفسه: بسبب التفاف الناس حوله أو قبوله لدي الناس وهذا داء عضال يجب أن يحذره الدعاة إلي الله.

٤- الإفلاس الروحي للدعاة: ويصاب به بعض الدعاة نتيجة إهماله لأعمال اليوم والليلة، وتقصيره في مصادر

التزود الروحي فيؤثر ذلك علي القلب فيجعله قاسـيا ممـا يكون مؤشر خطر علي الداعية.

***

(٢) حفـظ الفـرج

يقول تعالي: ﴿ والذِين هم لِفُروجِهم حـافِظُون * إلا على أزواجِهم أو ما ملَكَتْ أيمانُهم فَإنهم غَير ملُومِين * فَمن ابتَغَى وراء ذَلِك فأُولَئِك هم الْعادون ﴾

[المؤمنون:٥-٧]

تبين هذه الآيات صفة عظيمة من صـفات المـؤمنين، وهي صفة طهارة الفرج وحفظه عن الدنس والخبث، ذلـك أن الله - عز وجل- إنما خلق الإنسان، وغرس فيه نزوات وشهوات، وشرع له طرقا نظيفـة راقيـة لإشـباع هـذه الشهوات، ذلك أن تكريم الله للإنسان يستدعي أن يشبع هذه الرغبات بطريقة تليق بتكريم الله له.

يقول صاحب الظلال.(رحمه الله):

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ وهذه طهارة الـروح والبيت والجماعة. ووقايه النفس والأسرة والمجتمع. بحفـظ

الفروج من دنس المباشرة في غير حلال، وحفظ القلوب من التطلع إلي غير حلال، وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب، ومن فسـاد البيـوت فيهـا والأنسـاب. والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حسـاب جماعـة معرضة للخلل والفساد. لأنه لا أمن فيها للبيت ولا حرمـة بها للأسرة. والبيت هو الوحدة الأولي في بناء الجماعـة، إذ هو المحضن الذي تنشأ فيه الطفولة وتتدرج، ولا بد له مـن الأمن والاستقرار والطهارة، ليصـبح محضـنا ومـدرجا، وليعيش فيه الوالدان مطمئنا كلاهما للآخر، وهما يرعيـان ذلك المحضن ومن فيه من فراخ! والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة في سلم البشرية، فالمقياس الذي لا يخطئ للارتقاء البشري هو تحكـم الإرادة الإنسانية وغلبتها. وتنظيم الدوافع الفطرية في صورة مثمرة نظيفة لا يخجل الأطفال معها من الطريقة التي جاءوا بهـا إلي هذا العالم، لأنها طريقة نظيفة معروفة، يعرف فيها كل طفل أباه. لا كالحيوان الهابط الذي تلقي الأنثي فيـه الـذكر للقاح، وبدافع اللقاح، ثم لا يعرف الفصيل كيف جاء ولا من

أين جاء! والقرآن هنا يحدد المواضع النظيفة التـي يحـل للرجل أن يودعها بذور الحياة) انتهي.

***

آفـات الفــــرج

فإذا انحرف الإنسان عن الطريق الذي رسمه لـه الله - عز وجل- لإشباع شهواته فإنه قد يقع في واحدة من هـذه الآفات.

(أولا) الزنا(ثانيا) اللواط(ثالثا) الاستمناء

(رابعا) السحاق(خامسا) إتيان المرأة في دبرها

***

أولا: الزنـا

أسبابـه:

١- ضعف الإيمان في القلب وعدم الخوف من الله عز وجل:

ذلك أن القلب إذا كان عامرا بالإيمان والمراقبة والخوف من الله عز وجل، كف الجوارح عن المعاصي وخصوصـا

الكبائر، فضلا عن إيمان العبد وخوفه من الله يبعده عن أن يسير في خطوات الشيطان التي توصله إلي الفاحشة. وفي الحديث(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)(١) وزاد النسائي(فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، فإن تاب تاب الله عليه).

٢- عدم القدرة علي الزواج: وذلك أن المغالاة في المهور، والمبالغة في الأثاث، والشروط التي يشترطها ولي الأمر، كل هذا جعل الشباب ينصرفون عن الزواج باحثين عن الطريق الأخري لإشباع هذه الشهوات! ومن جانب آخر فإن هذه التعقيدات أدت إلي ظهور مشكلة أخري وهي مشكلة العنوسة(العزوبة) وعدم الزواج.

٣- سهولة الوصول إليه: ذلك أن سهولة الوصول للفاحشة، وعدم وجود عقبات في طريق الوصول إليها مع عدم تجريم القانون لهذه الفاحشة، كل هذه العوامل أغرت الشباب وأوقعتهم في الفاحشة.

٤- كثرة دواعيه من الاختلاط والتبرج: وذلك أن القلب المريض يطمع في المرأة إذا ما رأي فيها

مـا يفتنـه، فـالاختـلاط المذمـوم بـين الجنسـين أزال الحواجز بينهما وأمات الحيـاء فيهما، ورفع التكليف بينهما، فصـارا يتعاملان معا وكأنهما بنو جنس واحد، لـذا فإن الله - عز وجل- حرم التبرج والاختلاط.

فقال تعالي: ﴿ يا أَيها الَذِين آمنُوا لاَ تَدخُلُوا بيـوتَ النبِي إِلا أَن يؤْذَن لَكُم إِلَى طَعامٍ غَير نَاظِرِين إِنَاه ولَكِـن إِذَا دعِيتُم فَادخُلُوا فَإِذَا طَعِمتُم فَانْتَشِروا ولاَ مستَأْنِسِين لِحدِيثٍ إِن ذَلِكُم كَان يؤْذِي النبِي فَيستَحيِي مِنْكُم واللَّهُ لاَ يسـتَحيِي مِـن الْحق وإِذَا سأَلْتُموهن متَاعا فَاسأَلُوهن مِن وراءِ حِجابٍ ﴾ [الأحزاب:٥٣]

يقول ابن كثير- رحمه الله -(أي وكمـا نهيـتكم عـن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكليـة ولـو كـان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب)(١).

وفي الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال إياكم والدخول علي النساء، فقال رجل من الأنصار: افرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت(٢).

والحمو هو قريب الزوج، وذلك لأن دخوله البيت فـي غياب الزوج يكون أمرا عاديا لذا فـإن خطورتـه أعظـم. وقال-صلى ا عليه وسلم- لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم(٣).

وقال: من كان يؤمن باا واليوم الآخـر فـلا يخلـون بامرأة ليس معها ذو محرم منها فإن ثالثهما الشيطان(١).

ودخلت نسوة من بني تميم علي عائشـة- رضـي اا عنها- وعليهن ثياب رقاق، فقالت عائشة إن كنتن مؤمنـات فليس هذا بثياب المؤمنات.

وأدخلت عليها امرأة عروس عليها خمار رقيق شـفاف فقالت لم تؤمن بسورة النور امرأة تلبس هذا ويقول-صـلى ا عليه وسلم-: أيما امرأة أستعطرت فمـرت علـي قـوم ليجدوا ريحها فهي زانية(٢).

٥- استساغة المجتمع للمنكر وعدم محاربته: وذلـك أن الاختلاط بين الجنسين في المدارس والجامعات، والشوارع، والبيوت، أصبح أمرا عاديا في المجتمع، ولا يجد المجتمـع غضاضة في أن يجلس الشاب بجـوار الفتـاة ويتجاذبـان الحديث!!

بل أصبح ذلك من علامات المدنية والتقدم والرقي!!!

والمنـادون بفصـل الجنسين هم الرجعيون! المتخلفون! المتعصبون! المتزومتون!

ونفس الأمر في التبرج فقـد ألـف المجتمـع العـري والسفور، وجعلهما من علامات الرقي والثقافة! والعجيب أن تجد الرجل مصليا، صواما، قواما، حاجا، معتمرا، ثم تجـد ابنته متبرجة! وزوجته متبرجة، وعلي هذا فالمجتمع لا ينكر هذه المظاهر، والتي تعتبر المقدمات الأساسية للزنـا، إذ أن الزنا بين الرجل والمرأة لا يتم إلا بعد تعارف وتآلف بينهما وإعجاب، بالمظهر والجمال!

لذا فإن استساغة المجتمـع للمعصـية يجعلـه شـريكا لأصحابها في الذنب والمسئولية.

الهوامش

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي اا عنه،

(٢) من كتاب جامع العلوم والحكم.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي اا عنه

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي.

(٢) رواه النسائي وأحمد وحسنه الألباني.

(٣) رواه ابن حبان والترمذي والحاكم وصـححه الألبـاني فـي الصحيحة.

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) متفق عليه.

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي.

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٥٠٥.(٢) رواه البخاري ومسـلم عن عقبة بن عامر.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عباس.

(١) رواه أحمد عن عامر بن ربيعة.

(٢) رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم.

يقول -صلى ا   عليه وسلم- لا تزال أمتي بخير ما لـم يفش فيهم ولد الزنا فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم اا   بعذاب(١).

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم عن عمرو الصـنعاني قال أوحي اا   إلي يوشع بن نون: إني مهلك مـن قومـك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم، قـال يـا رب: هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم.

٦- السفـر الطويـل دون الزوجة: فقد يترك الرجـل زوجته ويسافر ويغيـب عنـها مدة طويلة، يتلاعـب بـه الشيطان في سفره فيوقعه في الفاحشة- إن لـم يعصمـه اا - ويتلاعـب بـها الشيـطان فيوقعها في الفاحشة- إن لم يعصمها اا .

وبينما عمر بن الخطاب يحرس المدينة، فمر بامرأة في بيتها وهي تقول:

تطاول هذا الليل وأسـود جانبـه
واا لـولا خشـية اا وحـده
ولكـن ربـي والحيـاء يكفنـي
وطال علي أن لا خليل ألاعبـه

لحرك من هذا السـرير جوانبـه
وأكرم بعلي أن توطـأ مراكبـه

فسأل عنها عمر، فقيل له: هذه فلانة، زوجها غائب في سبيل اا . فأرسل إليها تكون معه، وبعث إلي زوجها فأقفله(أرجعه) ثم دخل علي حفصة، فقال: يا بنية: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: سبحان اا ! مثلك يسأل مثلي؟ فقال لولا أني أريد النظر للمسلمين ما سألتك. قالت: خمسة أشـهر.. ستة أشهر. فوقت للناس في مغازيهم ستة أشهر.. يسـيرون شهرا، ويقيمون أربعة أشهر ويسيرون راجعين شهرا(١).

قلت: إذا كان ذلك في عهد عمر، والمجتمع يلفظ المنكر، ويحاربه، وتقـام الحـدود، ولا تبـرج، ولا اخـتلاط، ولا مغريات، ورغم ذلك يحدد عمر أكبر مدة يغيبها الزوج عن زوجته ستة أشهر!! فكيـف بالـذين يسـافرون ويتركـون

زوجاتهم سنة وسنتين وثلاثة؟! وفـي مجتمـع لا يحـارب الرذيلة! ودواعي الفاحشة تحيط بالمرأة من كل جانب!.

٧- عدم تطبيق حد الزنا: إذ أن القانون لا يعتبر الزنـا في حد ذاته جريمة، ما دام قد تم بموافقة الطرفين!! ولـيس من حق أحد أن يرفع دعوي الزنا إلا الزوج! فـإن رضـي الزوج بالزنا فلا شئ!! وعلي هذا فإذا زنا الشـاب والفتـاة الغير متزوجين فلا جريمة ولا عقوبة! والعقوبة فقط إذا تـم الزنا غصبا!! ولو طبق حد الزنا لقال من وقوع الفاحشة، إذ أن من الناس من لا يردعه إلا العقاب البدني.

***

أثر الزنا علي المجتمع

١- الزنا يسبب هلاك المجتمع وجلب الكـوارث علـي الأمة: قالت السيدة عائشة رضي اﷲ عنها: يا رسـول اﷲ أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث.

والهلاك هنا قد يكون بسبب الأمراض التي يسلطها اﷲ عز وجل علي الزناة كالإيدز، والزهري، والسيلان، وغيرها من الأمراض التي تتعدي الزناة إلي غيرهم بالعدوي.

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أنه دخـل علـي عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجـل يـا أم المـؤمنين: حدثينا عن الزلزلة، فقالت: إذا اسـتباحوا الزنـا وشـربوا الخمور، وضربوا بالمعازف، غار الله - عز وجـل- فـي سمائه فقال للأرض: تزلزلي بهم فإن تـابوا ونزعـوا وإلا أهدمها عليهم، قال يا أم المؤمنين أعذابا لهـم؟ قالـت: بـل موعظـة ورحمـة للمـؤمنـين ونكـالا وعـذابا وسخـطا عـلي الكافـرين، قال أنس ما سمعت حـديثا بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنا أشد فرحـا منـي بهذا الحديث.

وفـي الحديـث ما ظهـر فـي قـوم الربـا والزنـا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله (١).

وذلك أن الزنا يبدد الأموال، ويهتك الأعراض، ويقتـل الذرية والأبناء، ويؤدي إلي اختلاط الأنساب، فيفضي بـذلك بالأمة إلي الهلاك والدمار.

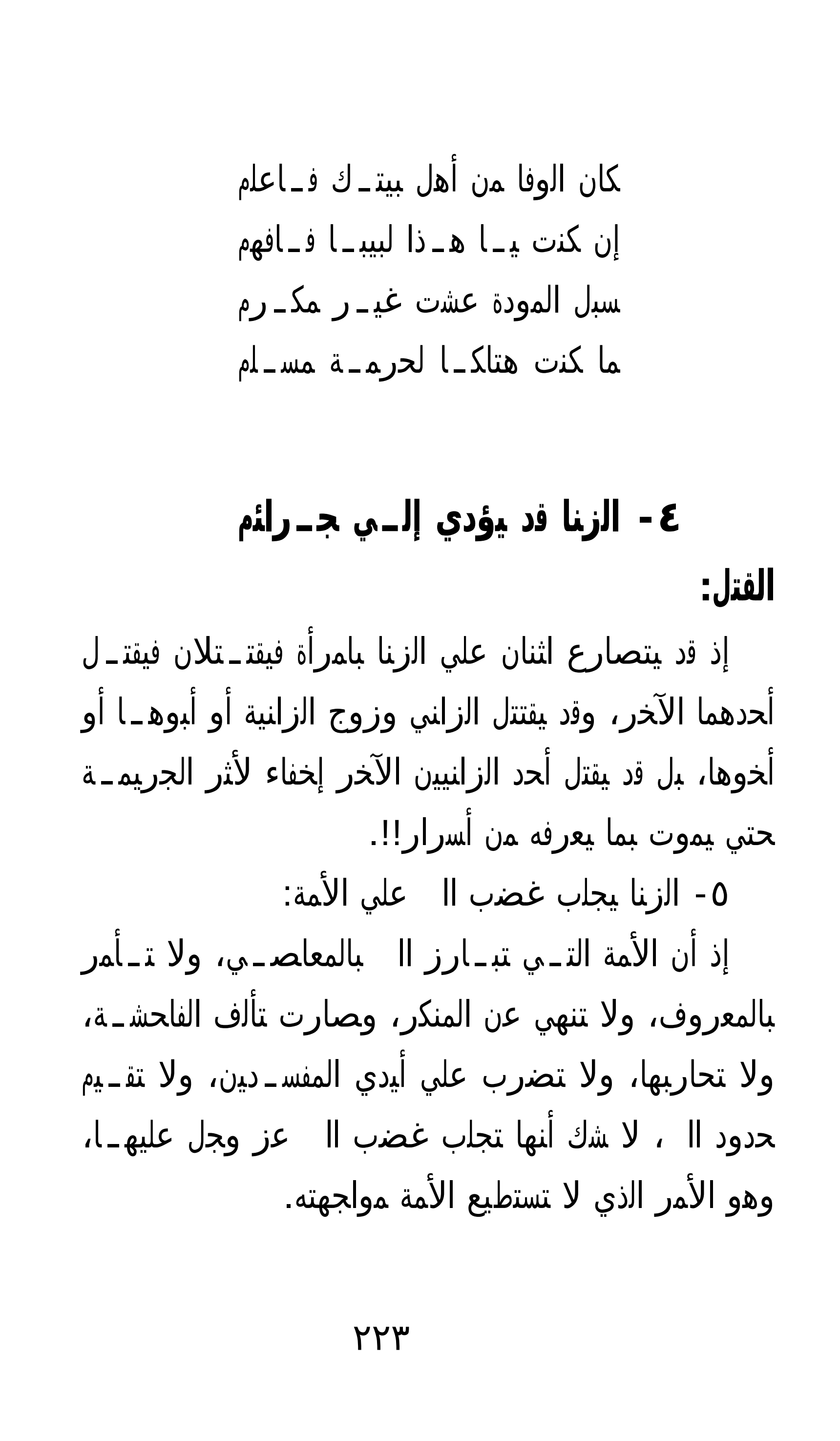
ففي الحديث ما ظهرت الفاحشة في قوم قط، يعمل بهـا فيهم علانية، إلا ظهر فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم(٢).

٢- الزنا يضر باقتصاد الأمة: إذ أن تبديد الأموال فـي فعل هذه الفواحش، فضلا عن الأموال الطائلة التـي تنفقهـا الدولة في معالجة الأمراض السرية، وضعف الزنـاة عـن العمل والإنتاج، كل هذا يضرب اقتصاد الأمة فـي مقتـل. وفي الحديث: الزنا يورث الفقر(٣).

٣- الزنا يعمل علي التفكك الأسري: إذ أن الرجل الذي يترك زوجته، ويذهب ليزني بامرأة أخري لا شك أنه بـذلك يكون قد دمر أسرتين، دمر أسرته ودمر أسرة المرأة التـي زنا بها!! وإعراض الرجل عن زوجته إلي امرأة أخري في الحرام، يدفعها هي الأخري إلـي أن تبحـث عـن خليـل يعوضها عن زوجها! ولا حول ولا قوة إلا باالله.

يقول الشافعي- رحمه االله -.

عفوا تعف نساؤكم في المحرم إن
الزنـا ديـن إن أقرضتـه
من يزن يزن به ولـو بجـداره
يا هاتكا حرم الرجـال وقاطعـا
لو كنت حرا من سـلالة طـاهر
وتجنبـوا مـا لا يليـق بمسـلم



كان الوفا من أهل بيتـك فـاعلم
إن كنت يـا هـذا لبيبـا فـافهم
سبل المودة عشت غيـر مكـرم
ما كنت هتاكـا لحرمـة مسـلم

٤- الزنا قد يؤدي إلـي جـرائم

القتل:

إذ قد يتصارع اثنان علي الزنا بامرأة فيقتـتلان فيقتـل أحدهما الآخر، وقد يقتتل الزاني وزوج الزانية أو أبوهـا أو أخوها، بل قد يقتل أحد الزانيين الآخر إخفاء لأثر الجريمـة حتي يموت بما يعرفه من أسرار!!.

٥- الزنا يجلب غضب الله علي الأمة:

إذ أن الأمة التـي تبـارز الله بالمعاصـي، ولا تـأمر بالمعروف، ولا تنهي عن المنكر، وصارت تألف الفاحشـة، ولا تحاربها، ولا تضرب علي أيدي المفسـدين، ولا تقـيم حدود الله، لا شك أنها تجلب غضب الله عز وجل عليهـا، وهو الأمر الذي لا تستطيع الأمة مواجهته.

منهج الإسلام لتطهير المجتمع من الزنا

لا شك أن الإسلام كمنهاج كامل شامل وضـع منهجـا لتطهير المجتمع من المستنقعات العفنة!! ومن وسائل الإسلام للتطهير:

١- شرع الإسلام أساليب الوقاية ومنها:

(أ) الأمر بغض البصر وحفظ الفرج وعدم إبداء الزينة إلا للأزواج وللمحارم:

يقول الله تعالي: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِـكَ أَزْكَـى لَهُـمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيـرٌ بِمَـا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـاتِ يَغْضُضْـنَ مِـنْ أَبْصَـارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُـوبِهِنَّ وَلَا يُبْـدِينَ زِينَـتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُـولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَـائِهِنَّ أَوْ أَبْنَـاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِـي أَخَـوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَـاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

ويقول تعالي: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ﴾
[الأحزاب:٥٩]

(ب) اعتبر الإسلام السمع والبصر والقلب أمانات يجب علي الإنسان أن يحفظها:

يقول الله تعالي: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾
[الإسراء:٣٦].

وفي الحديث: كتب علي ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوي ويتمني ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه(١).

(ج) أمر الإسلام المرأة بالاحتجاب عن الرجل:

فقال تعالي: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن

ذَلِكُم كَان يؤْذِي النبِي فَيستَحِيي مِنْكُم وا ُ لاَ يسـتَحِيي مِـن الْحق وإِذَا سأَلْتُموهن متَاعا فَاسأَلُوهن مِن وراءِ حِجابٍ ﴾ [الأحزاب:٥٣]

وتقول أم سلمي- رضي اا عنها- كنت عند رسـول اا -صلى ا عليه وسلم- وعنده ميمونـة فأقبـل ابـن أم مكتوم وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فقال النبـيصـلى ا عليه وسلم احتجبا منه، فقلنا يا رسول اا أليس هو أعمي لا يبصرنا ولا يعرفنا؟! فقال النبـيصـلى ا عليـه وسـلم: أفعمياوان أنتما؟! ألستما تبصرانه؟!(٢).

(د) حرم اا الخطوات إلي الزنا:

يقول اا تعالي: ﴿ ولاَ تَقْربوا الزنَى إِنه كَـان فَاحِشَـةً وساء سبِيلاً ﴾ [الإسراء:٣٢]

فلم يقل اا ولا تزنوا! ولكن قال ولا تقربوا الزنا.

أي أن اا - عز وجل- قد نهانا عن مجرد الاقتراب من أي طريق، أو وسيلـة توصـلنا إلي الزنا، فحـرم الخلـوة بالأجنبية، والاختلاط معها، فقالصلى ا عليـه وسـلم لإن يطعـ ـن في رأس أحدكم بمخيط مـن حديـد خيـر لـه مـن أن يمـس امـرأة لا تحـل لـه(١).

(هـ) شرع الله عز وجل الزواج ورغب فيه: بل جعله الله عز وجل من آياته ونعمه فقال تعالي: ﴿ ومِن آياتِـهِ أن خَلَقَ لَكُم من أَنْفُسِكُم أَزواجا لتَسكُنُوا إِلَيها وجعلَ بينَكُم مودةً ورحمةً إن فِي ذَلِك لآياتٍ لقَومٍ يتَفَكرون ﴾ [الروم: ٢١].

وفي الحديث ثلاثة حق علي الله عونهم: المجاهـد فـي سبيل الله ، والمكاتب يريد الأداء، والناكح يريد العفاف(٢).

ويقـول -صلى الله عليه وسلم-: يا معشـر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتـزوج، فإنـه أغـض للبصـر وأحصـن للفـرج، ومـن لـم يستطـع فعليـه بالصـوم فإنه له وجاء(٣).

ويقول عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: لـو لـم يبقي من أجلي إلا عشرة أيام، وأعلم أني أموت في آخرها، ولي طول النكاح فيهن، لتزوجت مخافة الفتنة!!

بل وييسر الإسلام في الزواج وأمر بالتيسير والبسـاطة. فعن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي-صـلى الله عليـه وسلم- قال إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة وقـال يمـن المرأة خفة مهرها، ويسر نكاحها، وحسن خلقها. وشـؤمها غلاء مهرها، وعسر نكاحها، وسوء خلقها.

(٢) شرع الله أساليب العلاج: ومنها:

(أ) شرع الإسلام التوبة من الزنا:

يقول الله تعالي: ﴿ والذِين لاَ يدعون مع الله إِلَها آخَر ولاَ يقْتُلُون النفْس التِي حرم الله إِلا بِالْحق ولاَ يزنُون ومن يفْعلْ ذَلِك يلْقَ أَثَاما * يضاعفْ لَه الْعذَاب يوم الْقِيامةِ ويخْلُد فِيهِ مهانًا * إِلا من تَاب وآمن وعمِلَ عملاً صالِحا فَأُولَئِك يبدلُ الله سيئَاتِهِم حسنَاتٍ وكَان الله غَفُورا رحِيما ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]. ولا شك أن فتح باب التوبة أمام الزناة ليشجعهم علي ترك الفاحشة والرجوع إلي الله عز وجل.

(ب) شرع الإسلام حد الزنا:

وقد شرع الله الجلد- مائة جلدة- للزاني الغير محصن، فقال الله تعالي: ﴿ الزانِيةُ والزانِي فَاجلِدوا كُل واحِدٍ منْهما مِائَةَ جلْدةٍ ولاَ تَأْخُذْكُم بِهِما رأْفَةٌ فِي دِينِ الله إِن كُنْتُم تُؤْمِنُون بِالله والْيومِ الآخِرِ ولْيشْهد عذَابهما طَائِفَةٌ من الْمؤْمِنِين ﴾

[النور:٢]

وشرع الله - عز وجل- الرجم للزاني المحصن، وكان حكم الرجم قد ثبت بالقرآن تلاوة وحكما، ثم نسخ تلاوة

وبقي حكما، وجاءت السنة المشرفة مبينـة حكـم الزانـي المحصن كذلك، فكما ثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجم ما عز بن مالك حتي الموت، لما أقـر علي نفسه بالزنا، وكذلك رجم الغامدية لما أقرت علي نفسها بالزنا وثبوت حد الرجم علي الزاني المحصـن(والزانيـة) محل اتفاق بين الفقهاء.

الزنا الموجب للحد: يتحقق الزنا الموجب للحد بتغييـب الحشفة أو قدرها من مقطوعها في فـرج محـرم مشـتهي بالطبع من غير شبهة نكاح، ولو بدون إنزال أما الاسـتمتاع بالمرأة فيما دون الفرج، فلا يوجب الحد، ولكن فيه التعزير، وهو عقوبة غير مقدرة ولكن يحددها ويقدرها القاضي.

***

ثانيا: اللواط

المقصود باللواط: أن يجامع الرجل الرجل؛ بالإيلاج في دبره.

وهذا الداء من أخطر مظاهر مرحلـة المراهقـة، وقـد تتعدي هذه المرحلة لتكون سلوكا دائما بعد ذلـك. والعيـاذ با .

أسباب الوقوع في هذه العادة السيئة:

١- الميوعه والتخنث الذي أبتلي بـه بعـض الشـباب والصبيان، مثل إطالة الولد لشعره متشبها بالنسـاء، ولـبس البنطلون الضيق الواصف للبدن والخضوع في الكلام.

٢- الخلوة التي تكون بين الصبيان في تلـك المرحلـة وخصوصا عند النوم، إذ أن الشيطان للاثنين أقرب منه إلي الثلاثة.

٣- اطلاع كلا الذكرين علي عورة الآخر: وفي الحديث لا ينظر الرجل إلي عورة الرجل ولا المـرأة إلـي عـورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلي الرجل في ثوب واحـد، ولا تفضي المرأة إلي المرأة في الثوب الواحد(١).

٤- حرمان الأولاد من بعض الحاجـات: فقـد يـدفع حرمان الولد من حاجة معينة إلي فعل هـذه الفاحشـة فـي مقابل حصوله علي حاجته التي حرم منها.

٥- جهل الأولاد بهذه الفاحشة وبحرمتها وأثرها: إذ أن كثيرا من الأولاد يجهلون تماما حرمة هـذا الفعـل، فهـم يظنونه من باب الأشياء العاديـة(العيـب فقـط) وليسـت حراما!!.

٦- ضعف الوازع الديني عنـد الأولاد: إن أن الخـواء الروحي عند الأولاد، وعدم تربيتهم علي مراقبة الله - عـز وجل- وعلي الحياء، كل ذلك يجعلهم قابلين لأن يقعوا فـي براثن الفاحشة وغيرها.

***

أثر اللواط علي المجتمع

١- لا يزال المجتمع بخير ما لم يقبل هذا الشـذوذ، فإذا تقبله واستساغه ولم يحاربه، ولم يحارب مظاهره، بـل أصبح للشواذ جمعيات رسمية تحميهم، وتنظم عملهم القبيح!! بل إن الكثير من الدول جعلته وسيلة قانونيـة للاسـتمتاع، فأباحوا زواج الرجل بالرجل!! ولا حول ولا قوة إلا بالله!! عند ذلك لا بد وأن يتحمل المجتمع كله نتيجة سـلبيته فـي مواجهة هذا الانحراف. وقد قص القرآن الكريم لنا قصة قوم

لوط- عليه السلام- ﴿ ولُوطًا إِذْ قَالَ لِقَومِهِ أَتَأْتُون الْفَاحِشَـةَ وَأَنْتُم تُبصِرون * أَإِنكُم لَتَأْتُون الرجالَ شَهوةً من دونِ النساءِ بلْ أَنْتُم قَوم تَجهلُون ﴾ [النمل:٥٤-٥٥].

فماذا فعل االله بالمجتمع الذي قبل هذا الانحـراف ولـم يقاومه؟

يقـول تعالي: ﴿ فَلَما جاء أَمرنَا جعلْنَا عالِيهـا سـافِلَها وَأَمطَرنَا علَيها حِجارةً من سِجيلٍ منْضودٍ مسومةً عِنْد ربـك وما هِي مِن الظالِمِين بِبعِيدٍ ﴾ [هود:٨٢-٨٣]

وفي الحديث إذا استحلات أمتي ستا فعليهم الـدمار: إذا ظهر فيهم التلاعن، وشربوا الخمـور، ولبسـوا الحريـر، واتخذوا القيـان، واكتفـي الرجـال بالرجـال، والنسـاء بالنساء(١).

٢- لا شك أن اللواط له آثار الزنا- أو أكثر- وأعظـم، فهو ينشئ جنسا ثالثا في المجتمع، يكون لا هو من الـذكور ولا هو من الإناث! وأصحاب هذا الـداء يعرضـون عـن الزواج ويكتفون باستمتاع بعضهم ببعض، مما يكون له أثر كبير سئ علي الأمة، ولا شك أن أمراض الشذوذ الجنسـي

تكون أكثر فتكا وخطورة من أي أمراض أخري، وما الإيدز منا ببعيد!!

٣- الشباب الذين شبوا علي ممارسة هذه الفاحشـة ثـم تزوجوا لا تكون حياتهم الزوجية مستقرة، إذ أنه لا حاجة له في زوجته! فتكون حياتهم الزوجية محكوما عليها بالفشل.

***

علاجـه

الوسائل الوقائية:

١- تنمية الوازع الديني عنـد الأولاد منـذ الصـغر، وغرس عقيدة المراقبة والخوف من الله عز وجل.

٢- التفريق بين الأولاد في المضاجع- وخصوصا بعـد سن العاشرة-.

٣- عدم خلوة الأولاد ببعضهم.

٤- إشباع الأب لحاجات أولاده، سواء الحاجات المادية أو العاطفية، والاستماع لهم والحديث إليهم.

٥- عدم مرافقة الأولاد لرفاق السوء الذين من شأنهم أن يؤثروا علي أخلاقهم بالفساد.

٦- التوعية الدينية بحكم هذا الداء، وأن يعـرف الأولاد قصة قوم لوط وكيف فعل الله بهم، دون الدخول في تفاصيل كيفية ممارسة هذه العـادة السـيئة حتـي لا يـدفع حـب الاستطلاع الأولاد إلي ممارستها!

٧- البحث عن أنشطة رياضية وثقافية، ليمارسها الأولاد في تلك المرحلة(مرحلة المراهقة).

الوسائل العلاجية:

١- التوبة إلي الله عز وجل، والتضرع إليـه وطلـب العون منه، ولا بد من البعد عن رفاق السوء، وعـن كـل الوسائل التي تشده إلي الفاحشة.

٢- تطبيق عقوبة اللواط:

ففي الحديث من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فـاقتلوا الفاعل والمفعول به(١).

وقد نقل عن أبي بكر الصديق، وعلي بن أبـي طالـب، وعبد الله بن الزبير، وهشام بن عبد الملك، نقل عنهم جميعا إحراق من تلبس بهذه الجريمة. وقتلهما أفضل من استقبالهما مع الجلد والتعزير، إذ أن في قتلهما تطهيرا للمجتمـع مـن دنسهما.

ثالثا: الاستمنـاء

والمقصود به أن ينزل الرجل المني بيده، وهو ما يسميه البعض(بالعادة السرية).

أسباب الوقوع فيها:

١- يتعلم الأولاد في آخر مرحلة الطفولة المتأخرة وأول مرحلة المراهقة هذه العادة السيئة عن طريق رفقاء السـوء، أو عن طريق القراءة عنها في أي كتاب، ثم يـدفع الأولاد حب الاستطلاع إلي ممارستها.

٢- قد يفعلها ويمارسها بعض الأولاد والشباب نتيجـة الفراغ الذي يمليء حياتهم، ولا يجدون منفذا لتفريغ طاقتهم.

٣- قـد يمارسـها بعـض الأولاد والشـباب نتيجـة الاضطرابات النفسـية، بسـبب الحرمـان، والاضـطهاد، والخلافات الأسرية.

٤- الخلوة التي تكون بين الأولاد فيتحدثون فيهـا عـن معلوماتهم في هذا المجال فيـدفعهم ذلـك إلـي الممارسـة العملية.

حكمها: هذه العادة السيئة يكون لها أثر بـالغ علـي الأولاد نفسيا، وبدنيا، وقد تكون ذريعة للوقوع في اللـواط والزنا، لذا فقد ذهب الشافعي ومالك وغيرهما إلـي الحكـم بتحريمها مستدلين. بقوله تعالي: ﴿ والذِين هـم لِفُـروجِهم حافِظُون * إلا علي أزواجِهم أو ما ملَكَتْ أيمانُهم فَإنهم غَير ملُومِين* فَمن ابتَغَى وراء ذَلِك فَأُولَئِـك هـم الْعـادون ﴾ [المؤمنون:٥-٧].

علاجها: يكون العلاج بالوقاية منها وأيضا بمعالجتها كما يلي:

١- تقـوية الصـلة باالله عـز وجـل وتربيـة الولـد علي مراقبـة االله له، وأن االله لا يخفي عليه شئ في الأرض ولا في السماء.

٢- هجر رفقاء السوء وعدم الاختلاط بهم.

٣- شغل أوقات الفـراغ لـدي المـراهقين بممارسـة الأنشطة الرياضية منها والثقافية.

٤- ترويض الأولاد علي الصيام، فإن فيه تقوية للعزيمة والإرادة لدي الأولاد.

٥- توعية الشباب والمراهقين بخطورة ممارسـة هـذه العادة.

٦- المراقبة المستمرة من الأب لأولاده، والأحاديث التي تدور بينهم.

رابعا: مساحقة النساء

والمقصود به مباشرة المرأة للمرأة، واستمتـاع كـل منهما بالأخري دون إيلاج.

أسبابه: هي نفسها أسباب الوقوع في عـادة الاسـتمناء(العادة السرية).

حكمه: متفق علي تحريمه بين الفقهاء للأدلة السابقة التي قصرت الاستمتاع المباح علي الزوجة وما ملكت اليمين.

علاجه: يكون بنفس معالجة الاستمناء واللواط.

***

خامسا: إتيان المرأة في دبرها

يقول الله تعالي: ﴿نِساؤُكُم حرثٌ لكُم فَأْتُوا حرثَكُم أَنى شِئْتُم وقَدموا لأَنْفُسِكُم واتقُوا الله واعلَموا أَنكُم ملاَقُوه وبشر الْمؤْمِنِين ﴾ [البقرة:٢٢٣].

ومعني الآية: السماح للأزواج بإتيان زوجاتهم من القبل أو من الدبر ولكن الوطء والإيلاج لا يكون إلا في محل الحرث، وهو محل الولد أي القبل.

وفي الحديث لا تأتوا النساء في أدبارهن(١).

وقال في الذي يأتي المرأة في دبرها هو اللوطية الصغري(٢).

***

دور الدعاة إلي الله - عز وجل- في معالجة هذه الآفات

ينبغي علي الدعاة ألا يقصروا اهتمامهم بالكبار، ويهملوا الأولاد والمراهقين والشباب، بل ينبغي أن ينال هؤلاء القسط الأوفر من اهتمام الدعاة، إذ لا بد أن يدرك الدعاة جيدا أن شبابنا مستهدف من قبل الأعداء، لذا فيجب العمل علي احتواء الشباب والعمل علي توجيه طاقاتهم توجيها حسنا،

والعمل علي إشباع حاجاتهم إشباعا مشروعا، لذا فيجب علي الدعاة إلي الله عز وجل:

١- العمل علي ربط هؤلاء الشباب بالمساجد، إذ فيهـا يتربون تربية إسلامية صحيحة.

٢- تربية هؤلاء الشباب علي مراقبة الله - عز وجـل- والخوف منه.

٣- العمل علي شغل أوقات الفراغ بـبعض الأنشـطة الثقافية مثل:

إجراء المسابقات الشفوية والتحريرية للشـباب، عمـل حلقات الحفظ وتعليم القرآن الكريم.

٤- يمكن تنظيم دورات رياضية لهم، ورصـد بعـض الجوائز للفريق الفائز.

٥- تنميـة روح العمـل الجماعي لديهم، إذ أن هــذا كفيل بأن يخرجهم من وحـدتهم وفراغهم الذي يعـانونه، ومن أمثـلة الأعمــال الجمـاعية التـي يمكـن أن يمارسـها الشـباب صــيام يـوم وعمــل إفطـار جمـاعي لهم، عمل رحلات جماعيـة لهم.

٦- الاقتراب منهم ومعرفة مشكلاتهم النفسية والأسرية والعمل علي حلها.

تثقيفهم ثقافة جنسية من المنظور الإسلامي، والعمل علي توعيتهم التوعية الكاملة التي تحميهم من الوقوع في براثن الفاحشة.

***

(٣) حفـظ اللسـان

فضل الصمت:

١- الصمت مطردة للشيطان: يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك علي أمر دينك(١).

٢- الصمت فيه النجاة: قال عقبة بن عامر رضي الله عنه: يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك علي خطيئتك(٢).

٣- الصمت أيسر العبادة: قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأبي الدرداء: ألا أدلك علي أيسر العبادة وأهونها

علي البدن؟ قال: بلي يا رسول الله، فقال: عليك بالصمت وحسن الخلق فإنك لن تعمل مثلهما(٣).

مكانة اللسان بين الأعضاء: في الحديث إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا(٤). فاللسان وزير القلب في الإنسان، فهو يعبر عما يريده القلب.

خطورة اللسان علي الإنسان: يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلي النار أبعد مما بين المشرق والمغرب(٥).

ويقول أيضا إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالي ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالي لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم(٦) ويقول-صلى الله عليه وسلم- المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده(٧).

ومعني الحديث: أن المسلم الحق هو الذي يكف أذاه بلسانه ويده عن المسلمين.

وفي الحديث: أن المسلم الحق هو الذي يكف أذاه بلسانه ويده عن المسلمين.

ويقول الرسول -صلى ا عليه وسلم- من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة(١).

ومعني الحديث: أن أكثـر الأعضـاء خطـورة علـي الإنسان: اللسان والفرج فمن حفظ لسانه وحفظ فرجه دخـل الجنة، لأن سلامة اللسان والفرج من سلامة القلب وصـحته ومدي صلته الوثيقة باا عز وجل.

وقد سأل سفيان بن عبد اا الثقفي رسول اا -صلى ا عليه وسلم- قال: يا رسول اا ما أخوف ما تخاف علـي؟ قال: هذا وأخذ بلسانه(٢).

والحديث يبين أن أخطر شئ علي الإنسان هو اللسـان، وذلك لكثرة آفاته.

وقال -صلى ا عليه وسلم- وهل يكب الناس في النـار علي وجوههم إلا حصائد ألسنتهم(٣).

فضول الكلام:

الكثير من كلام الإنسان لا يعود عليه بفائدة، هذا إن لـم يكن يجاب عليه الهلاك!

يقول اا   تعالي: ﴿ لاَ خَير ِفِي كَثِير ٍ من نجواهم ِإلا من َأمر ِبِصدقَةٍ َأو معروفٍ َأو ِإصلاَحٍ بين الناسِ ومن يفْعلْ ذَِلك ابتِغَاء مرضاتِ ا ِ فَسوفَ نُؤْتِيهِ َأجرا عظِيما ﴾
[النساء:١١٤].

الهوامش

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن عن ميمونة رضي الله عنها.

(١) رواه أبو يعلي بإسناد حسن.

(٢) من حديث رواه ابن ماجة والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البيهقي.

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة واللفظ لمسلم.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود.

(١) رواه البيهقي والطبراني عن معقل بن يسار.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الجماعة عن عبد الله بن مسعود.

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١) رواه الطبراني في الأوسط.

(١) رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد.

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.(٢) رواه أحمد والنسائي.

(١) رواه الحاكم عن أبي ذر وصححه.(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني وأبو يعلي وسنده.

(٤) رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري.

(٥) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٧) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حـديث أبـي موسي.

(١) رواه البخاري والترمذي عن سهل بن سعد.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وابن ماجـة، وصـححه الألباني، ورواه الدارمي والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صـحيح، وابـن ماجـة، والحاكم وقال صحيح علي شرط الشيخين ووافقه الـذهبي وصـححه الألباني.

هوامش:

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن عن ميمونة رضي اا عنها.

(١) رواه أبو يعلي بإسناد حسن.

(٢) من حديث رواه ابن ماجة والطبراني عن ابن عمر رضـي اا عنهما.

(٣) رواه البيهقي.

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة واللفظ لمسلم.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود.

(١) رواه البيهقي والطبراني عن معقل بن يسار.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي اا عنه.

(٣) رواه الجماعة عن عبد اا بن مسعود.

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اا عنه.

(١) رواه الطبراني في الأوسط.

(١) رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد.

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.(٢) رواه أحمد والنسائي.

(١) رواه الحاكم عن أبي ذر وصححه.(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني وأبو يعلي وسنده.

(٤) رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري.

(٥) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي اا عنه.

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٧) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث أبي موسي.

(١) رواه البخاري والترمذي عن سهل بن سعد.

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وابن ماجة، وصححه الألباني، ورواه الدارمي والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجة، والحاكم وقال صحيح علي شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

ويقول تعالي:{ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيـد}[ق:١٨].

وفي الحديـث: طوبـي لمـن أنفـق الفضـل مـن مالـه وأمسك الفضل من قوله(١).

ويقول علي- رضي اا عنه- من كثـر كلامـه كثـر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار.

وقال أيضا: المرء مخبوء تحت لسانه فإذا ما تكلم ظهر.

وقال: لسان العاقل وراء قلبـه، وقلـب الأحمـق وراء لسانه.وحدث محمد ابن سوقة- أحد علماء الكوفة وعبادها- جماعة من زواره قال: ألا أسمعكم حديثا لعله يـنفعكم كمـا نفعني؟ قالوا: بلي. قال نصحني عطاء بن أبي ربـاح ذات يوم فقال: يا ابن أخي: إن الذين من قبلنا كـانوا يكرهـون فضول الكلام. فقلت: وما فضول الكلام عندهم؟

فقال: كانوا يعدون كل كلام فضولا ما عدا كتـاب اا عز وجل أن يقرأ أو يفهم، وحديث رسـول اا -صـلى ا عليه وسلم- أن يروي ويدري، أو أمرا بمعـروف أو نهيـا عن المنكر، أو علما يتقرب به إلي اا تعالي أو أن تـتكلم

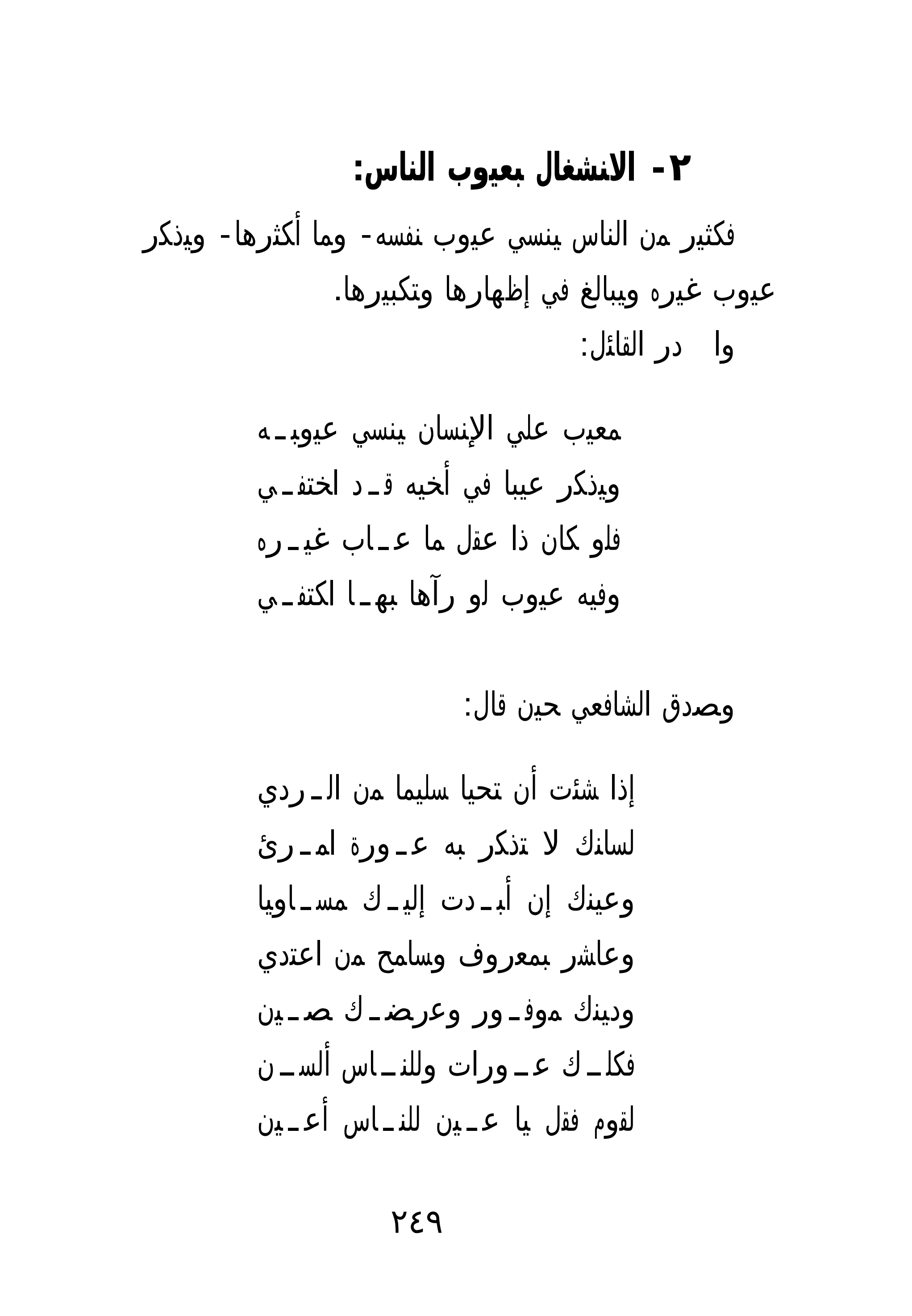
بحاجتك؛ ومعيشتك التي لا بد لك منها، ثم حدق إلي وجهي وقال: أتنكرون وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين، أن مع كل منكم مليكه عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قـول إلا لديه رقيب عتيد ثم قال: أما يستحي أحدنا لو نشرت عليه صحيفته التي أمـلاهـا صـــــــدر نهـاره فوجـد أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا من أمر دنياه(٢).

من آفات اللسان:

١ - الوقوع في أعراض الناس:

يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما عرج بـي مررت بقوم لهم أظفار مـن نحـاس يخمشـون وجـوههم وصدورهم: فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هـؤلاء الـذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم(١).

ويقول-صلى الله عليه وسلم- كل المسلم علـي المسـلم حرام: دمه وعرضه وماله(٢) والحـديثان يبينـان حرمـة الخوض في أعراض الناس.



٢- الانشغال بعيوب الناس:

فكثير من الناس ينسي عيوب نفسه- وما أكثرها- ويذكر عيوب غيره ويبالغ في إظهارها وتكبيرها.

وا   در القائل:

معيب علي الإنسان ينسي عيوبـه
ويذكر عيبا في أخيه قـد اختفـي
فلو كان ذا عقل ما عـاب غيـره
وفيه عيوب لو رآها بهـا اكتفـي

وصدق الشافعي حين قال:

إذا شئت أن تحيا سليما من الـردي
لسانك لا تذكر به عـورة امـرئ
وعينك إن أبـدت إليـك مسـاويا
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدي
ودينك موفـور وعرضـك صـين
فكلـك عـورات وللنـاس ألسـن
لقوم فقل يا عـين للنـاس أعـين

ودافع ولكن بـالتي هـي أحسـن

٣- الكلام فيما لا يعني:

يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه(١) فمن كمال الإسـلام وتمامـه أن يترك الإنسان الأقوال التي لا تعنيه ولا تفيده.

يقول سهل بن عبد الله: من تكلم فيما لا يعنيـه حـرم الصدق.

٤- الغيبة:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بمـا يكره قيل: إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيـه مـا تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته(٢).

وبين الله - عز وجل- أن مثل الذي يغتاب الناس كمثل الذي يأكل لحومهم أمواتا.

فيقول تعالي: ﴿ يا أَيها الذِين آمنُوا اجتَنِبوا كَثِيـرا مـن الظن إِن بعض الظن إِثْم ولاَ تَجسسوا ولاَ يغْتَـب بعضـكُم

بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ [الحجرات:١٢].

٥- النميمة:

ويقصد بها نقل الكلام بين الناس لقصد الإفساد بينهم وإيقاع العداوة.

وفي الحديث لا يدخل الجنة نمام(٣).

أي لا يدخل الجنة ابتداء ولكن لا بد من عقابه أولا.

٦- مدح الإنسان بما ليس فيه:

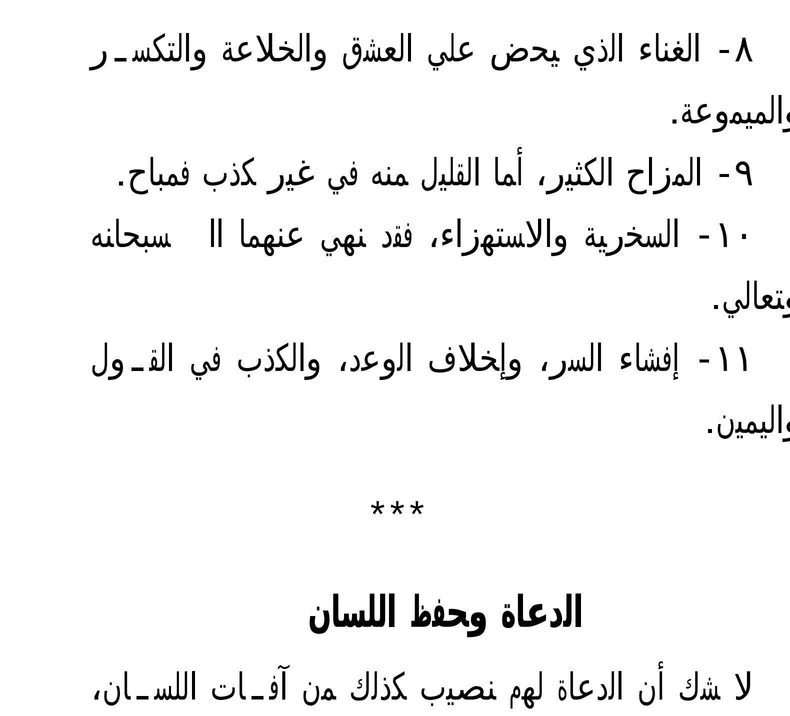
فمدح الإنسان بما ليس فيه يدفع المادح إلي الكذب والنفاق ويوقعه فيهما، ويدخل في الممدوح الكبر والإعجاب بالنفس.

وفي الحديث واحثوا في وجه المداحين التراب(٤).

وكان علي- رضي الله عنه- إذا أثني عليه أحد يقول اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون.

٧- الفحش والسب والبذاءة:

ففي الحديث ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ(١).


٨- الغناء الذي يحض علي العشق والخلاعة والتكسـر والميموعة.

٩- المزاح الكثير، أما القليل منه في غير كذب فمباح.

١٠- السخرية والاستهزاء، فقد نهي عنهما اا سبحانه وتعالي.

١١- إفشاء السر، وإخلاف الوعد، والكذب في القـول واليمين.

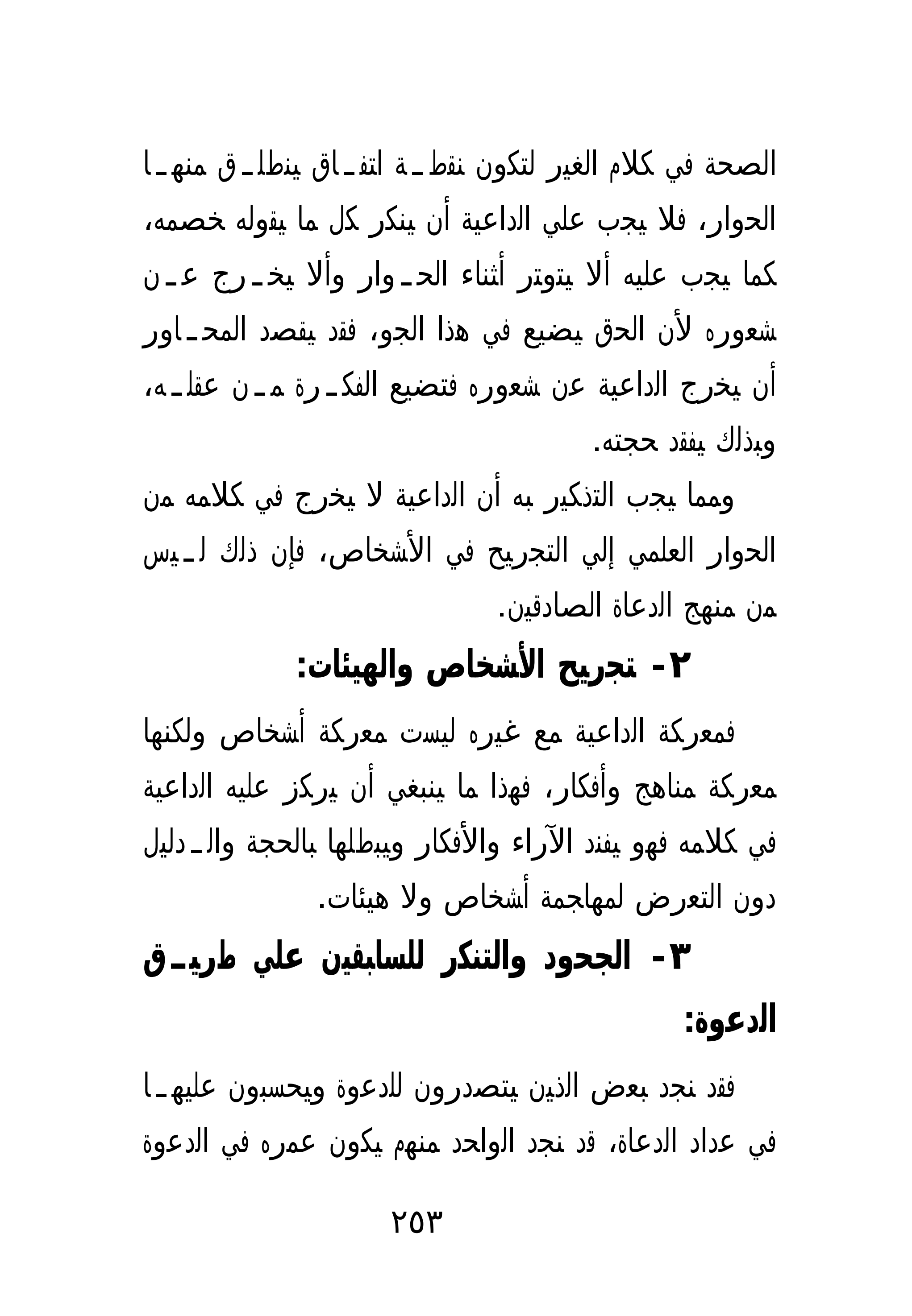
***

الدعاة وحفظ اللسان

لا شك أن الدعاة لهم نصيب كذلك من آفـات اللسـان، ولكنها تتعلق أكثر ما تتعلق بالأعمال الدعوية ومـن هـذه الآفات:

١- عدم الموضوعية في الحوار:

فلا شك أن الداعية يتعرض لبعض الحوارات بينه وبين الناس، المتحامل منهم علي الدعوة والدعاة، والـذي يهـاجم الدعوة والداعية جاهلا بها، فيجب علي الداعيـة أن يفسـح صدره أثناء حواراته مع هؤلاء وهؤلاء، وأن يسـلم بنقـاط


الصحة في كلام الغير لتكون نقطة اتفاق ينطلق منها الحوار، فلا يجب علي الداعية أن ينكر كل ما يقوله خصمه، كما يجب عليه ألا يتوتر أثناء الحوار وألا يخرج عن شعوره لأن الحق يضيع في هذا الجو، فقد يقصد المحاور أن يخرج الداعية عن شعوره فتضيع الفكرة من عقله، وبذلك يفقد حجته.

ومما يجب التذكير به أن الداعية لا يخرج في كلامه من الحوار العلمي إلي التجريح في الأشخاص، فإن ذلك ليس من منهج الدعاة الصادقين.

٢- تجريح الأشخاص والهيئات:

فمعركة الداعية مع غيره ليست معركة أشخاص ولكنها معركة مناهج وأفكار، فهذا ما ينبغي أن يركز عليه الداعية في كلامه فهو يفند الآراء والأفكار ويبطلها بالحجة والدليل دون التعرض لمهاجمة أشخاص ولا هيئات.

٣- الجحود والتنكر للسابقين علي طريق الدعوة:

فقد نجد بعض الذين يتصدرون للدعوة ويحسبون عليها في عداد الدعاة، قد نجد الواحد منهم يكون عمره في الدعوة

سنة أو سنتين أو ثلاثة أو أكثر قليلا،ثم تراه يتطاول علـي الذين سبقوه علي الطريق، وأقاموا للدعوة صروحا شامخة، تراه يقلل من جهادهم وتضحياتهم، بل ربما رماهم بما هـم منه براء، وقد نسي أو تناسي قول الله تعـالي: ﴿ والـذِين جاءوا مِن بعدِهِم يقُولُون ربنَا اغْفِر لَنَـا ولإِخْوانِنَـا الـذِين سبقُونَا بِالإِيمان ولاَ تَجعلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا للذِين آمنُـوا ربنَـا إِنك رؤُوفٌ رحِيم ﴾ [الحشر: ١٠].

يقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله وفي ميدان التدين خاصة استغرب أن يتصدر للفتوي من لا فقه له، وأن يتقدم للرياسة من لا ثقافة له، وأن يتطوع بالرأي في شئون العامة من لا يؤمن علي إدرارة دكان!!.

وفي تاريخنا القريب والبعيد وجدت من هؤلاء من يطعن الأئمة ويناوش القمم، وقد روي ابن مردويه أن رجلا مـن الخوارج نظر إلي سعد بن أبي وقاص وقال: هذا من أئمـة الكفر! فقال له سعد: كذبت، أنا قاتلت أئمة الكفر! فإذا وغـد آخر يظاهر زميله يقول عن سعد: هـذا مـن الأخسـرين أعمالا! فقال سعد: كذبت.. أولئك الذين كفروا بآيات ربهـم ولقائه وسعد بن أبي وقاص هو القائد الـذي قـوض دولـة

الفرس، وكانت نصف الدنيا وانتصر في معركـة القادسـية التي محت تاريخا وأثبتت تاريخا. وقد نهض البطل بأعبـاء القيادة وهو مريض يرسل بأوامره من علي فراشه للفـرق المشتبكة مع عمالقة الأرض، فما غلبه الألم علي فكر حتـي أدال الله للمسلمين، واكتسحوا الميدان، ومع ذلك كله، فـإن فتي غره أن قرأ شيئا من القرآن أو نظر في بعـض كتـب السنة، أو صلي ركعتين في جوف الليل أو في أوله يحسـب أن ذلك يمنحه الجرأة علي تصغير الكبار وتكبير الصغار!!! إني أنصح العاملين في ميدان الصحوة الإسلامية أن يزدادوا علما وأن يزدادوا تواضعا لله وللناس وأن يعطـوا كـل ذي فضل فضله، وأن يريدوا الله بأعمالهم، وأن يدركوا حقيقـة قد تغيب عن كثيرين: أن من يسرق مكانة ليست له، شر من سرق البضائع والأموال(١)(انتهي).

٤- الخوض في المسائل التي لا ينبني عليها عمل:

كالخوض والتعمق في البحث عن المبهمـات كأسـماء أصحاب الكهف، أو اسم القرية التي كانت حاضرة البحر في بني إسرائيل! واسم الرسولين اللذين أرسلهما الله إلي القرية

في قوله تعالي ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ﴾ [يس:١٣-١٤].

فكل هذه المسائل وغيرها، الجهل بها لا يضر والعلم بها لا ينفع فلا داعي أن يضيع الدعاة فيها أوقاتهم بخوضهم فيها.

٥- الحديث عن النفس:

عندما يجري الله خيرا للإسلام علي يد داعية من الدعاة عليه أن يرجع الفضل في ذلك إلي الله سبحانه وتعالي ولا يرجعه لنفسه أو إلي تخطيطه وكفاءته، وعليه كذلك ألا يتحدث عن نفسه وإنجازاته في حقل الدعوة، أو عن الجهود التي يبذلها في هذا المجال، لأن كل هذا من باب تزكية النفس التي نهينا عنها.

٦- عدم مراعاة آداب النصيحة:

ذلك أن بعض الدعاة في نصحه لأخيه الداعية، أو في نصحه لعامة الناس، لا يراعي آداب النصيحة التي يرجي لها القبول.

ومن هذه الآداب:

١- اختيار الظروف المناسبة، واختيار الأسلوب المناسب.

٢- أن يؤدي النصيحة علي أكمل وجه، ويقبلها علي أي وجه.

بمعني أنه حينما ينصح أحدا يراعي آداب النصيحة، ولكن إذا قدمت إليه نصيحة عليه أن يقبلها وإن لم يراع صاحبها آداب النصيحة.

٣- أن تكون النصيحة سرا: إذ أن من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

والداعية الحق هو من يجعل من نفسه طبيبا لداء إخوانه دون أن يذيع ذلك وينشره بين الناس، فإن عجز عن معالجة الداء استعان بطبيب أمهر منه يكون أقرب إلي نفس الذي فيه الداء.

وكلما أحس الفرد بدفء العاطفة والمودة كان أقرب إلي قبول النصيحة والإصلاح من نفسه.



(٤) حفظ السمع والبصر

لا شك أن السمع والبصر من النعم العظيمة التي أنعـم الله - عز وجل- بها علي الإنسان.

يقول الله تعالي: ﴿ والله أخْرجكُم من بطُون أُمهاتِكُم لاَ تَعلَمون شَيًا وجعلَ لَكُم السمع والأَبصار والأَفْئِدةَ لَعلكُـم تَشْكُرون ﴾

[النحل:٧٨].

ويقول تعالي: ﴿ قُلْ هو الذِي أنْشَأكُم وجعلَ لَكُم الســمع والأَبصار والأَفْئِدةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرون ﴾ [الملك:٢٣].

وإنما جعل الله - عز وجل- هذه النعم للإنسان ليـتمكن العبد من عبادة الله - عز وجل- فالسمع يسمع به كلام الله ، والبصر ليبصر به آيات الله المقروءة والمنظورة، والأفئـدة وهي وسائل الإدراك في الإنسان: العقل والقلـب، ليـدرك الإنسان بعقله وقلبه- أوامر الله - عز وجل- ففي الحـديث القدسي: إن الله تبارك وتعالي قال: من عادي لي وليا فقـد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشئ أحب إلـي ممـا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتـي أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الـذي

يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشـي بهـا، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما تـرددت عن شئ أنا فاعله، ترددي عن قبض نفس عبدي المـؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته(١).

ومعني الحديث: أن العبد لا يزال يواظب علـي فعـل الفرائض، والمندوبات والنوافل، حتي يصل إلي درجة محبة الله - عز وجل- له، فإذا أحبه الله وفق أعضاءه إلي فعـل الخيرات، فوفق الأذن لأن تسمع ما يرضي الله، والعين لأن تبصر ما يرضي الله، وهكذا سائر الجوارح.

شكر نعمة السمع:

يتحقق شكر الله علي نعمة السمع بأمرين:

الأمـر الأول: باستخدام هذه النعمة في الغرض الذي أراده الله - عز وجل-، من استماع لكـلام الله، واسـتماع لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستماع إلي كل ما يفيد الإنسان في دنياه وآخرته.

الأمر الثاني: ويكون بصون السمع عن الآفات التي قـد يتعرض لها ومنها:

١- التجسس: وهو البحـث عـن سـيئات المسـلمين وسوءاتهم، والاجتهاد في كشف ما ستره الله مـن معـايبهم ومثالبهم.

لقوله تعالي:﴿ولا تجسسوا﴾ [الحجرات:١٢].

٢- استماع اللغو: وهو ما لا فائدة فيه من الكـلام، لأن في استماعه تضييعا للوقت، وتفويتا لأعمال أخري كالـذكر وغيره، فضلا عن أن استماعه يفضي إلي استماع المحـرم من الكلام، ومن صفات عباد الرحمن: ﴿ والَّذِين لاَ يشْهدون الزور وإِذَا مروا بِاللغْوِ مروا كِراما ﴾ [الفرقان:٧٢] وقوله تعالي: ﴿ وإِذَا سمِعوا اللغْو أَعرضوا عنْه وقَالُوا لَنَا أَعمالُنَـا ولَكُم أَعمالُكُم سلاَم علَيكُم لاَ نَبتَغِي الْجاهِلِين ﴾ [القصص:٥٥].

٣- استماع الغناء الماجن: لأن القلب إذا امـتلأ بحـب الغناء، لم يعد يحب القرآن فحب الغناء وحـب القـرآن لا يجتمعان في قلب واحد، فتري صاحب الغنـاء يتبـرم مـن سماع القرآن.

يقول عبد الله بن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلـب كما ينبت الماء البقل.

أما الغناء المتمثل في الأناشيد الحماسية التي تحض علي الجهاد وتثير في الإنسان الهمة، فهي من الأمور المباحـة، وقد كان الصحابة ينشدونها وهم يحفرون الخندق منها:

نحن الذين بايعوا محمد على الجهاد ما بقينا أبدا

ومنها قول عبد الله بن رواحة- رضي الله عنه:

٤- استماع الفاحش البذئ من الكلام، واستماع الغيبـة والنميمة، واستماع الخوض في الباطل؛ كل هذه آفات يجب علي المسلم أن يحفظ سمعه عنها.

شكر نعمة البصر: ويكون شكر هذه النعمة بأمرين هنا:

الأول: استخدام هذه النعمة في الغرض الـذي جعلهـا الله - عز وجل- من أجله وهو تطويعها لعبادة الله - عـز وجل- بالنظر في كتاب الله تلاوته والتعبد به، والنظر فـي ملكوت الله - عز وجل- للاعتبار.

يقول الله تعالي: ﴿ أَفَلَم ينْظُروا إِلَى السماءِ فَوقَهم كَيـفَ بنَينَاها وزيناها وما لَها مِن فُروجٍ * والأَرض مددنَاها وأَلْقَينَا فِيها رواسِي وأَنْبتْنا فِيها مِن كُـل زوجٍ بهـيجٍ * تَبصِـرةً وذِكْرى لِكُل عبدٍ منِيبٍ ﴾ [ق:٦-٨].

وتطويعها كذلك في خدمة الإنسان وإعانته علـي أمـر دنياه.

الثاني: بحفظها من الآفات التي قد تتعرض لها ومنها:

١- النظر إلي النساء(ونظر النساء إلي الرجال):

فالعين مفتاح القلب، والنظر رسول الفتنة وبريد الزنـا، وفي الحديث العينان تزنيان وزناهما النظر(١).

ولكن إذا وقع فجأة نظر أحد الجنسين علي الآخر، يجب أن يصرفه.

لحديث جابر- رضي االله عنه- قال: سألت رسول االله صلى االله عليه وسلم عن نظـر الفجـأة فقـال: اصـرف بصرك(١).

هذا في النظر الفجأة؟ فكيف بالذين يديمون النظر إلـي المتبرجات في المسلسلات والأفلام؟! وكيف بـالمرأة التـي تنظر إلي الرجال أشباه العرايا فـي الأفـلام والمسلسـلات أيضا؟!

٢- نظر الرجل إلي عورة الرجل والمرأة إلـي عـورة المرأة:

فقد نهي النبيصلى ا عليه وسلم عـن النظـر إلـي العورات، ولو كان من رجل لرجل أو من امـرأة لامـرأة، بشهوة أو بغير شهوة، ففي الحديث لا ينظر الرجـل إلـي عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلي عورة المرأة(٢).

٣- النظر إلي عورات الناس في بيوتهم:

بمعني النظر في بيوت الناس- بغير إذنهـم- لمعرفـة أسرارهم وأحوالهم، ففي الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة- رضي اا عنه-: من اطلع في بيت قـوم بغيـر إذنهم، فقد حل لهم أن يفقأوا عينه.

٤- النظر إلي الأمرد: وهو الشاب- أو الفتي- الجميـل الذي لا لحية له، يقول ابن حجر الهيتمي في كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر.

دخل سفيان الثوري- وناهيك به معرفة وعلما وزهـدا وتقدما- الحمام فدخل عليه صبي حسن الوجه فقال: أخرجوه عني أخرجوه عني فإني أري مع كل امرأة شيطانا ومع كل صبي بضعة عشر شيطانا.

ويقول: وجاء رجل إلي الإمام أحمد- رضي اا عنه- ومعه صبي حسن الوجه فقال له الإمام: من هذا منك؟ فقال

ابن أختي، فقال: لا تجئ به إلينا مرة أخري، ولا تمشي معه في طريق لئلا يظن من لا يعرفك ويعرفه سوءا.

الدعاة وحفظ السمع والبصر

هناك أمور خطيرة تتعلق بالدعاة في هـذا الموضـوع منها:

استماع بعض الدعاة إلي من يسيرون بالغيبة والنميمـة بين صف الدعاة إلي الله فهذا من شأنه أن يوقـع العـداوة والبغضاء في الصف، ومن ثم الشقاق والاختلاف، فيجـب علي صف الدعاة إلي الله أن يلفظوا هذا السلوك، وينبـذوه من بينهم، انطلاقا من الثقة المتبادلة بـين أفـراد الصـف، وعملا بقوله تعالي:{ لولا إذ سـمعتموه ظـن بمؤمنـون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين}[النور:١٢].

والصف الذي تسوده الثقة، لا يمكن أن يخترقه أعداؤه.

***

(٥): حفظ البطن واليد

أولا: حفظ البطن: لا شك أن البطن هي ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والأمراض، إذ تنشط شهوة الفـرج بإشـباع شهوة البطن، وهل أخرج آدم من الجنة إلا بسـبب شـهوة البطن؟!

ولكي يحفظ الإنسان بطنه يكون ذلك بأمرين:

الأمر الأول: عدم أكل الأموال التي حرمها الله تعـالي (أو شربها).

يقول الله تعالي: ﴿ ولاَ تَأْكُلُوا أَموالَكُم بينَكُم بِالْباطِلِ وتُدلُوا بِها إِلَى الْحكامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا من أَموال الناسِ بِـالإِثْمِ وأَنْتُم تَعلَمون ﴾ [البقرة:١٨٨].

وفـي الايـة نهي عـن تنـاول كـل الأمـوال المحرمـة، ومـن صـور الأمـوال المحـرمـة:

١- السرقة: يقول تعالي: ﴿ والسارِقُ والسارِقَةُ فَاقْطَعوا أَيدِيهما جزاء بِما كَسبا نَكَالاً من الله والله عزِيز حكِيم ﴾ [المائدة:٣٨].

٢- الربا: يقول تعالي: ﴿ الذِين يأْكُلُون الربا لاَ يقُومون إِلا كَما يقُوم الذِي يتَخَبطُه الشيطَان مِن الْمس ذَلِك بِأَنهم قَالُوا

إنما الْبيع مِثْلُ الربا وأَحل ا ُ الْبيع وحرم الربا فَمن جـاءه موعِظَةٌ من ربهِ فَانْتَهى فَلَه ما سلَفَ وأَمره إِلَى ا ِ ومن عاد فَأُولَئِك أَصحاب النارِ هم فِيها خَالِدون ﴾ [البقرة:٢٧٥].

٣- أكل أموال اليتامي ظلما: ﴿ يقول تعـالي إِن الـذِين يأْكُلُون أَموالَ الْيتَامى ظُلْما إِنما يأْكُلُون فِي بطُـونِهم نَـارا وسيصلَون سعِيرا ﴾ [النساء:١٠].

٤- الخمر والميسر(القمار): يقول تعالي: ﴿ يا أَيها الَّذِين آمنُوا إِنما الْخَمر والْميسِر والأنصاب والأزلاَم رِجـس من عمل الشيطَانِ فَاجتَنِبوه لَعلكُم تُفْلِحون إنما يرِيد الشيطَان أَن يوقِع بينَكُم الْعداوةَ والْبغْضاء فِي الْخَمرِ والْميسِرِ ويصدكُم عن ذِكْرِ ا ِ وعنِ الصلاَةِ فَهلْ أَنْتُم منتَهون ﴾

[المائدة:٩٠-٩١].

٥- الذبائح والأطعمة الخبيثـة: يقـول تعـالي: ﴿ حرمتْ علَيكُم الْميتَةُ والدم ولَحم الْخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ لِغَيـرِ ا ِ بِهِ والْمنْخَنِقَةُ والْموقُوذَةُ والْمتَرديةُ والنطِيحةُ وما أَكَلَ السـبع إِلا ما ذَكيتُم وما ذُبِح علَى النصبِ وأَن تَستَقْسِموا بِـالأزلاَمِ ذَلِكُم فِسقٌ الْيوم يئِس الَّذِين كَفَروا مِن دِينِكُم فَـلاَ تَخْشَـوهم واخْشَون الْيوم أَكْملْتُ لَكُم دِينَكُم وأَتْممـتُ علَـيكُم نِعمتِـي

ورضِيتُ لَكُم الإِسلاَم دِينًا فَمن اضطُر فِي مخْمصـةٍ غَيـر متَجانِفٍ لإِثْمٍ فَإِن ا َ غَفُور رحِيم ﴾ [المائدة:٣].

٦- الرشوة: يقول-صلى ا عليه وسـلم-: لعنـة اا علي الراشي والمرتشي في الحكم(١).

وعن ثوبان قال: لعن رسول اا -صلى ا عليه وسلم- الراشي والمرتشي والرائش(٢) (والرائش هو الوسيط بـين الراشي والمرتشي).

٧- الهدايا إلي الحكام: روي عنـه-صـلى ا عليـه وسلم-: من استعملناه علي عمل فرزقناه رزقا فما أخذه بعد ذلك فهو غلول(٣).

٨- الغش: يقول-صلى ا عليه وسلم-: من غشنا فليس منا(٤).

٩- تطفيف الكيل والميـزان: يقـول تعـالي: ﴿ ويـلٌ للْمطَفِّفِين * الَّذِين إِذَا اكْتَالُوا علَى النـاسِ يسـتَوفُون * وإِذَا كَالُوهم أَو وزنُوهم يخْسِرون * أَلاَ يظُن أُولَئِك أَنهم مبعوثُون لِيومٍ عظِيمٍ يوم يقُوم الناس لِرب الْعالَمِين ﴾ [المطففـين:١-٦].

١٠- النجش في البيع والشراء: ومعناه أن يعطي فـي السلعة أكثر من ثمنها وليس في نفسه اشتراء ليقتـدي بـه غيره، يقول-صـلى ا عليـه وسـلم-: لا تحاسـدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم علـي بيع بعض، وكونوا عباد اا إخوانا، المسلم أخو المسـلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوي ها هنـا- ويشير إلي صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم علي المسلم حرام، دمه وماله وعرضه(١).

١١- بيع الأشياء المحرمة: وبيع الغـرر، والاحتكـار، والاستغلال والخداع، كل هذه صور من الأموال المحرمة.

١٢- شراء المسروقات: إذ أن في ذلك تشـجيعا علـي السرقة وترويجا لها. يقول-صلى ا عليه وسـلم-: مـن اشتري سرقة- أي مسروقا- وهو يعلم أنهـا سـرقة فقـد اشترك في إثمها وعارها(٢).

١٣- الأموال المكتسبة من أعمـال محرمـة: كـأموال الراقصات والمغنيات والأموال المكتسبة من قول وشـهادة الزور، وعدم إتقان العمل، وغيرها.

شبهة يثيرها بعض الناس

يقول بعض الذين يعيشون علي بعض هذه الصور مـن الأموال المحرمة، يقولون: إن هذا رزقنا ولا رزق لنا سواه، وللرد علي هذه الشبهة:

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي- رحمـه اا -: إن اا سبحانه وتعالي يرزق من يشاء بغير حساب، ولا يظـن إنسان أن عمله هو الذي سيرزقه، إنما يرزقه اا بسبب هذا العمل: فإن انتقل من عمل الباطل إلي عمل آخر حلال فلـن يضن اا عليه بعمل حق ورزق حلال. وقد عـالج الحـق سبحانه وتعالي هذه القضية حينما أراد أن يحرم بيت اا في مكة علي المشركين، لقد كان هناك أناس يعيشون علي مـا يأتي به المشركون في موسم الحج، وكان أهل مكة يبيعـون في هذا الموسم الاقتصادي كل شئ للمشركين الذين يـأتون للبيت، وحين يحرم اا علي المشرك أن يذهب إلي البيـت الحرام فماذا يكون موقف هؤلاء؟ إن أول ما يخطـر علـي البال هو الظن القائل من أين يعيشون؟ ولنتأمل القضية التي يريد اا أن ترسخ في نفس كل مؤمن. قال الحـق: إنمـا المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ثم

يأتي للقضية التي تشغل بال الناس فيقول: ﴿ يا أَيها الـذِين آمنُوا إِنما الْمشْرِكُون نَجس فَلاَ يقْربوا الْمسجِد الْحرام بعـد عامِهِم هذَا وإِن خِفْتُم عيلَةً فَسوفَ يغْنِيكُم ا ُ مِن فَضـلِهِ إِن شاَء إِن ا َ علِيم حكِيم ﴾ [التوبة:٢٨].

وهكذا نري أن هذه القضية لم تخف علي اا ، فلا يقولن أحد إن العمل الباطل الحرام هو مصدر رزقي، ولن أستطيع العيش لو تركته، سواء كان تلحينـا، أو عزفـا، أو تأليفـا للأغاني الخليعة، أو الرقص، أو نحت التماثيل، نقول له: لا. لا تجعل هذا مصدرا لرزقك واا يقول لـك:{ا إن خفـتم عيلة فسوف يغنيكم بله من فضله} وأنت عندما تتقـي اا - سبحانه وتعالي- فهو يجعل لك مخرجا.

ومن يتق اا يجعل له مخرجا، ويرزقه مـن حيـث لا يحتسب وعليك أن تترك كل عمل فيه معصيةا وانظر إلي يد اا الممدودة لك بخيره) انتهي(١).

الأمر الثاني: عدم الإسراف في تناول المباحات:

فاا تعالي يأمرنا بالاعتدال في الطعام والشراب، فيقول تعالي ﴿ يا بنِي آدم خُذُوا زِينَتَكُم عِنْد كُـل مسـجِدٍ وكُلُـوا واشْربوا ولاَ تُسرِفُوا إِنه لاَ يحِب الْمسرِفِين ﴾

[الأعراف:٣١].

ويأمرنا الله بالوسطية في الإنفاق فيقول: ﴿ ولاَ تَجعـلْ يدك مغْلُولَةً إِلَى عنُقِك ولاَ تَبسطْها كُلَّ الْبسطِ فَتَقْعـد ملُومـا محسورا ﴾ [الإسراء:٢٩].

ومن صفات عباد الرحمن: ﴿ والَّذِين إِذَا أَنْفَقُوا لَم يسرِفُوا ولَم يقْتُروا وكَان بين ذَلِك قَواما ﴾ [الفرقان:٦٧].

ويقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ما ملأ ابـن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صـلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامـه، وثلـث لشـرابه وثلـث لنفسه(١).

ويقول: المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكـل فـي سبعة أمعاء(٢).

ثانيا: حفظ اليد: فاليد نعمة من نعم الله عز وجل، ومـن بها علي الإنسان وأوجب عليه شكرها، ويكون ذلـك بـأن يستخدم الإنسان يده في طاعة الله عز وجـل، وفـي فعـل الخيرات، وفي كسب لقوته بالطريقة التي شرعها الله وكذلك يكون شكر نعمة اليد بكفها وحفظها من الآفـات التـي قـد تصيب اليد ومنها:

١- البطش والتعدي علي عباد الله ظلما وافتراء، وذلك بالقتل أو الضرب.

٢- مدها لتناول المحرمات من الأطعمة والأشربة.

٣- مدها إلي امرأة لا تحل له.

٤- استخدامها لإعانة ظالم علي ظلمه.

يقول-صلى الله عليه وسلم-: صنفان من أهل النار لـم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها النـاس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسـنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحهـا ليوجد من مسيرة كذا وكذا(٣).

٥- تعذيب الحيوانات: يقول-صلى الله عليـه وسـلم-: عذبت امرأة في هرة حبستها حتي ماتت ودخلت فيها النار، لاهي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكـل من خشاش الأرض(٤).

الدعاة وحفظ البطن واليد

الدعاة إلي الله تعالي، إذ يطالبون الناس بحفـظ الـبطن عن الحرام فهم يتعدون ذلك إلي حفظها عن مجرد الشبهات، بل يصونون بطونهم عن أن تمتلئ بالطعام الحلال! بل أنهم يروضون أنفسهم علي تحمل الجـوع والعطـش، إذ أنهـم معرضون لذلك بين لحظة وأخري فليكونوا مروضين علـي ذلك، وليكن شعار الداعية إلي الله - عـز وجـل- دع مـا يريبك إلي ما لا يريبك(١).

يقول الحسن: ما زالت التقوي بالمتقين حتي تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام؟

وقال الثوري: إنما سموا المتقين لأنهم اتقوا ما لا يتقي.

وقال ابن عمر: إني لأحب أن أدع بيني وبـين الحـرام سترة من الحلال لا أخرقها

وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتي يجعل بينه وبين الحرام حاجزا من الحلال وحتي يدع الإثـم وما تشابه منه.

***

الهوامش

(١) رواه الطبراني.

(٢) من كتاب صور من حياة التابعين جـ ١ ص١٦: ص١٩.

(١) رواه أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رواه الترمذي وابن ماجة وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو والترمذي والدارمي، عن أبي هريـرة رضـي الله عنه وروي مسلم نحوه.

(٣) رواه الشيخان والترمذي وأبو داود عن حذيفة.

(٤) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وابـن حبـان والحاكم(كلهم عن ابن مسعود) وقال السيوطي(في الجامع الصـغير) صحيح.

(١) من مقال بعنوان أبجديات لنجاح الدعوات نشر في مجلة لواء الإسلام عدد غرة صفر١٤١٠ هـ الموافق١٥ سبتمبر١٩٨٩ م.

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(١) من حديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد كلهم عـن أبي هريرة.

(١) رواه مسلم والترمذي والدارمي وأحمد.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي.

(١) رواه أحمد والترمذي وابن حبان.(٢) رواه أحمد والحاكم.

(٣) رواه أبو داود.(٤) رواه مسلم.

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.(٢) رواه البيهقي.

(١) تفسير الشعراوي جـ١ ص٨١٤: ص٨١٥.

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسـن صـحيح، وابـن ماجـة والحاكم، صححه، ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري عن ابن عمر، ورواه مسلم عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة- رضي اا عنـه-.(٤) متفـق عليه.

(١) رواه النسائي والترمذي وقال حسن صحيح.

(٦) الصـــدق

فضيلة الصدق:

١- الصدق من صفات النبوة:

يقول تعالي: ﴿ واذْكُر فِي الْكِتَابِ إِبراهِيم إِنه كان صِديقًا نبِيا ﴾ [مريم:٤١]

ويقول تعالي: ﴿ واذْكُر فِي الْكِتَابِ إِسماعِيلَ إِنه كان صادِقَ الْوعدِ وكَان رسولاً نبِيا ﴾ [مريم:٥٤].

ويقول تعالي: ﴿ واذْكُر فِي الْكِتَابِ إِدرِيس إِنه كان صِديقًا نبِيا ﴾ [مريم:٥٦]

٢- الصدق في القول يؤدي إلي الصدق في العمل والصلاح في الأحوال:

يقول االله تعالي: ﴿ يا أَيها الَّذِين آمنُوا اتقُوا االلهَ وقُولُوا قَولاً سدِيدا * يصلِح لَكُم أَعمالَكُم ويغْفِر لَكُم ذُنُوبكُم ومن يطِعِ االلهَ ورسولَه فَقَد فَاز فَوزا عظِيما ﴾

[الأحزاب:٧١،٧٠].

٣- الصدق يهدي الإنسان إلي البر والخير:

يقولصلى ا   عليه وسلم: عليكم بالصدق فإن الصـدق يهدي إلي البر، والبر يهدي إلي الجنة وما يـزال الرجـل يصدق ويتحري الصدق حتي يكتب عند اا   صديقا(١).

والبر الذي يهدي إليه الصدق هو الذي بينه اا - عـز وجل- في قوله تعالي:

﴿ لَيس الْبِر َأن تُولـوا وجـوهكُم قِبـلَ الْمشْـرِقِ والْمغْرِبِ ولَكِن الْبِر من آمن بِا ِ والْيومِ الآَخِرِ والْملاَئِكَـةِ والْكِتَابِ والنبِيين وآتَى الْمالَ علَى حبهِ ذَوِي الْقُربى والْيتَامى والْمساكِين وابن السبِيلِ والسائِلِين وفِي الرقَابِ وَأقَام الصلاَةَ وآتَى الزكَاةَ والْموفُون بِعهدِهِم ِإذَا عاهدوا والصابِرِين فِـي الْبْأساءِ والضراءِ وحِين الْبْأسِ ُأولَئِك الذِين صدقُوا وُأولَئِـك هم الْمتقُون ﴾   [البقرة:١٧٧].

٤- الصدق فيه النجاة:

يقول اا   تعالي:{ قال بله هذا يوم ينفع بصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضـي بله عنهما   رضوا عنه ذلك بفوز بعظيم}[المـائدة:١١٩].

أي أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة.

وفي الحديث: تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيـه، فإن فيه النجاة(١).

٥- الصدق فيه الربح والفوز:

يقول ابن عباس- رضي الله عنهما-: أربع من كن فيه ربح: الصدق، والحياء وحسن الخلق، والشكر.

وعن عبد الله بـن عمـر- رضـي الله عنهمـا- أن النبيصلى الله عليه وسلم قال: أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقـة، وعفة في طعمة(٢).

\ حقيقة الصدق ومراتبه:

لفظ الصدق يستعمل في عدة معان: صدق فـي القـول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصـدق فـي الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في مقامات الدين.

أولا: الصدق في القول: ويعني الإخبار بحقيقة الأمـور، ويدخل فيه الوفاء بالوعد والعهد، ويجب علـي المسـلم أن يتجنب الإكثار من المعاريض فإنها ذريعة إلي الكذب.

ثانيا: الصدق في النية والإرادة: ويتحقق ذلك بألا يقصد العبد من عمله إلا الله - عز وجل-، فإن مازج ذلك شي من حظوظ النفس بطل ادعاء الصدق.

ثالثا: الصدق في العزم والوفاء به: وذلك كأن يقول العبد إن رزقني الله مالا لأتصدقن ولأكونن من الصالحين، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صـادقة، وقد يكون في عزمه ضعف وتردد يضاد الصدق في الوفاء بالعزم والإخلاص في الوفاء به.

فقد روي أنس بن مالك قال: غاب عمي أنس بن النضير عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين!! لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشـركين ليرين ما أصنع!!! فلما كان يوم أحد انكشـف المسـلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك ممـا صـنع هـؤلاء- يعنـي أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء- يعني المشركين- ثم تقدم.. فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد ابن معاذ: الجنـة ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد!! قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، ثم تقدم.

قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين مـا بـين ضـربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم، ووجدناه وقد مثل بـه المشركون، فما عرفه إلا أخته، بشامة فيه، أو ببنانه.

قال أنس: كنا نري أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه:{ من بمؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا بله عليه فمـنهم مـن قضي' نحبها منهم مـن ينتظـرا مـا بـدلوا تبـديلا}[الأحزاب:٢٣].

وروي الإمام مسلم عن سهل بن حنيـف- رضـي اا عنه- أن النبي-صلى ا عليه وسلم- قال: مـن سـأل اا تعالي الشهادة بصدق بلغه اا منازل الشهداء وإن مات علي فراشه.

رابعا: الصدق في الأعمال: وذلك بأن تستوي سـريرة العبد وعلانيته.

خامسا: الصدق في مقامات الدين: وذلك كالصدق فـي الخوف والرجاء، والتوكل.

صدق الدعاة إلي اا

إذا كان الصدق فضيلة من الفضائل التي يتصـف بهـا المسلم عموما، فإنه في حق الدعاة إلي اا عز وجل آكـد،

لأن الدعوة تحتاج إلي أناس صادقين يحملونها ويبلغونها إلي الناس، أو يورثونها للأجيال اللاحقة، وأدني درجات صـدق الدعاة إلي الله - عز وجل- صـدق الأعمـال، وذلـك لأن الصدق في القول حتما ولابد أن يكون موجودا في الداعية، فهذا أمر بديهي، وإلا!!!

والمقصود بصدقهم في الأعمال أن يكونوا أول من يأتمر بالأمر، وأول من ينتهي عن النهي، يقول الله تعالي:{ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون* كبر مقتا عنـد الله أن تقولوا ما لا تفعلون}[الصف:٢،٣].

يقول عبد الواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به؛ وإذا نهي عن شيء كـان مـن أتـرك الناس له. ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه.

وهناك درجة أعلي من ذلك وهي درجة الوفاء بالبيعـة(العهد) مع الله عز وجل يقول الله تعالي:{ إنمـا المؤمنـون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون}[الحجرات:١٥].

ويقول تعالي:{ للفقراء بمهاجرين بـ ذين أخرجـوا مـن ديارهما أموالهم يبتغون فضلا مـن بلـها رضـوانا ا ينصرون بلها رسوله أولئك هم بصادقون}.
[الحشر:٨]

ومن هؤلاء الدعاة الذين وفـوا ببيعـتهما ورسـوله: مصعب بن عمير؛ مصعب هذا الذي كان مثلا للشباب الذي يعيش حياة الترف والرفاهية؛ فيلبس أفضل الثياب، ويأكـل أحسن الأطعمة، ويتعطر بأغلي الروائح!! ثم إذا به يتـرك كل هذا مضحيا في سبيل اا - وفاء بعهده مـع اا عـز وجل- يرسله رسول اا -صلى ا عليه وسلم- سفيرا إلي يثرب ليقوم بنشر الدعوة هناك، فأدي مهمته علي خير وجه، وتمضي الأيام ويهاجر الرسول-صلى ا عليه وسلم- إلـي المدينه؛ وتكون غزوة بدر، ثم تكون غـزوة أحـد فاختـار الرسول-صلى ا عليه وسلم- مصعب لحمل الرايـة، ثـم احتدم القتال وخالف الرماة أمر الرسول، فكان ما كان مـن المحنة للمسلمين، فانتشرت الفوضي وعم الـذعر صـفوف المسلمين، وركز المشركين علي رسول اا -صلى ا عليه وسلم- لينالوه. وأدرك مصعب الخطر فأخذ يصول ويجـول

محاولا لفت أنظار المشركين إليـه لينصرفـ ـ ـ ـوا عـن رسـ ـ ـول اا -صلى ا عليه وسـلم-، فصـار يحمـل الراية بيد ويحمل السيف باليـ ـ ـ ـ ـد الأخـري، ولكـن الأعداء أرادوا أن يقتلوه ليعبروا علي جثته إلي رسول اا - صلى ا عليه وسلم-.

يقول ابن سعد:(حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فلما جال المسلمون ثبت به مصعب فأقبل ابن قميئـة وهـو فارس، فضربه علي يده اليمني فقطعها، ومصـعب يقـول: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأخذ اللـواء بيده اليسري وحنا عليه، فضرب يده اليسري فقطعها، فحنـا علي اللواء وضمه بعضديه إلي صدره وهو يقـول: ومـا محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأخذه واندق الرمح، ووقع مصعب، وسقط اللـواء) يقول الأستاذ خالد محمد خالد فـي كتـاب رجـال حـول الرسول.

وبعد انتهاء المعركة المريرة: وجد جثمان الشهيد الرشيد راقدا، وقد أخفي وجهه في تراب الأرض المضمخ بدمائـه الذكية- لكأنما خاف أن يبصر وهو جثة هامدة رسـول اا

يصيبه السوء، فأخفي وجهه حتي لا يري هذا الذي يحـاذره ويخشاه...!!

أو لكأنه خجلان إذ سقط شهيدا قبل أن يطمئن علي نجاة رسول الله ، وقبل أن يؤدي إلي النهايـة واجـب حمايتـه والدفاع عنه!!

لك الله يا مصعب.. يا من ذكرك عطر للحياة.

ثم يقول- رحمه الله - وقف الرسول-صـلى الله عليـه وسلم ـ عند مصعب بن عميـر وقـال- وعينـاه تلفانـه بضيائهما وحنانهما ووفائهما-: من المؤمنين رجال صـدقوا ما عاهدوا الله عليه ثم ألقي في أسي نظرة علي بردته التي كفن فيها وقال لقد رأيتك بمكة، وما بها أرق حلة، ولا أحسن لمـة منك ثم هأنتذا شعث الرأس في بردة ؟!

وهتف الرسول عليه السلام وقد وسعت نظراته الحانيـة أرض المعركة بكل من عليها من رفاق مصعب وقال: يـا أيها الناس زوروهم وأتوهم، وسلموا عليهم، فوالذي نفسـي بيده، لا يسلم عليهم مسلم إلي يوم القيامـة إلا ردوا عليـه السلام السلام عليك يا مصـعب.. السـلام علـيكم معشـر الشهداء.

(٧) الأمانـة

مفهوم الأمانة: الأمانة هي كل ما ائتمن الله عز وجـل الإنسان عليه، من أمر ونهي لإصلاح الدنيا والآخرة.

أي أن دين الله كله أمانة ائتمن الله عليها الأمة.

يقول الله تعالي:{ إنا عرضنا الأمانة علي السـموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملهـا الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}.

[الأحزاب:٧٢]

يقول القرطبي- رحمه الله -: والأمانة تعم جميع وظائف الدين علي الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور.

ويقول الله تعالي:{ إن الله يأمركم أن تـؤدوا الأمانـات إلي' أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن اللـه نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا}[النساء:٥٨].

يقول صاحب الظلال- رحمه الله -:(هذه هي تكـاليف الجماعة المسلمة؛ وهذا هو خلقها: أداء الأمانات إلي أهلها، والحكم بين النـاس بالعـدل. علـي مـنهج الله وتعليمـه. والأمانات تبدأ من الأمانة الكبري.. الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان؛ والتي أبت السماوات والأرض والجبـال أن

يحملنها وأشفقن منها، وحملهـا الإنسـان. أمانـة الهدايـة والمعرفة والإيمان باا   عن قصد وإرادة وجهد واتجاه. فهذه أمانة الفطرة الإنسانية خاصة. فكل ما عدا الإنسـان ألهمـه ربه الإيمان به، والاهتداء إليه ومعرفته، وعبادته، وطاعته، وألزمه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا اتجاه. والإنسان وحده هو الذي وكل إلي فطرته، وإلي عقله وإلي معرفته، وإلي إرادته، وإلي جهده الذي يبذله للوصول إلي اا ، بعون من اا   والذين جاهدوا فينا لنهـدينهم سـبلنا وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديهـا أول مـا يـؤدي مـن الأمانات. ومن هذه الأمانات: أمانة التعامل مع الناس، أمانة المعاملات والودائع المـ ـادية، وأمانة النصـيحة للراعـي وللرعية، وأمانة القيام علـي الأطفـال الناشـئة، وأمانـة المحافظة علي حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها.. وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف فـي كـل مجال الحياة علي وجه الإجمال. فهذه من الأمانات التي يأمر اا   أن تؤدي؛ ويجملها النص هذا الإجمال).... انتهي.

ويقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه اا - في كتاب خلق المسلم: والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، وهي ترمز

إلي معان شتي، مناطها جميعا شعور المرء بتبعته في كـل أمر يوكل إليه وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربـه، علي النحو الذي فصله الحديث الكريم: كلكـم راع وكلكـم مسئول عن رعيته فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة فـي بيـت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مـال سيده راع وهو مسئول عن رعيته(١).

\ من صور الأمانة:

١- الولايات والأعمال العامة أمانة:

فقد قال أبو ذر- رضي الله عنه- يـا رسـول الله : ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده علي منكبي ثم قال: يا أبا ذر: إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامـة إلا من أخذها بحقها وأدي الذي عليه فيها(٢).

وعلي هذا فكل عمل له مؤهلاته الخاصة به، ولا يكتفي بعنصر التقوي والورع لتولي مهام الأمة!! بـل لابـد مـن توافر شرطي القوة والأمانة، فشرط القوة يمثله المـؤهلات العلمية والبدنية، والعقلية التي تجيد الابتكار والإبداع، وحسن التخطيط والتنظيم، وشرط الأمانة يمثلـه الجانـب الخلقـي

الخاص بتقوي اا - عز وجل- ومن هنا فأبو ذر- رضـي اا عنه- افتقد شرط القوة، فلم يعد صالحا لأن يسـتعمله- رسول اا صلى ا عليه وسلم-.

يقول اا تعالي علي لسان ابنة شعيب:{ يا أبت\ ستأجره إن خير من\ ستأجرت بقوي الأمين}[القصص:٢٦].(تقصد موسي عليه السلام).

ويقول صلى ا عليه وسلم: من استعمل رجـلا علـي عصابة وفيهم من هو أرضي ا منه فقد خان اا ورسـوله والمؤمنين(١).

ويقول: من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة اا ، لا يقبل منه صرفا ولا عـدلا حتـي يدخله جهنم(٢).

بل إن الرسول صلى ا عليه وسلم يعتبر إسناد الأمـور لغير المؤهلين لها تضييعا للأمانة ينذر بقيام السـاعة، فقـد جاء رجل يسأل رسول اا -صلى ا عليه وسلم- متي تقوم السـاعة؟ فقال له: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة! فقال: وكيف إضاعتها ؟! قال: إذا وسد الأمر لغير أهلـه فـانتظر الساعة(٣).

٢- الرعية أمانة: فكما ذكرنا في الحديث فالإمـام راع وهو مسئول عن رعيته فالراعي الأمين علي رعيتـه هـو الذي يخيف رعيته في الله، ويخاف الله في رعيته؛ يأخـذ بأيديهم لتقوي الله، ويتقي الله فيهم؛ يذكرهم بالله، ويـذكر الله فيهم؛ يشعرهم برقابة الله، ويراقب الله فيهم؛ يـأمرهم بالمعروف، ويأتمر به فيهم؛ وينهاهم عن المنكر وينتهي عن المنكر فيهم؛ ويقيم العدل فيهم، ويكون علي وجل من الله - عز وجل-.

يقول عبـد الرحمن بن عوف: قـدمت رفقـة مـن التجـار نزلـوا المصـلي فقال لي عمر: هـل لـك أن تحرسهم الليـلة ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان مـا كتـب الله لهما.

فسمع عمر بكاء صبي، فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلي الصبي ثم عاد إلي مكانه فسمع بكاءه، فعاد إلي أمه، فقال: اتقي الله وأحسني إلي صبيك، ثم عاد إلي مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتي أمه، فقال: ويحك لأراك أم سوء، مالي أري ابنك لا يقر منذ الليلة ؟!

قالت: يا عبد اا   قد أبرمني منذ الليلة(أي أضـجرني) إنني أريغه(أحوله) عن الفطام فيأبي.

قال عمر: ولم ؟ قالت لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم.

قال: وكم له ؟ قالت: كذا وكذا شهرا. قـال: ويحـك لا تعجليه؛ فصلي الفجر وما يستبين الناس قراءته مـن غلبـة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤساه لعمر، كـم قتـل مـن أولاد المسلمين ؟! ثم أمر مناديا فنادي: أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب بذلك إلـي الأفاق(١).

٣- الحديث أمانة: فالحديث الذي يدور بين الأصـحاب والجيران هو أمانة، فيجب عدم إفشاء ما قيل في المجلـس من أسرار، ويجب عدم تحريف أو تغيير الكلام ليفيد معنـي غير الذي قيل، فإن في هذا خيانة للأمانة.

ففي الحديث إذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهـو أمانة(٢).

أما ما كان فيه من التعاون علي الإثم والعدوان فيكـون من الأمانة إفشاء هذه الأسرار وذلك من باب تغيير المنكـر والتعاون علي البر والتقوي، وفي الحديث: المجلس بالأمانة

إلا ثلاثة مجالس: مجلس سفك دم حرام، أو فرج حـرام، أو اقتطاع مال بغير حق(٣).

٤- الأسرار الزوجية أمانة: كثير من الناس يري أن من علامات الفحولة والرجولة أن يتحدث أمام الناس عما يدور بينه وبين أهله من المعاشرة الجنسية!! فتراه يجلـس بـين رفاقه فيخوض في الحديث عن التفاصيل الدقيقة للمعاشـرة الجنسية مع أهله!!

فعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله -صـلى الله عليه وسلم- والرجال والنساء قعدوا عنده، فقـال: لعـل رجلا يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مـع زوجها ؟ فأزم القوم- سكتوا وجلين- فقالـت: أي والله يـا رسول الله . إنهم ليفعلون، وإنهن ليفعلن!! قال: فلا تفعلـوا، فإنما مثل ذلك شـيطان لقـي شـيطانة فغشـيها والنـاس ينظرون(١).

ويقولصلى الله عليه وسلم: إن من أعظم الأمانـة عنـد الله يوم القيامة: الرجل يفضي إلي امرأته وتفضي إليه ثـم ينشر سرها(٢).

٥- الجوارح أمانة: استودع الله - عز وجل- الجوارح وائتمن الإنسان عليها وأمره أن يؤدي أمانتها، فمن استعملها فيما أمر الله - تعالي- به وكفها عما ينهي الله عنه فقد أدي الأمانة فيها، ولكن من بارز الله بالمعاصي، وجعل من جوارحه أدوات لمحاربة الله بالمعاصي، فقد خان هذه الأمانة وضيعها.

قال القرطبي- رحمه الله -: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله تعالي من الإنسان فرجه؛ وقال هذه أمانة استودعتكها، فلا تلبسها إلا بحق، فإن حفظتها حفظتك، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له.

٦- أداء الحقوق أمانة: لا شك أن الله - عز وجل- أوجب علي الإنسان حقوقا لنفسه، وحقوقا لأهله، وحقوقا لوالديه، وحقوقا لجيرانه، وحقوقا لأرحامه، وترك أي حق من هذه الحقوق هو خيانة لهذه الأمانة.

٧- الغلول خيانة للأمانة: كثير من الناس يعمل العمل ويتقاضي عليه أجرا معينا ثم إذا به يذهب ليجمع المال

من الطرق الملتوية، فتارة يفرض إتاوات علي الناس ليبتـز أموالهم، وتارة يمد يده إلي الأموال العامة التي تحت يـده، وتارة يوجد موارد وهمية لينهب الأموال تحت ستارها!!

وهؤلاء جميعا خائنون للأمانة، فيقـول الله - تعـالي- فيهم:{ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}

[آل عمران:١٦١]

وروي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: مـن استعملناه علي عمل فرزقناه رزقا، فما أخذ بعد ذلـك فهـو غلول(١).

ولكن تاريخ الإسلام حافل بالنماذج الـمشرفة، التـي تربت علي العفة والقناعة، ومن هذه النماذج: عامر بن عبد الله التميمي الذي كان أحد جنود المسلمين في القادسية مـع سعد بن أبي وقاص، وبعـد انتهـاء المعركـة- بانتصـار المسلمين علي الفرس- أمر سعد بجمع الغنـائم لإحصـائها وليرسل خمسها إلي بيت مال المسلمين، ويقسم باقيها علـي المجاهدين، فاجتمع بين يديه من الأموال والنفائس ما يفـوق الوصف، وبينما كان العمال يحصون هذه الغنائم أقبل علـي

القوم رجل أشعث أغبر، ومعه حق كبير الحجم ثقيل الوزن حمله بيديه كلتيهما. فتأملوه فإذا هو حق لم تقع عيونهم علي مثله قط، ولا وجدوا فيما جمعوه شيئا يعدلـه أو يقاربـه.. فنظروا في داخله فإذا هو مملوء بروائع الدرر والجواهر.. فقالوا للرجل: أين أصبت هذا الكنز الثمين ؟ فقال: غنمته في معركة كذا.. في مكان كذا. فقالوا: وهل أخذت منه شـيئا ؟ فقال: هداكم الله ! والله إن هذا الحق، وجميع ما ملكته ملوك فارس لا يعدل عندي قلامة ظفر، ولولا حـق بيـت مـال المسلمين فيه ما رفعته من أرضه!! ولا أتيتكم به. فقـالوا: من أنت أكرمك الله ؟! فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا أخبر غيركم ليقرظوني(يثنوا علي) ولكنـي أحمـد الله تعالي وأرجو ثوابه. ثم تركهم ومضي فأمروا رجلا منهم أن يتبعه، وأن يأتيهم بخبره. فما زال الرجل يمضـي وراءه- وهو لا يعلم به- حتي بلغ أصحابه فلما سألهم عنه قالوا: ألا تعرفه ؟! إنه زاهد البصرة.. عامر بن عبد الله التميمي(١).

ولكن هذه الأمانة، وهذه العفة، وهذا الاحتقار لزخـارف الدنيا لا يمكن أن يأتي كل هذا من فراغ. بل جاء كل ذلـك نتيجة طبيعية للمجاهدة، والطاعة؛ يقول أحد أبناء البصـرة:

سافرت في قافلة فيها عامر بن عبد اا ، فلما أقبـل الليـل نزلنا بغيضة(مجتمع الشجر في مغيض المـ ـ ـاء) فجمـع عامر متاعه، وربط فرسه بشجرة، وطول زمامه، وجمع له من حشائش الأرض ما يشبعه وطرحه أمامـه ثـم دخـل الغيضة وأوغل فيها(أبعد فيها وتواري) فقلت فـي نفسـي: واا لأتبعنه، ولأنظرن ما يصنع في أعماغق الغيضة فـي هذه الليلة. فمضي حتي انتهي إلي رابيـة ملتفـة الشـجر، مستورة عن الأعين.. فاسـتقبل القبلـة، وانتصـب قائمـا يصلي.. فما رأيت أحسن من صلاته ولا أكمل ولا أخشع.. فلما صلي ما شاء اا لـه أن يصـلي، طفـق يـدعو اا ويناجيه، فكان مما قال: إلهي: لقد خلقتني بأمرك، وأقمتنـي في بلايا هذه الدنيا بمشيئتك، ثم قلت لي استمسك.. فكيـف استمسك إن لم تمسكني بلطفك يا قوي يا متين ؟ إلهي: إنك تعلم أنه لو كانت لي هذه الدنيا بما فيها ثـم طلبـت منـي مرضاة لك لوهبتها لطالبها.. فهب لـي نفسـي يـا أرحـم الراحمين.. إلهي: إني أحببتك حبا سهل علي كـل مصـيبة ورضاني بكل قضاء.. فما أبالي مع حبي لك ما أصـبحت عليه، وما أمسيت فيه. قال الرجل البصـري: ثـم غلبنـي

النعاس فأسلمت جفني إلي الكري(النوم) ثم ما زلـت أنـام وأستيقظ، وعامر منتصب في موقفه مـاض فـي صـلاته ومناجاته حتي تنفس الصبح، فلما بدا له الفجر أدي المكتوبة(الفريضة) ثم أقبل يدعو فقال: اللهم ها قـد أصـبح وطفـق الناس يغدون ويروحون يبتغون من فضلك.. وإن لكل منهم حاجة.. وإن حاجة عامر عندك أن تغفر له، اللهـم فـاقض حاجتي يا أكرم الأكرمين(٢).

٨- الودائع أمانة: وهذه الصورة من صور الأمانة هـي الصورة التي يري الناس فيها الأمانة أو الخيانـة، فمفهـوم الأمانة عند عامة الناس يقتصر علي رد الودائع إلي أهلهـا، وإن كان هذا المفهوم قاصرا، إلا أن هذه الأمانة بالفعل من أخطر الأمانات، وذلك لأن الـنفس تضـعف أمـام شـهوة المـال، وخصوصا إذا لم يكن لدي صاحب الوديعة مـا يثبت له حقه، فحينئذ يسيل لعاب الإنسان للمـال! فيعتبرهـا غنيمة، وفي الحديث القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلهـا إلا الأمانة. قال: يؤتي بالعبد يوم القيامة- وإن قتل في سبيل الله - فيقال: أد أمانتك! فيقول: أي رب: كيف وقد ذهبت ؟! فيقال: انطلقوا به إلي الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يـوم

دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتي يـدركها فيحملها علي منكبيه، حتي إذا ظن أنه خـارج زلـت عـن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قـال: الصـلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدها، وأشد ذلك الودائع(١).

***

بقاء التمكين مرهون بأداء الأمانة

اا - عز وجل- في تعامله مع الأمم له سنة لا تتبـدل ولا تتغير- هذه السنة قائمة علي بقاء التمكين والسيادة للأمة التي تقوم بأداء الأمانة، فلا تزال الأمة في عزة ومنعـة ولا تزال لها السيادة والقيادة في الأرض ما قامت بأداء الأمانـة التي كلفت بها، وهي نشر الرحمة والعدل بين الناس، رسالة تعبيد الناسا لا للبشر، رسالة نشر الرحمة والعـدل بـين الناس، رسالة التوحيد الخالصا بين البشر، فهذه الأمانـة العظيمة لا تؤديها إلا أمة تستحق التمكين لها فـي الأرض، تستحق أن تكون هي الأمة التي تحدد المعايير للناس؛ معايير العدل؛ معايير التعامل بين بني البشر؛ فإذا تخلت الأمة عن رسالتها كانت بذلك خائنة للأمانة، فلا تصلح أن تكون قائدة

للأمم، لأنها فقدت مؤهلاتها وفقدت روحها التي تحيا بهـا، وحينئذ يسلط الله عليها أعداءها فيذيقونها أشد العـذاب، لا تمكينا لأهل الكفر في الأرض، بل إذلالا لمضيعي الأمانـة. وفي الحديث إن هذا الأمر في قريش ماداموا إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قسموا أقسطوا، فمـن لـم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعـين لا يقبل منه صرف ولا عدل(١).

أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك:

المسلم دائما يعامل الناس بأخلاق الإسلام، لا بأخلاقهم.

فليس معني أن يخونني الناس أن أقابل الخيانة بالخيانة!!

لا.

والمسلم يتعامل بالإسلام وإن تعامل غيره بغير الإسلام، فتراه يصدق مع الكاذبين، ويكون أمينا مع الخائنين، ويصل القاطعين، ويحسن إلي الـمسيئين؛ هذه طبيعة المسلم وهـذا خلقه.

يقول تعالي:{ إِن اللّهَ لاَ يحِب من كَان خَوانًا أَثِيما }[النساء:١٠٧].

ويقول:{ إِن اللّهَ لاَ يحِب الْخَائِنِين }[الأنفال:٥٨].

ويقول:{ وَأَن ا َ لاَ يهدِي كَيد الْخَائِنِين :٥٢].

ويقول:{ إِن ا َ لاَ يحِب كُل خَوانٍ كَفُورٍ }[الحج:٣٨].

وبين اا تعالي أن رعاية الأمانة من الصفات الشخصية للمؤمن.

يقول تعالي:{ والذِين هم لأمانَاتِهم وعهدِهِم راعون }[المؤمنون:٩].

ويقول رسول اا صلى ا عليه وسلم: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له(٢).

ويقول ميمون بن مهران: ثلاثة يؤدين إلي البر والفاجر: الأمانة، والعهد، وصلة الرحم، أما الخيانة فهي من صفات المنافقين آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان(٣).

***

الدعاة وأداء الأمانة

الأمانة التي تحملها الدعاة إلي اا - تعالي- أمانة البيعة- البيعة مع اا - عز وجل- علي نصرة هذا الدين،

مبايعة الله - تعالي- علي التضحية بالغالي والنفـيس فـي سبيل نشر ونصر دعوة الله - عز وجل- إنها الأمانة التـي أعلن بها ربعي بن عامر لكسري حينما قال له: ابتعثنـا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده، ومـن جور الأديان إلي عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلي سـعة الدنيا والآخرة.

يقول صاحب الظلال- رحمه الله -: ومن هذه الأمانات: أمانة الشهادة لهذا الدين...الشهادة له في النفس أولا بمجاهدة النفس حتي تكون ترجمة له، ترجمة حيـة فـي شـعورها وسلوكها، حتي يري الناس صورة الإيمان في هذه الـنفس فيقولوا ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه؛ وهو يصـوغ نفوس أصحابه علي هذا المثال من الخلق والكمال! فتكـون هذه الشهادة لهذا الدين في النفس يتـأثر بهـا الآخـرون... والشهادة له بدعوة الناس إليه، وبيان فضله ومزيتـه- بعـد تمثل هذا الفضل وهذه المزية في نفس الداعية- فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك، وما يكون قد أدي أمانة الدعوة والتبليـغ والبيان وهي إحدي الأمانات... انتهي.

وليعلم الداعية أنه يقف علي ثغر من ثغور الإسلام فـلا يؤتي الإسلام من قبله. فقد يخون الداعية دعوته بأمور هـي في نظره دقيقة وهينة، ولكن خطرها علـي الـدعوة جـد خطير، فبكلمة واحدة يزلف بها اللسان ربما تجني الـدعوة بها ثمرة مرة!! يتجرع مرارتها الدعاة.

يقول تعالي:{ يا أَيها الذِين آمنُـوا لاَ تَخُونُـوا ا َ والرسولَ وتَخُونُوا أَمانَاتِكُم وأَنْتُم تَعلَمون * واعلَموا أَنما أَموالُكُم وأَولاَدكُم فِتْنَةٌ وأَن ا َ عِنْده أَجر عظِـيم }[الأنفال:٢٨،٢٧].

أخرج ابن جرير عن الزهري أن رسول اا صـلى ا عليه وسلم لمـ ـا حاصر يهود بني قريظة

الهوامش

(١) رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت عـن منصـور بـن المعتمر مرسلا، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير.

(٢) رواه الطبراني والحاكم وحسنه السيوطي في الجامع الصغير.

(١) رواه الحاكم عن ابن عباس وصححه السيوطي.

(٢) رواه الحاكم.(٣) رواه البخاري.

(١) من كتاب مواقف تاريخية حاسمة للأستاذ/أنور الجندي.

(٢) رواه أبو داود وأحمد والترمذي عن جابر وصححه السيوطي في الجامع الصغير.

(٣) رواه أبو داود عن جابر وحسـنه السـيوطي فـي الجـامع الصغير.

(١) رواه أحمد.(٢) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري.

(١) رواه أبو داود والحاكم وقال علي شرطهما وأقـره الـذهبي(أنظر فيض القدير).

(١) من كتاب صور من حياة التابعين للدكتور/عبد الرحمن رأفت الباشا- بتصرف.

(٢) نفس المصدر السابق.

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن مسعود موقوفا.

(١) رواه أحمد.(٢) رواه أحمد عن أنس بـن مالـك وصـححه السيوطي.

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

طلبـوا الصـلح فـأمرهم أن ينزلـوا علـي حكـم سـعد بن معـاذ، فقـالوا: أرسـل لنا أبا لبابة فبعثـه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقالوا: يا أبا لبابة مـا تري ؟ أننزل علي حكم سعد ؟ فأشار إلي حلقه يعنـي أنـه الذبح، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتي عرفت أني قد خنت الله ورسوله؛ فقـال: لا والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتي أموت، أو يتوب الله علـي فنزلـت الآية.

فاعتبر أبو لبابة إفشاءه لسر من أسـرار رسـول الله -صلى الله عليه وسلم- خيانةا لله ورسـوله، والأمـر كـذلك بالفعل.

***

(٨) التواضـع

التواضع ثمرة المعرفة بالله وبالنفس، فالعبد الذي يعرف ربه بأسمائه وصفاته، يعرف أن الله هو الجبـار المتكبـر ويستشعر ذلك جيدا، ويعرف نفسه أنه عبد ضعيف هزيل لا حول له ولا قوة، وما كان عنده من مال أو علم أو قوة، فكل

هذا فضل من الله - تعالي- عليه، يعرف ربه بأنه غني ويعرف نفسه بأنه فقير{ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلي الله والله هو الغني الحميد}[فاطر:١٥].

يعرف ربه بأنه عزيز قهار:{ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد}[فاطر:١٦]،{وهو القاهر فوق عباده}[الأنعام:١٨].

فإذا استشعر العبد كل هذه المعاني- فعرف ربه حق المعرفة وعرف نفسه حق المعرفة- وجد أنه ما من شيء من زينة الحياة الدنيا يؤهل الإنسان إلي أن يتكبر في الأرض، يقول الله تعالي:{ يا أَيها الناس إِنا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وجعلْنَاكُم شُعوبا وقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِن أَكْرمكُم عِنْد الله أَتْقَاكُم إِن الله عِلِيم خَبِير }.

[الحجرات:١٣]

والذي يدرك ذلك جيدا لابد وأن يتواضع، ويؤكد الله تبارك وتعالي هذا المعني في قوله تعالي:{ فَلاَ تُزكوا أَنْفُسكُم هو أَعلَم بِمنِ اتقَى }[النجم:٣٢].

ومعني الآية: أي لا تمدحوا أنفسكم وتنسبوا لها الكمال في الحسب أو النسب، أو العلم أو العقل أو أي معيار من

المعايير التي يتفاخر بها الناس، فالله - تعالي- هـو أعلـم بأهل التقوي التي هي المعيار الحقيقي للتفاضل بين النـاس. وقد يظن البعض أن التواضع وخفض الجناح للمؤمنين يقلل من شأنه، أو ينقص من قدره أمام الناس!

فيقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: مـا نقصـت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحدا لله إلا رفعه الله (١).

ويقول أيضا: إن الله أوحي إلي أن تواضـعوا حتـي لا يفخر أحد علي أحد ولا يبغي أحد علي أحد(١).

بل إن الرسول-صـلى الله عليـه وسـلم- يخبرنـا أن المتواضع الهين تحرم عليه النار، فيقـولصـلى الله عليـه وسلم: ألا أخبركم بمن يحرم علي النار ؟- أو تحرم عليـه النار- تحرم علي كل قريب هين لين سهل(٢).

روح التواضع: إذا تأصلت هذه المعاني فـي الإنسـان اكتسب صفة التواضع والتي يظهر أثرها علي الإنسان فـي صورة عدم تعصبه لرأيه، وعدم تسفيهه لغيره فيكون هدفـه الوصول إلي الحق، وإن كان الحق عند من هو أفقر منه، أو أصغر منه، أو أقل منه وجاهة.

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع ؟ فقال: يخضـع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله.

وقيل التواضع أن لا تري لنفسك قيمة، فمنه رأي لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

يقول الإمام ابن القيم- رحمه الله -: روح التواضـع أن يتواضع العبد لصولة الحق. بـأن يتلقـي سـلطان الحـق بالخضوع له والذل والانقياد، والدخول تحت رقـه، بحيـث يكون الحق متصرفا فيه تصرف المـالك في مملوكه، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع ولهذا فسر النبي-صلى الله عليه وسلم- الكبر بضده فقال الكبر بطر الحق وغمط الناس(٣).

فبطر الحق رده وجحده، والدفع فـي صـدره، كـدفع الصائل وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم، ومتي احتقرهم وازدراهم رفع حقوقهم وجحدها واستهان بها(٤)... انتهي.

من مظاهر تواضعه-صلى الله عليه وسلم-

ضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المثل الأعلي في التواضع ومن صور ذلك:

١- كانصلى ا   عليه وسلم إذا مر علي صبيان سـلم عليهم، فعن أنس رضي اا   عنه أنه مر علي صبيان فسـلم عليهم وقال: كان النبي-صلى ا   عليه وسلم- يفعله(١).

٢- ويقول أيضا: إنه كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي-صلى ا   عليه وسلم- فتنطلق به حيث شاءت(٢).

٣- كانصلى ا   عليه وسلم يساعد أهله فـي أعمـال المنزل، وكان يقوم ببعض الأعمال بنفسه يرقع ثوبه، وكان يخصف نعله.

فعن الأسود بن يزيد قال: سـئلت عائشـة رضـي اا عنها: ما كان النبي-صلى ا   عليه وسلم- يصنع في بيته ؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله يعني خدمـة أهلـه فـإذا حضرت الصلاة خرج إلي الصلاة(٣).

٤- كان يكره أن يقوم له الناس، يقول أبو أمامة: خرج علينا رسول اا -صلى ا   عليه وسلم- متوكئا علي عصا، فقمنا له فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظـم بعضـهم بعضا(٤).

وقال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلـس كمـا يجلس العبد(٥).

تواضع الدعاة إلي ا

١- تواضع الداعية في نفسه:

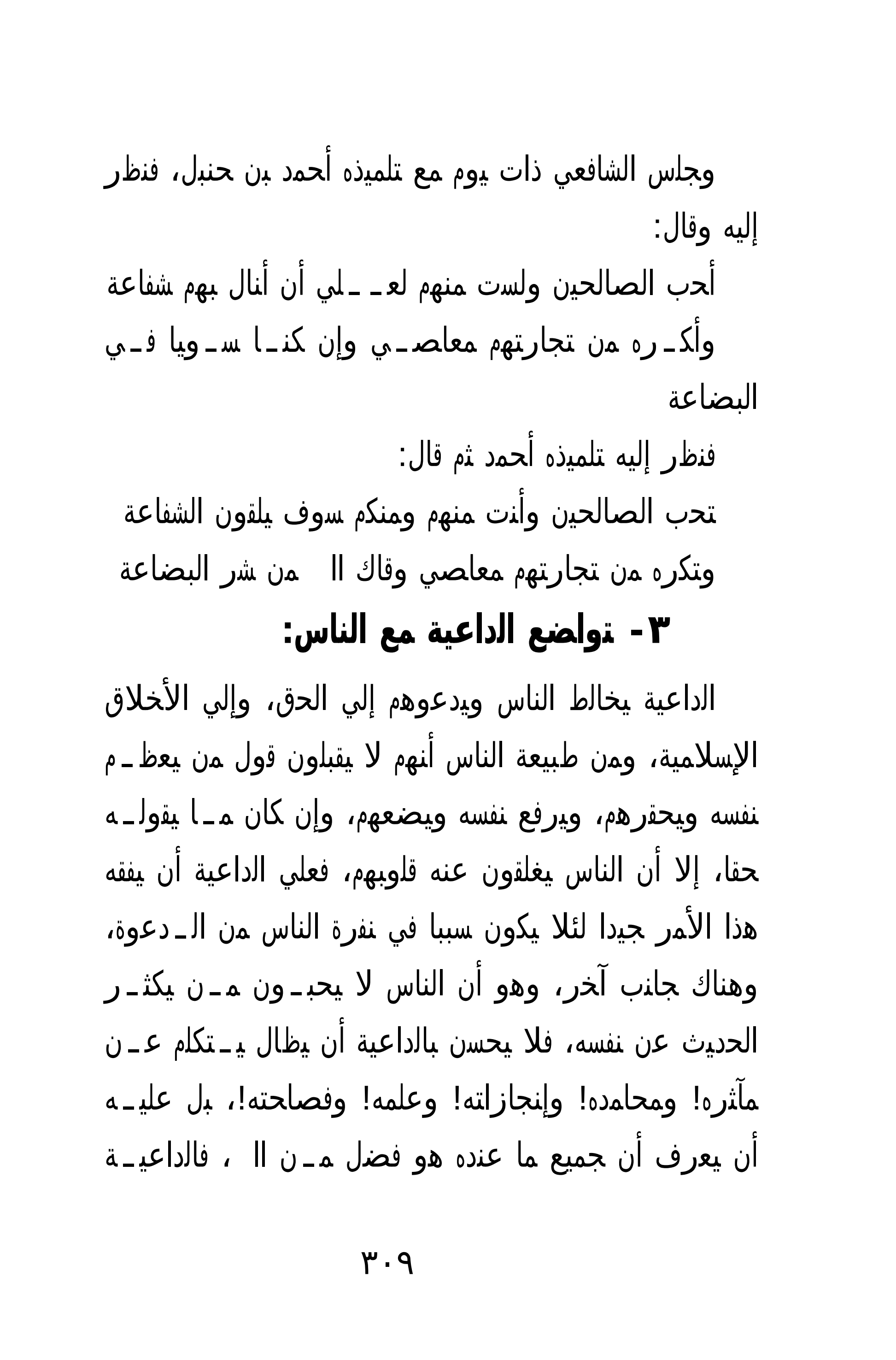
ويكون ذلك بألا يظن الداعية أنه أعلم من غيره، أو أتقي من غيره، أو أورع من غيره، أو أكثر خشية من غيـره، أو يظن أن هناك من هو شر منه، ولا يظن الداعية أنه قـد أخذ صكا بالغفران!! وآخر بدخول الجنة!!

لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، يقول اا تعـالي:{ واعلَموا أَن ا َ يحـولُ بـين الْمرءِ وقَلْبِهِ وأَنه إِلَيهِ تُحشَرون }

[الأنفال:٢٤]

يقول مالك بن دينار: لو أن مناديا ينادي بباب المسـجد ليخرج شركم رجلا واا ما كان أحد يسبقني إلي البـاب إلا رجلا بفضل قوة أو سعي.

وقال أبو زيد: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هـو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتي يكون متواضعا ؟ قـال: إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا.



وجلس الشافعي ذات يوم مع تلميذه أحمد بن حنبل، فنظر إليه وقال:

أحب الصالحين ولست منهم لعـلي أن أنال بهم شفاعة

وأكـره من تجارتهم معاصـي وإن كنـا سـويا فـي البضاعة

فنظر إليه تلميذه أحمد ثم قال:

تحب الصالحين وأنت منهم ومنكم سوف يلقون الشفاعة

وتكره من تجارتهم معاصي وقاك اا من شر البضاعة

٣- تواضع الداعية مع الناس:

الداعية يخالط الناس ويدعوهم إلي الحق، وإلي الأخلاق الإسلامية، ومن طبيعة الناس أنهم لا يقبلون قول من يعظـم نفسه ويحقرهم، ويرفع نفسه ويضعهم، وإن كان مـا يقولـه حقا، إلا أن الناس يغلقون عنه قلوبهم، فعلي الداعية أن يفقه هذا الأمر جيدا لئلا يكون سببا في نفرة الناس من الـدعوة، وهناك جانب آخر، وهو أن الناس لا يحبـون مـن يكثـر الحديث عن نفسه، فلا يحسن بالداعية أن يظال يـتكلم عـن مآثره! ومحامده! وإنجازاته! وعلمه! وفصاحته!، بل عليـه أن يعرف أن جميع ما عنده هو فضل مـن اا ، فالداعيـة

المتواضع هو ذلك الداعية الذي لا يعطي لنفسه حظـا فـي كلامه. ومن تواضع الداعية مع الناس أن يجالس كل طبقات المجتمع، ويكلم كلا بما يفهمه، يجالس الفقـراء ويـزورهم، ويجالس الأغنياء ويزورهم، وليعلم أن الفقير نفس، والغنـي نفس، وهداية هذه ليست أولي من هداية تلك.

يقول الله - تعالي-:{واصبِر نَفْسك مع الذِين يدعون ربهم بِالْغَداةِ والْعشِي يرِيدون وجهه ولاَ تَعد عينَـاك عنْهم تُرِيد زِينَةَ الْحياةِ الدنْيا ولاَ تُطِع من أَغْفَلْنَا قَلْبه عن ذِكْرِنَا واتبع هواه وكَان أَمره فُرطًا}[الكهف:٢٨].

يقول صاحب الظلال- رحمه الله -: اصبر نفسك مـع هؤلاء. صاحبهم وجالسهم، وعلمهم. ففيهم الخيـر، وعلـي مثلهم تقوم الدعوات. فالدعوات لا تقوم علي من يعتنقونهـا لأنها غالبة؛ ومن يعتنقونها ليقـودوا بهـا الأتبـاع؛ ومـن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع، وليتجروا بها فـي أسـواق الدعوات تشتري منهم وتباع! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلي الله خالصة له، لا تبغي جاها ولا متاعـا ولا انتفاعا، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه... انتهي.

٤- تواضع الداعية مع إخوانه الدعاة:

أما عن تواضع الداعية مع إخوانه الدعاة إلي الله ، فذلك يكون بخفض الجناح لهم، وقبول النصيحة منهم، والأدب في إسداء النصيحة لهم. وألا يظن الداعية أنه أفضل من أحدهم ولا أعلم، ولا أتقي، ولا أحق بأمر من أحدهم، لأن هذه كلها مداخل يدخل منها الشيطان إلي قلوب الـدعاة. يقـول الله تعالي:{ يا أيها بذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسـوف يأتي بله بقوم يحبهما يحبونه أذلة علي بمؤمنين أعزة علي بكافرين يجاهدون في سبيل بلها لا يخافون لومة لائم ذلك فضـل بلـه يؤتيـه مـن يشـاءا ا ا اسـع علـيم}[المـ ـائدة:٥٤].

وتوضح الآية صفات جند الله الذين يدخرهم ليسـتبدلهم بأولئك الذين ارتدوا عن الدين- ارتدادا كليا أو جزئيا- ومن صفات هؤلاء الجند أنهم أذلة علي المؤمنين أي أنهـم فيمـا بينهم، اللين والرقة، وخفض الجناح.

يقول الشهيد سيد قطب- رحمه الله - في قوله أذلة علي المؤمنين وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللـين، فالمؤمن ذلول للمؤمن، غير عصي عليه ولا صعب، هـين

لين، ميسر مستجيب، سمح ودود، وهذه هي الذلة للمؤمنين، وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ومهانة، إنما هي الأخـوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكاف، وتخاط النفس بالنفس، فـلا يبقي فيها ما يستعصـي ومـا يحتجـز دون الآخـرين. إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هـي التـي تجعلـه شموسا عصيا شحيحا علي أخيه. فأما حـين يخلـط نفسـه بنفوس العصبة المؤمنة معه، فلن يجد فيها ما يمنعـه ومـا يستعصي به، وماذا يبقي له في نفسه دونهم، وقد اجتمعـوا في الله إخوانا؛ يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب العلـوي بينهم ويتقاسمونه ؟! انتهي.

٥- تواضع الداعية كجندي في حقل الدعوة:

يتحقق معني التواضع في الأفراد بطـاعتهم لمسـئوليهم ومن يتولي تعليمهم وتربيتهم، طاعة عن حب وتبصره، دون غضاضة في النفس أو تلبيسات من إبليس- لعنه الله - كأن يقول له: هذا الأمير أصغر منك سنا! أو أقل منك علمـا! أو أقل منك كفاءة! أو أقل منك خبرة! أو أحدث منـك لحاقـا بالدعوة! وليتذكر الداعية أن الرسـول ـصـلى الله عليـه وسلم- أعطي قيادة الجيش لأسامة بن زيد وكان سنه لم يبلغ

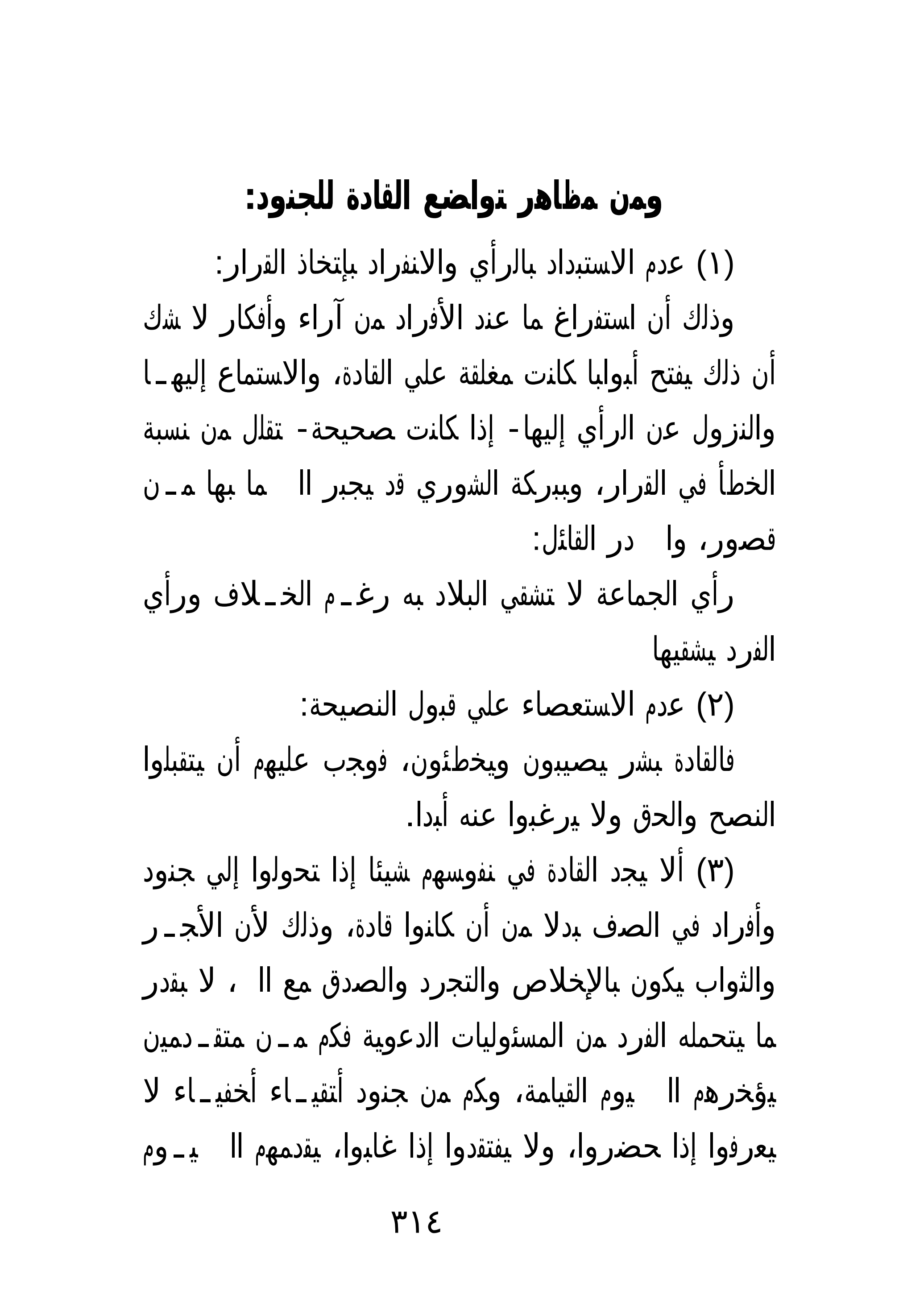
السابعة عشرة، وكان في الجيش من هم أكبر وأعلم وأفقـه، وأقدم من أسامة كأمثال أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- فهل وجد أبو بكر أو عمر غضاضة في ذلـك؟! والداعيـة الفقيه هو الذي يزداد تواضعا كلما وفق في أعماله الدعوية، وأضاف للدعوة أنصارا جددا.

٦- تواضع الداعية كقائد:

القائد الناجح هو الذي يخفض جناحه للأفراد الذين هـم تحته، لأنه كلما تواضع لهم وخفض لهم جناحه كان أقـرب إلي نفوسهم، وكان أمره لهم محببا إليهم، فهم يطيعونه عـن حب وإخلاص.

يقول الله تعالي:{ واخْفِض جنَاحك لِمن اتبعك مِـن الْمؤْمِنين }

[الشعراء:٢١٥]



ومن مظاهر تواضع القادة للجنود:

(١) عدم الاستبداد بالرأي والانفراد بإتخاذ القرار:

وذلك أن استفراغ ما عند الأفراد من آراء وأفكار لا شك أن ذلك يفتح أبوابا كانت مغلقة علي القادة، والاستماع إليهـا والنزول عن الرأي إليها- إذا كانت صحيحة- تقلل من نسبة الخطأ في القرار، وببركة الشوري قد يجبر اا ما بها مـن قصور، وا در القائل:

رأي الجماعة لا تشقي البلاد به رغـم الخـلاف ورأي الفرد يشقيها

(٢) عدم الاستعصاء علي قبول النصيحة:

فالقادة بشر يصيبون ويخطئون، فوجب عليهم أن يتقبلوا النصح والحق ولا يرغبوا عنه أبدا.

(٣) ألا يجد القادة في نفوسهم شيئا إذا تحولوا إلي جنود وأفراد في الصف بدلا من أن كانوا قادة، وذلك لأن الأجـر والثواب يكون بالإخلاص والتجرد والصدق مع اا ، لا بقدر ما يتحمله الفرد من المسئوليات الدعوية فكم مـن متقـدمين يؤخرهم اا يوم القيامة، وكم من جنود أتقيـاء أخفيـاء لا يعرفوا إذا حضروا، ولا يفتقدوا إذا غابوا، يقدمهم اا يـوم

القيامة. وقد حدث موقف مع خالد بن الوليـد- رضـي اا عنه- يكشف لنا كيف أن الفرد المخلص المتجرد لا يشـغله أن يكون في أول الصف أو وسطه أو آخره، لا يشـغله أن يكون قائدا مسئولا أو فردا مأمورا.

فكما قال الفضيل بن عياض من أحب الرياسة لم يفلـح أبدا.

ذلك الموقف حدث له وهو في أوج انتصـاراته علـي الروم في اليرموك، وأترك الأستاذ/خالد محمد خالد- رحمه اا - ليقص لنا ما حدث:

فها نحن أولاء نواجه العظمة الإنسانية في مشـهد مـن أبهي مشاهدها.. إذ كان خالد يقود جيش المسلمين في هـذه المعركة الضارية(اليرموك) ويستل النصر من بين أنيـاب الروم استلالا فذا، بقدر ما هو مضن ورهيب- وإذا به يفاجأ بالبريد القادم من المدينة يحمل كتاب الخليفة الجديد- أميـر المؤمنين عمر بن الخطاب وفيه تحيـة الفـاروق للجـيش المسلم، ونعيه خليفة رسول اا صلى ا عليه وسلم أبا بكر الصديق- رضي اا عنه-، ثم أمره بتنحية خالد عن القيادة وتولية أبي عبيدة ابن الجراح مكانه.. قـرأ خالـد الكتـاب

وهمهم بابتهالات الترحم علي أبي بكر والتوفيق لعمر!! ثـم طلب من حامل الكتاب ألا يبوح لأحد بما فيه وألزمه مكانـا أمره ألا يغادره وألا يتصل بأحد.. استأنف قيادته للمعركـة مخفيا موت أبي بكر وأوامر عمر حتي يتحقق النصر الذي بات وشيكا وقريبا.. ودقت ساعة الظفر وانـدحر الـروم.. وتقدم البطل من أبي عبيدة مؤديا إليه تحية الجندي لقائـده.. وظنها أبو عبيدة في أول الأمر دعابة من دعابات القائد الذي حقق نصرا لم يكن في الحسبان.. بيد أن ما فتيء أن رآهـا حقيقة وجدا فقبل خالدا بين عينيه وراح يطري عظمة نفسه وسجاياه(١).

***

(٩) الوفـ ـ ـاء

يقول الله تعالي:{ يا أَيها الذِين آمنُوا أَوفُوا بِـالْعقُودِ }[المـ ـائدة:١] والعقود هي العهود والمواثيق التي أبرمها الإنسان مع ربه، أو مع الناس، فأما عن العهود التي أبرمها الإنسان مع الله - عز وجل- أو أخذها الله علي بنـي آدم، فيجب الوفاء بها جميعا، أما العهود التي أبرمها الإنسان مع

الناس: فيكون مناط الوفاء بها أن تتعلق بالحق والخيـر وإلا فلا عهد في عصيان ولا يمين في إثم.

ومن العقود(أو العهود) التي أخذها االله علي بني آدم:

١- العهد الأعظم: وهو العهد الذي أخذه االله علي بنـي آدم وهم في عالم الذر، إذ أقرهم علـي أنفسـهم بربوبيتـه وتوحيده فأمروا بذلك واعترفوا ومن ثم فقد التزمـوا هـذا الميثاق الأعظم، يقول االله تعالي:{وَإِذْ أَخَذَ ربك مِن بنِـي آدم مِن ظُهورِهِم ذُريتَهم وأَشْهدهم علَى أَنْفُسِهم أَلَستُ بِربكُم قَالُوا بلَى شَهدنَا أَن تَقُولُوا يوم الْقِيامةِ إِنا كُنـا عن هذَا غَافِلِين * أَو تَقُولُوا إِنما أَشْرك آباؤُنَا مِن قَبلُ وكُنا ذُريةً من بعدِهِم أَفَتُهلِكُنَا بِما فَعلَ الْمبطِلُـون }[الأعراف:١٧٢-١٧٣].

٢- عهد االله الذي عهد به إلي بني آدم، وهو عدم عبادة الشيطان، يقول االله تعالي:{ أَلَم أَعهد إِلَيكُم يا بنِي آدم أَن لا تَعبدوا الشيطَان إِنه لَكُم عدو مبِين }[يس:٦٠-٦١].

وعبادة الشيطان تكون بطاعته: إما بالكفر باالله ، أو فيما دون

ذلك من المعاصي التي يزينها لبني آدم؛ وعبادة الله تكـون بطاعته وتوحيده وامتثال أوامره.

٣- ميثاق الله الذي أخذه علي بني إسرائيل بأن يلتزموا هداه ويجيبوا كما أمرهم. قال تعـالي:{ولَقَد أَخَذَ الله مِيثَاقَ بنِي إِسرائِيلَ وبعثْنَا مِنْهم اثْنَي عشَر نَقِيبا وقَـالَ الله إِني معكُم لَئِن أَقَمتُم الصلاَةَ وآتَيتُم الزكَـاةَ وآمنـتُم بِرسلِي وعزرتُموهم وأَقْرضـتُم الله قَرضـا حسـنًا لأُكَفِّرن عنْكُم سيئَاتِكُم ولأُدخِلَنكُم جناتٍ تَجرِي مِـن تَحتِها الأَنْهار فَمن كَفَر بعد ذَلِك مِنْكُم فَقَد ضل سواء السبِيل}

[المـــائدة:١٢]

و لم يوف بنو إسرائيل بهذا الميثـاق- كعـادتهم- بـل نقضوه، فلعنهم الله ، وجعل قلوبهم قاسية،ثم أخذ الله العهـد علي النصاري فلم يكونوا أحسن حظا ولا أوفي عهدا مـن سابقيهم فاغري الله بينهم العدواة و البغضـاء إلـي يـوم القيامة. يقول تعالي:{ومِن الَّذِين قَالُوا إِنا نَصارى أَخَذْنَا مِيثَاقَهم فَنَسوا حظا مما ذُكروا بِـهِ فَأَغْرينَـا بيـنَهم

الْعداوةَ والْبغْضاء ِإلَى يومِ الْقِيامةِ وسوفَ ينَبـئُهم ا ُ
ِبما كَانُوا يصنَعون}[المائدة:١٤] و لقد أخـذا الميثـاق
عليهم(علي بني إسـرائيل)، أن يظهـروا أحكـام اا ولا
يكتمونها، يقول تعالي:{ وِإذْ أَخَذَ ا ُ مِيثَاقَ الَّذِين ُأوتُـوا
الْكِتَاب لَتُبيننُـه ِللنـاسِ ولاَ تَكْتُمونَـه فَنَبـذُوه وراء
ظُهورِهِم واشْتَروا ِبهِ ثَمنًا قَلِيلاً فَِبئْس ما يشْـتَرون }[
آل عمران:١٨٧] ثم قال- تعالي-:{\ اذْكُروا ِنعمتِي الَّتِي
َأنْعمتُ علَيكُم وَأوفُوا ِبعهدِي ُأوفِ ِبعهـدِكُم وِإيـاي
فَارهبونِ }[البقرة:٤٠] فهل وفي بنو إسرئيل بعهد اا ؟ لا!
بل كتموا الحق، و غيروه، وزيفوا الحقائق وشوهوها وبـدلا
من أن يكونوا قادة إصلاح صاروا رؤسا للفساد والإفساد في
الأرض.

٤- الوصايا العشر التي وصي اا بها كل الأمـم فـي
قوله تعالي:{ قُلْ تَعالَوا َأتْلُ ما حرم ربكُـم علَـيكُم َألا
تُشْرِكُوا ِبهِ شَيئًا وِبالْوالِدينِ إِحسانًا ولاَ تَقْتُلُوا َأولاَدكُم
من ِإملاَقٍ نحن نَرزقُكُم وِإياهم ولاَ تَقْربوا الْفَـواحِشَ
ما ظَهر مِنْها وما بطَن ولاَ تَقْتُلُوا النفْس الَّتِي حـرم

ا ُ إلا ِباْلحق ذَِلكُم وصاكُم ِبِهِ لَعلكُ ـم تَعِقلُ ـون * ولاَ تَقْربوا مالَ الْيتِيمِ إلا ِبالِتي هِي أَحسن حتى يبلُغَ أَشُده وأَوفُوا الْكَيلَ والْمِيزان ِبالْقِسطِ لاَ نُكَلـ فُ نَفْسـا إلا وسعها وإِذَا قُلْتُم فَاعدِلُوا ولَو كَان ذَا قُربى وبِعهدِ ا ِ أَوفُوا ذَِلكُم وصاكُم ِبِهِ لَعلكُم تَـ ذَكرون * وأَن هـ ذَا صِراطِي مستَقِيما فَاتبِعوه ولاَ تَتبِعوا السبلَ فَتَفَرقَ ِبكُم عن سـ ِبيِلهِ ذَِلكُـ م وصـ اكُم ِبـ ِه لَعلكُـ م تَتقُـ ون }[الإنعام: ١٥١-١٥٣].

٥- عهد اا الذي عهد به إلي الأمة الإسلامية؛ وهـ و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و الإيمان باا ، و ذلك لإقرار العدل و الرحمة و المعروف بين الناس، يقـ ول اا تعالي:{ كُنْتُم خَير أُمـ ةٍ أُخْرِجـ تْ ِللنـ اسِ تَـ أْمرون ِبالْمعروفِ وتَنْهون عنِ الْمنْكَرِ وتُؤْمِنُون ِبـ ا ِ }[آل عمران: ١١٠].

٦- ميثاق اا الذي أخذه علي النبيـ ين: بـ أن يؤمنـ وا بمحمدصلى ا عليه وسلم. قال ابن عباس: ما بعث اا نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث اا محمد وهـ و

حي ليؤمنن به و لينصرنه و أمره أن يأخذ الميثـاق علـي أمته.

يقول الله تعالي:{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ النَّبِيـيِّن لَمَـا آتَيْتُكُم من كِتَابٍ وحِكْمَةٍ ثُم جاءكُم رسولٌ مصدقٌ لما معكُم لَتُؤْمِنُن بِهِ ولَتَنصرنه قَالَ أَأَقْررتُم وأَخَذْتُم علَى ذَلِكُم إِصرِي قَالُوا أَقْررنَا قَالَ فَاشْهدوا وأَنَا معكُم من الشاهِدِين}[آل عمران: ٨١].

٧- ميثاق الله الذي أخذه علي المؤمنين حينما بايعوا علي السمع و الطاعة في المنشـط والمكـره. يقـول تعـالي:{ واذْكُروا نِعمةَ اللَّهِ علَيكُم ومِيثَاقَه الَّذِي واثَقَكُم بِـهِ إِذْ قُلْتُم سمِعنَا وأَطَعنَا واتقُـوا اللَّهَ إِن اللَّهَ علِـيم بِـذَاتِ الصدور }.

[المـ ـائدة:٧]

٨- ميثاق الله الذي أخذه علي المؤمنين بأ ن يجاهـدوا في سبيله لإقرار الحق والعدل في الأرض. يقول تعالي:{ إِن اللَّهَ اشْتَرى مِن الْمؤْمِنِين أَنْفُسهم وأَموالَهم بِـأَن لَهـم الْجنةَ يقَاتِلُون فِي سبِيل اللَّهِ فَيقْتُلُون ويقْتَلُـون وعـدا

عليهِ حقا فِي التوراةِ والإِنْجِيل والْقُرآن ومن أَوفَـى بِعهدِهِ مِن ا ِ فَاستَبشِروا بِبيعِكُم الَذِي بايعتُم بِهِ وذَلِك هو الْفَوز الْعظِيم}[التوبة:١١١].

***

الوفاء بالمواثيق و العهود مع الناس

١- الوفاء بالأيمان: يقول تعالي:{ وأَوفُوا بِعهدِ ا ِ إِذَا عاهدتم ولاَ تَنقُضوا الأَيمان بعد تَوكِيدِها وقَد جعلْـتُم ا َ علَيكُم كَفِيلاً إِن ا َ يعلَم ما تَفْعلُون * ولاَ تَكُونُوا كَالَتِي نَقَضتْ غَزلَها مِن بعدِ قُـوةٍ أَنكَاثًـا تَتخِـذُون أَيمانَكُم دخَلاً بينَكُم أَن تَكُون أُمةٌ هِي أَربى مِن أُمـةٍ إِنما يبلُوكُم ا ُ بِهِ ولَيبينَن لَكُم يوم الْقِيامةِ ما كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُون}[النحل:٩١-٩٢].

يقول صاحب الظلال:(والوفاء بعهد اا يشـمل بيعـة المسلمين للرسول-صلى ا عليه وسلم- و يشمل كل عهـد علي معروف يأمر به اا . والوفاء بالعهود هـو الضـمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة لا

يقوم مجتمع ولا تقوم إنسانية. و النص يخجل المتعاهدين أن ينقضوا الأيمان بعد توكيدها و قد جعلوا الله كفيلا علـيهم، وأشهدوه عهدهم، و جعلوه كافلا للوفاء بها. ثم يهددهم تهديدا خفيا إن الله يعلم ما تفعلون)... انتهي.

ثم مثل الله - تعالي- الذين ينقضون العهـد و الأيمـان بالمرأة الحمقاء التي تفتل غزلها ثم تنقضه وتتركـه قطعـا محاولة، ويقول تعالي:{ ولاَ تَتخِذُوا أَيمانَكُم دخَلاً بيـنَكُم فَتَزِل قَدم بعد ثُبوتِها وتَذُوقُوا السوء بِما صددتم عـن سبِيلِ الله ولَكُم عذَاب عظِيم }[النحل:٩٤-٩٥].

يقول صاحب الظلال و اتخاذ الأيمـان غشـا وخـداعا يزعزع العقيدة في الضمير، ويشوه صورتها فـي ضـمائر الآخرين. فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه، لا يمكن أن تثبت له عقيدة، و لا تثبت له قدم علي صراطها. وهـو في الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهـم ثـم ينكث ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل، ومـن ثـم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السـيء الـذي يضـربه للمؤمنين بالله. ولقد دخلت في الإسلام جماعات و شـعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ومن صدقهم فـي

وعدهم ومن إخلاصهم في أيمـانهم ومـن نظـافتهم فـي معاملاتهم فكان الكسب أضخم بكثير من الخسـارة الوقتيـة الظاهرية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم... انتهي.

ويقولصلى ا عليه وسلم: المسلمون عند شروطهم(١).

٢- الوفاء بمبايعة الرسول-صلى ا عليه وسلم- علي أعمال الطاعة:

يقول عوف بن مالك: كنا عند النبي-صـلى ا عليـه وسلم- تسعة أوثمانية أو سبعة- فقال: ألا تبايعون رسـول اا صلى ا عليه وسلم ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا نبايعـك يـا رسول اا ، قال: علي أن تعبدوا اا ولاتشركوا به شيئا، و تصلوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا، وأسـر كلمـة خفية قال لاتسألوا الناس شيئا) قال عوف بن مالك فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسـأل أحـدا أن يناوله إياه(١). ومثل هذه المبايعة: بيعة النساء(و هي بيعة العقبة الأولي) والتي حضرها اثنا عشر رجلا فاتصل هؤلاء برسول اا -صلى ا عليه وسلم- عند العقبة بمني، فبايعوه بيعة النساء(أي وفق بيعتهم التي نزلت عند فتح مكة)، روي البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول اا -صـلى ا

عليه وسلم- قال: تعالوا بايعوني علي أن لا تشركوا بـ اا شيئا، ولاتسرقوا، ولاتزنوا، ولاتقتلـوا أولادكـم، ولاتـأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم و أرجلكـم، ولا تعصـوني فـي معروف، فمن وفي منكم فأجره علي اا ، ومن أصاب مـن ذلك شئيا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذ لك شيئا فستره اا فأمره إلي اا إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه قال: فبايعته- وفي نسخة فبايعناه- علي ذلك)

وهي نفس بنود بيعة النساء التي جـاءت فـي سـورة الممتحنة في قوله تعالي:{ يـا َأيهـا النبِـي ِإذَا جـاءك الْمؤْمِنَاتُ يبايِعنَك علَى َأن لا يشْرِكْن بِا ِ شَـيئًا ولاَ يسرِقْن ولاَ يزنِين ولاَ يقْتُلْن َأولاَدهن ولاَ يْأتِين بِبهتَانٍ يفْتَرِينَه بين َأيدِيهِن وَأرجلِهِـن ولاَ يعصِـينَك فِـي معروفٍ فَبايِعهن واستَغْفِر لَهـن ا َ ِإن ا َ غَفُـور رحِيم}

[الممتحنة:١٢]

بيعة العقبة الثانية

و تم فيها مبايعة الرسول -صلى ا عليه وسلم- علـي حماية الدعوة وحراسة الرسالة. فقد روي الإمام أحمد عـن جابر بن عبد اا قال: قلنا يا رسول اا : علي مانبايعـك ؟ قال: علي السمع والطاعة في النشاط و الكسل، و علي النفقة في العسر واليسروعلي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلي أن تقوموا في اا ، لا تأخذكم في اا لومة لائـم، و علي أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعـون منه أنفسكم و أزواجكم و أبناءكم، و لكم الجنة.

فهل وفي الأنصار بهذه البيعة ؟وهل بالفعل حموا الدعوة و حرسوا الرسالة؟ روي البخاري ومسلم عـن أنـس بـن مالك- رضي اا عنه- قال: لما كان يـوم حنـين أقبلـت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع النبي -صلى ا عليه وسلم- عشرة آلاف و من الطلقاء، فـأدبروا عنـه حتي بقي وحده فنادي يومئذ نداءين لم يخلط بينهما: التفـت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار قالوا لبيك يا رسول اا ، أبشر نحن معك. ثم التفت عن يسـاره فقـال: يـا معشـر الأنصار قالوا لبيك يا رسول اا : أبشر نحن معـك. وهـو

علي بغلة بيضاء، فنزل فقال: أنا عبد الله ورسوله فـانهزم المشركون).

و هكذا أصحاب العقائد، وأصحاب البيعـة هـم الـذين يظهرون وقت الشدة، وكان الأنصار خير من و في بالبيعة، فرضي الله عن الأنصار.

٣- الوفاء بقضاء الدين: ففي الحديث(من أخذ أمـوال الناس يريد أداءها أدي الله عنه ومن أخذها يريـد إتلافهـا أتلفه الله)(١).

وروي البخاري عن أبي هريرةرضي الله عنـه عـن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أنه ذكر رجلا من بنـي إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه(يقرضه) ألـف دينار فقال ائتني بالشهداء أشهدهم فقال: كفي بالله شـهيدا. قال فائتني بالكفيل. قال: كفي بالله كفيلا. قال صدقت فدفعها إليه إلي أجل مسمي فخرج في البحر فقضـي حاجتـه ثـم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله فلـم يجـد مركبا فأخذ خشب فنقرها فأدخل فيها ألف دينار و صـحيفة منه إلي صاحبه ثم زجج موضعها ثم أتي بها إلـي البحـر فقال:(اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانـا ألـف دينـار

فسألني كفيلا فقلت كفي باالله كفيلا فرضي بك وسألني شهيدا فقلت: كفي باالله شهيد فرضي بك و إني جهـدت أن أجـد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أقدر. و إني استودعكها فرمي بها في البحر حتي ولجت فيه ثم انصرف وهو فـي ذلـك يلتمس مركبا يخرج إلي بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله فإذا بالخشبة التي فيها المـال فأخذها حطبا لأهله فلما نشرها وجد المال والصحيفة. ثم قدم الذي كان أسلفه فأتي بالألف دينـار. فقـال: واالله مازلـت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبـل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء ؟قال أخبرك أني لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه. قال: فإن االله قد أدي عنك الثي بعثت في الخشبة فأنصرف بالألف الدينار راشا)

يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين: فعن أبي قتادة- رضـي االله عنه- قال: قال رجل: يا رسول االله ، أرأيت إن قتلت في سبيل االله أتكفر عني خطاياي ؟ فقال رسول االله -صلى االله عليه وسلم- نعم، إن قتلت و أنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر؟! ثم قال: كيف قلت ؟! فأعاد قال نعم إلا الدين، فـإن

جبريل أخبرني بذلك(١) وفي رواية(يغفر للشهيد كل ذنـب إلا الدين)(٢).

وفاء أبي بكر الصديق:

فعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال لي النبي-صـلى الله عليه وسلم- لو قد جاء مال البحرين أعطيتـك هكـذا و هكذا و هكذا فلم يجيء مال البحرين حتي قبض النبي-صلى الله عليه وسلم- فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر- رضي الله عنه- فنادي: من كان له عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عدة أو دين فليأتنا، فقلت لهم: إن النبيصلى الله عليه وسلم قال لي كذا وكذا فحثي لي حثية فعـددتها فـإذا هـي خمسمائة فقال لي خذ مثليها(٣).

٤- الوفاء و البر بالقسم: من حلف علي يمين فقد وجب عليه أن يوفي بهذا القسم إلا أن يكون قد أقسم علي إثـم أو قطيعة رحم، وفي الحديث: من حلف علي يمين فرأي خيرا منها فليكفر عن يمينه و ليفعل الذي هو خير(٤).

ولا يصح أن يصر الإنسان علي البر بالقسم والوفاء بـه إذا كان الحنث هو الأفضل، وفي الحديث لأن يلـج أحـدكم

يمينه في أهله آثم له عند الله تعالي من أن يعطي كفارتـه التي افترض الله عليه(5).

5- الوفاء بأجر الأجير: ففي الحـــديث القــدسي ثلاثة أنا خصـمهم يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غـدر، ورجل باع حرا ثم أكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفي منه ولم يعطه أجره(1).

الهوامش

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(١) رواه مسلم عن عياض بن حمار.(٢) رواه الترمـذي وقـال حديث حسن.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(٤) من كتاب تهذيب مدارج السالكين ص٤٣٠.

(١) رواه الشيخان.(٣،٢) رواهما البخاري.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) صححه الألباني في صحيح الجامع.

(١) من كتاب رجال حول الرسول ص٣٢٥.

٦- الوفاء بين الزوجين: فعقد الزواج هو أقدس العقود التي يعقدها الإنسان، فهو عهد ربط الله به بين رجل وامرأة، أصبح كل منهما زوجا للآخر لأنه يمثله ويحمل معه آماله وآلامه.

يقول الله تعالي:{ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن}[البقرة:١٨٧].

ولهذا كان علي كلا الزوجين أن يكون وفيا للآخر؛ وفيا له في أداء حقوقه كاملة، وفيا له بحفظه لأسراره.

يقول تعالي:{ وَلَهن مِثْلُ الذِي عليهن بِالْمعروفِ وِللرجال عليهن درجةٌ }[البقرة:٢٢٨].

وفي الحديث الشريف: أيما رجل تزوج امرأة- علي ما قل من المهر أو كثر- ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها، خدعها، فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان! وأيما رجل استدان دينا، لا يريد أن يؤدي إلي صاحبه حقه، خدعه حتي أخذ ماله، فمات ولم يؤد إليه دينه لقي الله وهو سارق(٢).

وفاء الرسول-صلى الله عليه وسلم- للسيدة خديجة- رضي الله عنها-:

ضرب الرسول -صلى ا عليه وسلم- المثل الأعلي في الوفاء بحقوق الزوجية، فوفائه للسيدة خديجة- رضـي اا عنها- لم ينته بوفاتها، بل ماتت خديجة ولكن ذكراهـا لـم تمت في نفس رسول اا -صلى ا عليه وسلم- لقـد ظـل وفيا لها طوال حياته، يحن لذكراها ويهش لأهلها، ويكـرم صديقاتها، حتي أن عائشة- أحب أزواجه إليه بعدها- لتغار منها في قبرها، قالت: كان رسول اا لا يكاد يخـرج مـن البيت حتي يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يومـا من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجـوزا قـد أبدلك اا خيرا منها؟! فغضب حتي اهتز مقدم شعره مـن الغضب ثم قال: لا واا ما أبدلني اا خيرا منها، آمنت بي إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني اا منها الولد دون غيرهـا مـن النساء قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بعدها بسيئة.

ومن وفائه -صلى ا عليه وسلم- لخديجة أنه كان يكرم صديقاتها بعد موتها؛ فقد زارت النبي -صلى ا عليه وسلم- امرأة عجوز في بيت عائشة- رضي اا عنهـا- فـأكرم مثواها وبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وبالغ في الحفاوة بها،

فلما انصرفت سألته عائشة لتعلم سبب إكرامه لها فأخبرهـا أنها كانت تزور خديجة.

***

وفاء الدعاة إلي الله

الدعاة إلي الله - عز وجل- إنما سلكوا هـذا الطريـق انطلاقا من إيمانهم العميق بفرضية هذا الأمر، ومن ثم فلابد أن يكونوا أوفياء لهذه الدعوة، ومن وفائهم لهذه الـدعوة ألا يدخروا وسعا في تبليغها للناس، فالدعاة الصادقون الأوفيـاء هم الذين يعيشون همومها ليل نهار، فهي تملأ عليهم حياتهم، ويعيشونها ويعيشون بها، ويعيشون لها. يبتكرون الوسـائل التي يصلون بها إلي الناس، وضرب لنا نوح- عليه السلام- المثل في تنويع الوسائل الدعوية، فقـال الله تعـالي علـي لسانه- عليه السلام-:{إِني كُلما دعـوتُهم لِتَغْفِـر لَهـم جعلُوا أَصابِعهم فِي آذَانِهم واستَغْشَوا ثِيابهم وأَصروا واستَكْبروا استِكْبارا * ثُم إِني دعوتُهم جِهارا * ثُـم إِني أَعلَنْتُ لَهم وأَسررتُ لَهـم إِسـرارا * فَقُلْـتُ استَغْفِروا ربكُم إِنه كَان غَفارا * يرسِلِ السماء علَيكُم

مدرارا * ويمدِدكُم بِأَموالٍ وبنين ويجعل لكُم جنـاتٍ ويجعل لكُم أَنْهارا }[نوح:١٢:٧].

***

نماذج من الدعاة الأوفياء

أولا: وفاء الرسول محمد-صلى ا عليه وسلم-

١- وفاء الرسول-صلى ا عليه وسـلم- لعمـه أبـي طالب:

لقد كان أبو طالب بمثابة الدرع الـواقي لرسـول اا - صلى ا عليه وسلم-، فكان يحوطه ويمنعـه، نـافح عنـه ودافع، دخل معه الشعب، وتحمل معه شدة الحصـار؛ ولـم يتجرأ المشركون علي الرسول-صلى ا عليه وسـلم- إلا بعد موت أبي طالب. فهو الذي قال للرسولصلى ا عليـه وسلم-:(اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فواا لا أسـلمك لشيء أبدا وأنشد قائلا:

وا لن يصلوا إليك بجمعهم حتي أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وأبشر وقر بذاك منك عيونا(١)

فهل ينسي الرسول -صلى الله عليه وسلم- كل هذا لأبي طالب؟!

إن الوفاء من شيم الرجال، فكيف إذا كانوا دعـاة إلـي الله - عز وجل- ؟!

فكيف إذا كان هذا مع سيد الدعاة- محمدصلى الله عليه وسلم- ؟!

فأراد الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يـرد الجميـل لعمه، فبذل قصاري جهـده ليدخلـه فـي الإسـلام، ففـي الصحيح(٢) أن أبا طالب لـما حضرته الوفاة دخـل عليـه النبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده أبو جهل، فقال: أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، فقـال أبـو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب: ترغب عن ملة عبـد المطلب! فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فنزلـت{ ما كَان ِللنِبي والـذِين آمنُـوا أَن يستَغْفِروا ِللْمشْرِكِين ولَو كَانُوا أُولِي قُربى مِن بعدِ ما تَبين لَهم أَنهم أَصحاب الْجحِيمِ }[التوبة:١١٣] ونزلت:{ ِإنك لاَ تَهدِي من أَحببتَ }[القصص:٥٦]

٢- وفاء الرسول-صلى ا عليه وسلم- لفاطمة بنـت أسد زوجة أبي طالب:

فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب؛ آمنت باا ورسـوله وحسن إسلامها، كانت من أكثر الناس وفاء لرسـول اا - صلى ا عليه وسلم- فكانت تطعم محمدا قبـل أولادهـا- حينما كان في رعاية أبي طالـب- وتقـوم علـي راحتـه وخدمته.

روي الحـ ـافظ أبـ ـو نعـيم: أنـه لمـ ـ ـا ماتـت فاطمـ ـ ـة بنت أسـ ـ ـد- وهـي زوجـ ـة أبي طالب- وبعد ما حفر لحدها وقبل أن ينزل جثمانها كان النبي-صلى ا عليه وسلم- يحمل نعشها بنفسه، وكان يتأخر ثم يتقـدم إلي أن جيء بالجثمان إلي مقره الأخير وبعد حفـر اللحـد، نزل النبي لحدها وخلع قميصه وبسـ ـطه فـي القبـر ثـم أضجع في قبرها، وبعد ذلك دفنت فاطمة، فقيل يـا رسـول اا : لم فعلت ذلك؟ فقال: حتي لا تمـس النـار جسـدها، وليوسع اا في قبرها، وما عفي أحد من ضـمة القبـر إلا فاطمة بنت أسد.

٣- وفاء الرسول -صلى ا عليه وسلم- للمطعم بن عدي:

لما أراد الرسول -صلى ا عليه وسلم- أن يدخل مكة بعد رجوعه من الطائف أرسل إلي الأخنس بن شريق ليدخل في جواره فرفض، وأرسل إلي سهيل بن عمرو فرفض، فأرسل إلي المطعم بن عدي فأجابه علي ذلك، ووقف موقفا مشرفا، حيث سلم بنيه جميعا، وحضر بهم إلي الكعبة بالسلاح معلنا إجارة محمد بن عبد اا ، حيث دخل رسول اا -صلى ا عليه وسلم- وزيد بن حارثة فطافا بالكعبة بحماية السلاح، ومضي إلي بيته -صلى ا عليه وسلم- بحمايتهم كذلك، وكان له موقف آخر مشرف: وهو دوره الذي قام به في نقض صحيفة المقاطعة، حيث اجتمع هو وزهير بن أمية بن المغيرة، وهشام بن عمرو بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود؛ وتعاهدوا علي نقض الصحيفة وبالفعل نجحت خطتهم في نقض الصحيفة، وكان مما قاله المطعم بن عدي في ذلك نبرأ إلي اا منها ومما كتب فيها وكان المطعم ابن عدي أول من قام ليشق الصحيفة.

فهل من الوفاء أن ينسي الرسولصلى ا عليـه وسـلم هذه المواقف.

لقد حفظ رسول اا -صلى ا عليه وسلم- هذا الصنيع للمطعم بن عدي. فقال في أسري بدر لو كان المطعـم بـن عدي حيا لوهبت له هؤلاء النتني، يقول الشيخ منير محمـد الغضبان في كتاب المنهج الحركي للسيرة النبوية: وكم نحن بحاجة إلي أن نفقه هذا المعنـي فـي حركتنـا الإسـلامية المعاصرة؛ إن المطعم بن عدي كافر لا يختلف في عقيدتـه أبدا عن بقية قريش. وإن أبا جهل وأبا لهب كافران كـذلك مثل المطعم بن عدي. لكن الفرق بين النوعين واضح: كافر مسالم مناصر للمسلمين، وكافر عدو محارب. ورسول اا - صلى ا عليه وسلم- هو الذي يطلب هذه الإجـارة وهـذه النصرة. وينتقل في مكة تحت حماية السيوف الكافرة. وهـا هو عليه الصلاة والسلام يعلن أنه سيطلق سـراح سـبعين كافرا من صناديد قريش لو طلبهم منه المطعم بـن عـدي الكافر! إن الرسول-صلى ا عليه وسلم- يربينا علـي أن نرد المعروف لأهله ولو كانوا كفارا، ويعلمنا أن نحفظ الود

لأهله. ولو كانوا عبدة أصنام وأوثان، ويربينا كيف نفـرق بين العدو الذي يحمينا وبين العدو الذي يقتلنا.

***

ثانيا: وفاء إبراهيم عليه السلام

يقول اا تعالي:{ا إبراهيم بذيا في'}[النجم:٣٧].

ووفاء إبراهيم عليه السلام يعني قيامه بما التزمـه مـع اا - عز وجل- من إدعاء الإسلام حيث قال له ربـه:{ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب بعالمين}

[البقرة:١٣١]

فوفي إبراهيم بهذا الالتزام، بأن انقاد وامتثل لأمـر اا ونهيه دون اعتراض، وظهـر ذلـك جليـا في تنفيـذه لأمر اا مناما بذبح ابنـه إسـماعيل، فما تردد! ومـا تلكأ! وما سوف! وما ذهب ليبحث له عن مخرج ومهـرب من تنفيذ الأمر الذي يحقق حقيقة الإسلام. ولكن انقاد وامتثل وبادر!!! ومن وفائه والتزامه بمعني الإسلام، أن أدي أوامر اا كما أرادها اا - تعالي-{ا إذا بتلـي' إبـراهيم ربـه بكلمات فأتمهن}[البقرة:١٢٤].

ومن صور الوفاء أيضا: رفعه للقواعد من البيـت هـو وابنه إسماعيل ليكون البيت مثابة للناس وأمنا، وليأتي الناس من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم. ومن وفائـه كـذلك: هجرته وتنقله لنشر دعوة الله - عز وجل- وتضحيته بكـل شيء في سبيل ذلك.

(١٠) الشـــــجاعة

وهي قوة في النفس ينشئها الإيمان الصادق، بثبات القلب والثقة بالله، فيخلوا القلب من الوهن الذي هو حـب الـدنيا وكراهية الموت. وإنما تنشأ هذه القوة في النفس نتيجة حب الله - عز وجل- حبا صادقا تهون أمامه الصعاب، وتحتقـر أمامه زخارف الحياة الدنيا، وتصغر أمامه كـل العظـائم. يقول تعالي:{والذين آمنوا أشد حبا لله}[البقرة:١٦٥].

ويقول تعالي:{ الْمالُ والْبنُون زِينَةُ الْحيـاةِ الـدنْيا والْباقِيات الصالِحاتُ خَير عِنْد ربك ثَوابا وخَير أَملاً }[الكهف:٤٦].

وإنما يكون الهلع والجبن داخل الـنفس نتيجـة خـوف الإنسان علي أجله، ورزقه، كما يكون نتيجـة حـب الـدنيا

ونسيان الآخرة، ومن ثم كراهية الموت. وقد طمـأن الله - عز وجل- الإنسان علي أجله ورزقه.

يقول الله تعالي:{ ما كَان ِلنَفْسٍ أَن تَموتَ ِإلا ِبـِإذْن ا ِ كِتَابا مؤَجلاً }.
[آل عمران:١٤٥]

وقال:{لِكُل ُأمةٍ أَجلٌ فَإِذَا جاء أَجلُهم لاَ يستَأْخِرون ساعةً ولاَ يستَقْدِمون}[الأعراف:٣٤].

وقال:{ قُل لن يصِيبنَا ِإلا ما كَتَب ا ُ لَنَا هو مولاَنَا وعلَى ا ِ فَلْيتَوكل الْمؤْمِنُون }[التوبة:٥١].

وقال:{أَينَما تَكُونُوا يدرِككم الْموتُ ولَو كُنْتُم ِفـي بروجٍ مشَيدةٍ وِإن تُصِبهم حسنَةٌ يقُولُوا هذِهِ مِن عِنْـدِ ا ِ }[النساء:٧٨].

فكل هذه الآيات وغيرها تطمئن الإنسان علـي أجلـه، وتبين له أن ما قدره الله - عز وجل- سيدرك الإنسـان لا محالة، فلم الخوف؟! ولم الهلع؟! ولم الانهيار الداخلي؟! ولم الهزيمة النفسية؟!

يقول صاحب الظلال:(إن لكل نفس كتابا مـؤجلا إلـي أجل مرسوم. ولن تموت نفس حتي تسـتوفي هـذا الأجـل المرسوم(فالخوف والهلع، والحرص والتخاف، لا نفس حتي تستوفي هذا الأجل المرسوم فالخوف والهلـع، والحـرص والتخاف، لا تطيل أجلا. والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمرا. فلا كان الجبن، ولا نامت أعـين الجبنـاء والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد!)... انتهي.

ويطمئن االله - عز وجل- الإنسان علي الرزق، فيقول- تعالي-:{ما مِن دابةٍ فِي الأَرضِ إلا علَى االلهِ رِزقُهـا ويعلَم مستَقَرها ومستَودعها كُلٌ فِي كِتَـابٍ مبِـينٍ}[هود:٦] ويزيد الإنسان اطمئنانا علي رزقـه فيبـين لـه أن مصدر التحكم في الرزق واحد، وهو ليس مصدرا أرضـيا ولكنه في السماء!!

يقول تعـالي:{ وفِي السماءِ رِزقُكُم وما تُوعدون * فَورب السماءِ والأَرضِ إِنه لَحق مِثْلَ ما أَنكُم تَنطِقُون }[الذاريات:٢٢،٢٣].

ويهون االله من كيد الكائدين، ومن تهديـد المتجبـرين، وأنهم ليسوا أهلا لأن يحسب لهم أي حساب.

ويقول:{ الذِين قَالَ لَهم الناس إِن الناس قَد جمعـوا لَكُم فَاخْشَوهم فَزادهم إِيمانًا وقَالُوا حسبنَا ا ُ ونِعـم الْوكِيلُ }[آل عمران:١٧٣].

ويقول:{ إِنما ذَلِكُم الشيطَان يخَوفُ أَولِيـاءه فَـلاَ تَخَافُوهم وخَافُونِ إِن كُنْتُم مؤْمِنِين }[آل عمران:١٧٥].

١ أفضل الشجاعة:

وأفضل الشجاعة الصراحة في الحق، وكتمـان السـر وحفظه، والإقرار بالخطأ والاعتراف به، والإنصـاف مـن النفس والانتصار للغير منها وملكها عند الغضـب. وفـي الحديث أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر(١).

ويقول عبادة بن الصامت- رضي اا عنـه-: بايعنـا رسول اا -صلى ا عليه وسلم- علي السمع والطاعة في العسر واليسر، والـمنشط والمكره، وعلي أثرة علينا، وعلي ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من اا فيه برهان، وعلي أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في اا لومة لائم(١).

الفرق بين الشجاعة والتهور:

إذا كانت الشجاعة ثبات الإنسان علي الحق، والجهر به، مع ثقة القلب باالله وطمأنينته إلي معية االله، فـإن التهـور يعني الاندفاع إلي الفعل كرد فعل آخر، وذلك دون دراسـة لأبعاد الأمور، أو معرفة وتقدير لعواقبها؛ وإنما يكون ذلـك نتيجة ثورة غضبية، أو عاطفة حماسية غيـر موجهـة ولا منضبطة.

***

صـور من الشـجاعة

١- عن أبي بكر بن أبي موسي الأشعري قال: سـمعت أبي- رضي االله عنه- وهو بحضرة العـدو يقـول: قـال رسول االله -صلى االله عليه وسلم-: إن أبواب الجنة تحـت ظلال السيوف، فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبـا موسـي أأنت سمعت رسول االله -صلى االله عليه وسلم- يقول هـذا؟ فقال: نعم. فرجع إلي أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثـم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشي بسيفه إلي العدو فضرب حتي قتل(٢).

٢- الإنصاف من النفس: عن جبير: أن نفرا قالوا لعمر بن الخطاب: واالله ما رأينا رجلا أقضي بالقسط ولا أقـول بالحق ولا أشد علي المنافقين منك يا أمير المؤمنين، فأنـت خير الناس بعد رسول االله -صلى االله عليه وسلم- قال عوف بن مالك: كذبتم واالله، لقد رأيت بعد رسول االله خيرا مـن عمر، أبا بكر. قال عمر: صدق عوف وكذبتم، ولقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك وأنا أضل من بعير أهلي(يعنـي قبل أن يسلم)(٣).

٣- لمـــا دنا المشركون يوم بدر، قال رسـول االله -صلى االله عليه وسلم- لأصحابه قوموا إلي جنـة عرضـها السماوات والأرض، فقال عمير بن الحمام الأنصـاري يـا رسول االله: جنة عرضها السماوات والأرض؟! قال: نعـم قال بخ بخ قال رسول االله: وما يحملك علي قول بخ بـخ؟ قال: لا واالله يا رسول االله إلا رجاء أن أكون مـن أهلهـا! قال فإنك من أهلها.. فأخرج تمرات من قرنه فجعـل يأكـل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتي آكل تمراتي هـذه، إنهـا لحياة طويلة، فرمي ما كان معه من التمر ثم قـاتلهم وهـو يقول:

ركضا إلي الله بغير زاد إلا التقي وعمل المعاد
والصبر في الله علي الجهاد وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقي والبر والرشاد
فما زال يقاتل حتي قتل!(١).

٤- قال عبد الرحمن بن عوف:(إني لفي الصف يـوم بدر، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يسـاري فتيـان حـديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرا مـن صاحبه: يا عم: أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه! وقال لي الآخر سرا من صاحبه مثله قال: فما سرني أنني بـين رجلين مكانهما.

فأشرت لهما إليه. فشدا عليه مثل الصـقرين، فضـرباه حتي قتلاه، وهما ابنا عفراء)(٢).

شجاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-:

كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أشجع الناس، لا يبالي بكثرة العدد، ولم يفر من عدو قط، ولم يدبر منهزمـا قط. يقول علي بن أبي طالب: كنا إذا اشتد البأس وحميـت الحرب اتقينا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فما يكـون

أحد أقرب إلي العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسـول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو أقربنا إلي العـدو- ولقـد كانت الصحابة تقول إن الشجاع منا للذي يقوم بجانبه يستتر به، وقيل لأنس: أفررتم يوم حنين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: لكن رسول الله لم يفر، ثم قال: لقد رأيته علي بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبي-صـلى الله عليه وسلم- يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقال العباس بن عبد المطلب: لمـا التقي المسـلمون والكفار يوم حنين ولي المسلمون مدبرين فطفق النبي-صلى الله عليه وسلم- يركض بغلته نحو الكفار؛ قال ابن عبـاس وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع.

شجاعة أبي بكر الصديق- رضي الله عنه-:

وتظهر شجاعة أبي بكـر الصديق- رضي الله عنـه- جلية في حرب المرتدين ومانعي الزكـاة، إذ أنـه وقـف صامدا صلبا قويا واثقا بمعية الله - عز وجل- في الوقـت الذي كان المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة، حتـي قـال بعض المسلمين له: يا خليفة رسول الله، لا طاقة لك بحرب

العرب جميعا.. الزم بيتك، وأغلق بابك؛ واعبد ربك حتـي يأتيك اليقين!!! ولكن الرجل البكاء اللين، الرقيـق، رحـيم القلب، ينقلب في لحظة إلي أسد ثائر، يصيح في عمر بـن الخطاب: أجبار في الجاهلية، خوار في الإسـلام؟ لقـد تـم الوحي واكتمل... أفينقص الدين وأنا حي؟ واالله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول االله -صلى االله عليه وسلم- لقاتلتهم عليه.

شجاعة عمر بن الخطاب- رضي االله عنه-:

حياة عمر تنم عن شخصية قوية لا تهاب أحدا، ولا تكتم حقا، ويظهر هذا منذ بداية إسلامه، حيث قال: يـا رسـول االله: علام نخفي ديننا ونحن علي الحق وهم علي الباطـل؟! فقال رسول االله -صلى االله عليه وسلم- إنا قليل وقد رأيـت ما لقينا.. فقال له عمر: والذي بعثك بالحق لا يبقي مجلـس جلست فيه بكفر إلا جلست فيه بالإيمان؛ ثم خرج الرسول- صلى االله عليه وسلم- إلي الكعبة في صفين من المسـلمين في أحدهما حمزة وفي الآخر عمر. وعندما أراد أن يهـاجر أعلن علي الملأ من قريش: من شاء أن تثكله أمـه، وييـتم ولده فليلقني خلف هذا الوادي، فما استطاع أحد أن يتتبعـه.

ونري هذه الشجاعة واضحة فـي تعاملـه مـع المنـافقين والمشركين.

***

شجاعة الدعاة إلي اا

يقول اا تعالي:{ بذين يبلغون رسالات بلها يخشونها لا يخشون أحدا إلا بلها كفي' با حسيبا}[الأحزاب:٣٩].

وتبليغ رسالات اا وخشيته وحده يكون بأمور منها:

١- عدم التحرج من اتباع منهج اا والدعوة إليه: فـلا يجد الداعية في صدره حرجا في أن يكون مخالفا لمـــا عليه المجتمع، ما دام يمثل المجتمع الربـاني الـذي يـدعو الناس إليه، فلا يخفي الداعية تمسكه بجزئية من جزئيات هذا الدين، أو يترك الدعوة إليها خجلا!! أو استحياء!! أو خوفـا أن يتهم بالرجعية!! بل يصدع بالدعوة إلي منهج اا وهـو يرفع رأسه استعلاء بالإيمان واعتـزازا بالانتسـاب إلـي الدعوة. يقول اا تعـالي:{ كِتَاب ُأنْزِلَ إِلَيك فَلاَ يكُن فِي صدرِك حرج منْه لِتُنذِر بِهِ وذِكْـرى لِلْمـؤْمِنِين * اتِبعوا ما ُأنْزِلَ إِلَيكُم من ربكُم ولاَ تَتبِعوا مِن دونِـهِ َأولِياء قَلِيلاً ما تَذَكرون }[الأعراف:٢:٣].

٢- الصدع بالحق في المواضع التـي لا يصـح فيهـا كتمان الإيمان: وهي الحالات التي لا يمكن للداعية أن يخفي فيها هويته الدعوية، بل شجاعته في تبليغ الدعوة تتطلب منه الصدق بالحق، إذا أن قضية الإيمان والعقيدة حينها تكون في خطر، ومن أمثلة ذلك:

(أ) مؤمن آل فرعون: يقول الله تعالي:{وَقَـالَ رجـلٌ مؤْمِن من آل فِرعون يكْتُم إِيمانَه أَتَقْتُلُون رجـلاً أَن يقُولَ ربي اللَّهُ وقَد جاءكُم بِالْبينَاتِ مِن ربكُم وإِن يك كَاذِبا فَعلَيهِ كَذِبه وإِن يك صادِقًا يصِبكُم بعض الـذِي يعِدكُم إِن اللَّهَ لاَ يهدِي من هو مسـرِفٌ كَـذاب}(١)[غافر:٢٨].

فالرجل يكتم إيمانه إلي أن جاء الوقت الذي لابد فيه من الكلام، إذ علم أن الملأ يأتمرون بموسي ليقتلوه، فأخذ فـي البداية يتبني قضية الحق ولكنه يمسها من بعيـد، إلـي أن جاءت اللحظة التي لابد فيها من الكشف الكامل عن الهويـة إذ لا بديل عن ذلك يقول الله تعالي علي لسانه:{ ويا قَـومِ ما لِي أَدعوكُم إِلَى النجاةِ وتَدعونَنِي إِلَـى النـارِ *

تَدعونَنِي لأَكْفُر بِا ـ وأُشْرِك بِهِ ما لَيس لِي بِهِ عِلْـم وأَنَا أَدعوكُم إِلَى الْعزِيزِ الْغَفـار * لاَ جـرم أَنمـا تَدعونَنِي إِلَيهِ لَيس لَه دعوةٌ فِي الدنْيا ولاَ فِي الآخِرةِ وأَن مردنَا إِلَى ا ـ وأَن الْمسرِفِين هم أَصحاب النـار * فَستَذْكُرون ما أَقُولُ لَكُم وأُفَوض أَمرِي إِلَى ا ـ إِن ا َ بصِير بِالْعِبادِ }[غافر:٤٤:٤١].

(ب) مؤمن آل يس: يقول اا تعـالي:{ واضرِب لَهم مثَلاً أَصحاب الْقَريـةِ إِذْ جاءهـا الْمرسـلُون * إِذْ أَرسلْنَا إِلَيهِم اثْنَينِ فَكَذبوهما فَعززنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنـا إِلَيكُم مرسلُون * قَالُوا ما أَنْتُم إِلا بشَر مثْلُنَـا ومـا أَنْزلَ الرحمن مِن شَيءٍ إِن أَنْتُم إِلا تَكْذِبون * قَـالُوا ربنَا يعلَم إِنا إِلَيكُم لَمرسلُون * وما علَينَا إِلا الْـبلاَغُ الْمبِين * قَالُوا إِنا تَطَيرنَا بِكُم لَئِن لم تَنتَهوا لَنَرجمنكُم ولَيمسنكُم منا عذَاب أَلِيم * قَالُوا طَائِركُم معكُـم أَإِن ذُكرتُم بلْ أَنْتُم قَوم مسرِفُون }[يس:١٩:١٣].

وهنا يعلن أهل الباطل عن اسـتعدادهم لاسـتخدام كـل الأساليب والطرق التي يسكتون بهـا أصـوات الـدعاة، أو يتخلصون بها منهم نهائيا. وفي هذه اللحظة الحرجة:{جـاء مِن أَقْصى الْمدِينَةِ رجلٌ يسعى قَالَ يا قَـومِ اتبِعـوا الْمرسلِين * اتبِعوا من لا يسأَلُكُم أَجرا وهم مهتَـدون * وما لِي لاَ أَعبد الَّذِي فَطَرنِي وإِلَيـهِ تُرجعـون * أَأَتخِذُ مِن دونِهِ آلِهةً إِن يرِدنِ الرحمن بِضر لا تُغْـنِ عني شَفَاعتُهم شَيئًا ولاَ ينْقِذُون * إِني إِذًا لَفِي ضلاَلٍ مبِينٍ * إِني آمنتُ بِربكُم فَاسمعون }

[يس:٢٥:٢٠]

يقول صاحب الظلال- رحمه الله -(فهذا رجـل سـمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأي فيها مـن دلائـل الحـق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه. وحينما استشـعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتا، ولم يقبع في داره، بعقيدته وهو يري الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعي بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره، سعي به إلي قومـه وهـم

يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصـي المدينة يسعي ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلي الحق وفـي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشـكون أن يصبوه علي المرسلين... انتهي.

***

(١١) العدل

المراد بالعدل:

أن يعطي كل ذي حق حقه بلا بخس ولا ظلم ولا إفراط ولا تفريط.

١ العدل هدف الرسالات السماوية:

يقول الله تعالي:{ لَقَدْ أَرسلْنَا رسلَنَا بِالْبينَاتِ وَأَنْزلْنَا معهم الْكِتَاب والْمِيـزان لِيقُـوم النـاس بِالْقِسـطِ }[الحديد:٢٥].

فالرسالات السماوية كلهـا، علـي اختلافهـا أزمانهـا وأماكنها، إنما جاءت لتقر في الناس مباديء الحق والعـدل، فهي تضع ميزانا واحد ا، و معيارا واحدا يقيس به النـاس، فلا محاباة لجنس علي حساب آخر، ولا محاباة للون علـي آخر وإنما هذا الميزان كفيل بأن يقيم العدل بين النـاس لأن منزله هو رب الناس جميعا،الذي لا يحابي أحدا علي حساب أحد، ولا يحابي أمة علي حساب أخري، إنما جعـل للنـاس المنهج الذي يضمن لهم الحياة في ظل الحق والعدل.

يقول ا تعالي:{ إِن ا َ يأْمر ِبالْعـدل والإحسـان وإِيتَاءِ ذِي الْقُربى وينْهى عـن الْفَحشَـاءِ والْمنْكَـر والْبغْي }[النحل:٩٠].

ويقول:{ والسماء رفَعها ووضـع الْمِيـزان * أَلا تَطْغَوا فِي الْمِيزانِ * وأَقِيمـوا الْـوزن بِالْقِسـطِ ولاَ تُخْسِروا الْمِيزان }[الرحمن:٩:٧].

١ اا يحاسب الناس بالعدل:

يقول اا تعـالي:{ ونَضع الْموازِين الْقِسـطَ لِيـومِ الْقِيامةِ فَلاَ تُظْلَم نَفْس شَيئًا وإِن كَان مِثْقَالَ حبةٍ مـن خَردلٍ أَتَينَا بِها وكَفَى بِنَا حاسِبِين }[الأنبياء:٤٧].

ويقول:{ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصورِ فَلاَ أَنسـاب بيـنَهم يومئِذٍ ولاَ يتَساءلُون * فَمن ثَقُلَتْ موازِينُه فَأُولَئِك هم الْمفْلِحون }[المؤمنون:١٠١-١٠٢].

فهي العدالة المطلقة التي لا تجعل التفاضل بين النـاس قائما علي أساس النسب كما كان ذلك في الدنيا حينما يعيش الناس في ظل أي منهج غير منهج اا ويؤكد هذا المعنـي

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حينما يقول لفاطمة رضي الله عنها:(اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئا)(١).

ويقول- تعالي- في الحديث القدسي:(يا عبـادي إنـي حرمت الظلم علي نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظـالموا، ياعبادي:كلكم ضال إلامن هديته فاسـتهدوني أهـدكم، يـا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي: كلكم عار إلا من كسوته، فأستكسوني أكسـكم يـا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفرلكم،يا عبادي: إنكم لـن تبلغـوا ضـري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبـادي: لـو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علي أتقي قلـب رجـل واحد منكم ما زادذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صـعيد واحـد فسـألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كمـا ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي: إنما هي أعمـالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيـرا فليحمـد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه(٢).

دعوة المظلوم مستجابة: يقولصلى ا عليه وسلم:(اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اا حجاب(٣).

ويقول أيضا: دعوة المظلوم يرفعها اا فـوق الغمـام، ويفتح لها أبواب السماء.

ويقول اا تعالي: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين(٤).

ويقول: إن اا ليملي للظا لم حتي إذا أخذه لم يفلته ثـم قرأ قوله تعالي:{ وكَذَلِك أَخْذُ ربك ِإذَا أَخَذَ الْقُرى وهِي ظَاِلمةٌ ِإن أَخْذَه أَِليم شَدِيد }(١)[هود:١٠٢]

و در القائل:

لا تظلمن إذاما كنت مقتـدرا فالظلم ترجع عقباه إلـي النـدم

تنـام عينـاك والمظـلوم منتبـه يـدعو عليـك وعين اا لم تنم

العدالة مع غير المسلمين:

المعيار الذي وضعه اا تعالي إنما وضعه لينعم به كل الناس، بل إن اا تعالي استأمن هذه الأمـة علـي إقـرار العدالة بين الناس، فهي المسئولة أمام اا - تعـالي- عـن

إقرار قيم العدل والحق فـي الأرض، يقـول الله تعـالي:{ كَذَلِكَ جعلْنَاكُم أُمةً وسطًا لتَكُونُوا شُهداء علَى النـاسِ ويكُون الرسولُ علَيكُم شَهيدا }[البقرة:١٤٣].

فلا يدفع الحب إلي المحاباة، ولايدفع الكره إلـي الظلـم والجور.

يقول تعالي:{ كُونُوا قَوامِين لِلَّهِ شُهداء بِالْقِسـطِ ولاَ يجرِمنكُم شَنَآن قَومٍ علَى أَلا تَعدِلُوا اعدِلُوا هو أَقْرب لِلتقْوى واتقُوا الله }.

[المـائدة:٨]

يقول أنس- رضي الله عنه-:(كنـا عنـد عمـر بـن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصـر، فقـال: يـا أميـر المؤمنين: هذا مقام العائذ بك. قال مالك؟! قال: أجري عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت فرسي. فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال: فرسي ورب الكعبة فلما دنـا منـي عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة. فقـام إلـي وضـربني بالسوط وهو يقول: تأخذها وأنا ابن الأكرمين؟! وبلغ عمرو ذلك فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فأنفلت منه. فـوالله ما زاد عمر علي أن قال له: اجلس. ثم كتب إلي عمرو: إذا

جاءك كتابي هذا فأقبل ومعك ابنك محمد، وقال للمصـري: أقم حتي يأتيك فدعا عمرو ابنه فقـال: أأحـدثت حـدثا؟ أجنيت جناية؟ قال: لا. قال: فمال بال عمر يكتـب فيـك ؟ فقدما علي عمر، قال أنس: فوا إنا عند عمر و إذا نحـن بعمرو أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هـل يـري ابنه، فإذا هو خلف أبيه ؟ فقال: أين المصري ؟ قال: هأنـذا قال: دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين.

فضربه حتي أثخنه، و نحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتي أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضـربه وعمـر يقـول: اضرب ابن الأكرمين، ثم قال ضعها علي صـلعة عمـرو فواا ماضربك إلا بفضل سلطانه. قال: يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني. قال: أما واا لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتي تكون أنت الذي تدعه يا عمرو:(متي اسـتبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ ثم التفت إلي المصـري وقال: انصرف راشدا فإن رابك ريب فاكتب إلي.

وليس هذا الموقف من عمر- رضي اا عنه- موقفـا فريدا لم يتكرر، وليس هذا نابعا من شخصية عمر، ولكـن هذا ما استقر عليه العمل في سـاحات القضـاء الإسـلامي

حينما أحسن التطبيق العملي لمنهج الإسلام، وبعد ذلك:(أن علي بن أبي طالب- رضي ا عنه- افتقد درعا له كانـت أثيرة عنده(عزيزة عليه) غالية عليه، ثم ما لبث أن وجدها في يد رجل من أهل الذمة(اليهود والنصاري) يبيعها فـي سوق الكوفة.. فلما رآها عرفها وقال: هذه درعي: سـقطت عن جمل لي في ليلة كذا.. في مكان كذا.. فقال الذمي: بـل هي درعي وفي يدي يا أمير المؤمنين.. فقال علي: إنماهي درعي لم أبعها من أحد، ولم أهبها لأحد حتي تصير إليك!! فقال الذمي بيني وبينك قاضي المسلمين فقال علي: أنصفت، فهلم إليه.. ثم ذهبا إلي شريح القاضي، فلما صارا عنده في مجلس القضاء، قال شريح لعلي- رضي ا عنه- ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: لقد وجدت درعي هـذه مـع هـذا الرجل، وقد سقطت مني في ليلة كذا، وفي مكان كذا، وهي لم تصل إليه لا ببيع ولا هبة. فقال شريح القاضي للـذمي: وماتقول أنت أيها الرجل؟ فقال: الدرع درعي وفي يدي ولا أتهم أمير المؤمنين بالكذب.. فالتفت شريح إلي علي وقـال: لا ريب عندي في أنك صادق فيما تقوله يا أمير المـؤمنين، وإن الدرع درعك، و لكن لا بد اك من شاهدين يشهدان علي

صحة ما ادعيت. فقال علي: نعم: مـولاي قنبـر وولـدي الحسن يشهدان.. فقال شريح ولكن شهادة الابن لأبيه لاتجوز يا أمير المؤمنين. فقال علي: يا سبحان الله !! رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته! أما سمعت رسـول الله -صـلى الله عليه وسلم- قـــــــال:(الحسـن والحسـين سيدا شباب أهل الجنة) فقال شريح: بلي يا أمير المؤمنين.. غيـر أني لا أجيز شهادة الوالد لوالده. عند ذلك التفت علي إلـي الذمي وقال: خذها، فليس عندي شاهد غيرهما.. فقال الذمي ولكني أشهد بأن الدرع لك يا أمير المـؤمنين.. ثـم أردف(أضاف) قائلا: يا الله.. أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضيه!! وقاضيه يقضي لي عليه!! أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.. اعلم أيها القاضـي أن الـدرع درع أميـر المؤمنين وأنني أتبعت الجيش وهو منطلـق إلـي صـفين فسقطت الدرع عن جمله الأورق فأخذتها فقال لـه علـي- رضي الله عنه- أما وإنك قد اسلمت فـإني وهبتهـا لـك ووهبت لك معها هذا الفرس أيضا.. ولم يمض علـي هـذا الحادث زمن طويل حتي شوهد الرجل يقاتل الخوارج تحت

راية علي في يـوم النهـروان(معركـةكانت بـين علـي والخوارج) ويمعن في القتال حتي كتبت له الشهادة(١).

ولم يقف العدل عندهم عند حد العدل في الأمور المادية، بل تعدي ذلك إلي الأمور الأدبية والمعنوية. يقول عمر بـن الخطاب لأبي موسي الأشعري(سو بـين الخصـمين فـي مجلسك و إشارتك، و إقبالك!!

ويقف الإنسان مندهشا أمام ما حدث بين علي بن أبـي طالب وعمر بن الخطاب وقد تحاكم علي أمام عمر وكـان الخصم يهوديا، وكان عمر- كعادته- ينادي عليه قائلا: يـا أبا الحسن، فلما ناداه في هذه المرة و هو يتحاكم أمامه ظهر الغضب علي وجه علي فظن عمر أن عليا يتبرم من وقوفه مع اليهودي علي قدم المساواة وعلي هو من هو:حسبا ونسبا وإيمانا وصدقا.

قال عمر لعلي: أكرهت أن يكون خصمك يهوديا؟ فقـال علي- رضي ا‫ عنه-: إنما غضبت لأنك لم تسـو بينـي وبين خصمي اليهودي إذ ناديته باسمه وناديتني بكنيتي!!

و يصف ضرار الصدائي: يصف أمير المؤمنين عليـا كرم ا‫ وجهه وما اتصف به من العدالة والإنصاف للرعية

فيقول:(كان فينا كأحـدنا، يجيبنـا إذا سـألناه، وينبئنـا إذا استنبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا، لا نكـاد نكلمـه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين ويحب المساكين لا يطمع القوي في باطله، ولاييأس الضعيف مـن عدلـه. كان- وا -(غزير العبرة)، طويل الفكرة، يقلـب كفـه و يخاطب نفسه.

الهوامش

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة: أعطي بي أعطـي الأمـان باسمي ثم غدر، استوفي منه: استوفي العمل.(٢) رواه الطبراني.

(١) الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص٩٥.

(٢) صحيح البخاري.

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

(١) رواه مسلم.(٢) رواه مسلم.

(٣) من كتاب(مواقف تاريخية حاسمة) للأستاذ أنور الجندي.

(١) رواه أحمد- بدون الأبيات- وأخرجه مسلم والحـاكم، كلهـم عن أنس والأبيات عزاها ابن كثير لابن جرير الطبـري.(٢) متفـق عليه.

(١) راجع قراءة سورة غافر كلها).

(١) رواه البخاري ومسلم.(٢) رواه مسلم وأحمد.

(٣) رواه البخاري ومسلم من حديث عبد اا بن عباس.

(٤) رواه أحمد والترمذي وحسنه، من حديث أبي هريرة.

(١) رواه البخاري ومسلم.

التفريط في العدل يؤدي بالأمة إلي الهلاك:

فاا - تعالي- إنما استخلف هذه الأمة لتقيم العدل بـين الناس، فإن هي تخلت عن هذه الرسالة، فإنها لم تعد صالحة للا ستخلاف، بل يؤخرها اا لتكون في مؤخرة الأمم و لهذا قالوا:(إن الدولة العادلة تبقي وإن كانت كافرة وإن الدولـة الظالمة تفني وإن كانت مسلمة).

ويقول أبو بكر الصديق- رضي اا عنه-(القوي فيكم ضعيف عندي حتي آخذ الحق منه والضعيف فـيكم قـوي عندي حتي آخذ الحق له). فهو يقرر أن الظالم يكون ضعيفا في ظل الحاكم العادل، والضعيف يكون قويا لأنه صـاحب حق يحميه الحاكم العادل.

و يبين الرسولصلى ا عليه وسلم أن استثناء بعـض الناس من تطبيق الأحكام لاعتبار الفقر أو الغني، أو الشرف أو الوضاعة، هو نوع من الظلم الذي ينـذر الأمـة كلهـا بالهلاك والفناء. فعن عائشة- رضي اا عنها- أن قريشـا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلـم فيها رسول اا -صلى ا عليه وسلم- ؟ ثـم قـالوا مـن

يجتريء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال:(إنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه و إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها(١).

العدل الاجتماعي:

عمل الإسلام علي تقليل الفجوة بين الأغنياء والفقراء فشرع الوسائل التي من شأنها أن ترفع من شأن الفقراء، ومن الوسائل:

١- فرض الإسلام الزكاة لتؤخذ من الأغنياء و ترد للفقراء فقال تعالي:{إِنما الصدقَاتُ لِلْفُقَراءِ والْمساكِين والْعامِلِين علَيها والْمؤَلفَةِ قُلُوبهم وفِي الرقَابِ والْغَارِمِين وفِي سبِيل الله وابن السبِيل فَرِيضةً من الله والله علِيم حكِيم}.

[التوبة:٦٠]

٢- جعل الله للفقراء نصيبا من الفيء(١) قال تعالي:{ ما أَفَاء الله على رسولِهِ مِن أَهل الْقُرى فَلِلهِ ولِلرسول ولِذِي الْقُربى والْيتَامى والْمساكِين وابنِ السبِيل كَي لاَ يكُون دولَةً بين الأَغْنِياءِ مِنْكُم وما آتَاكُم الرسولُ فَخُذُوه وما نَهاكُم عنْه فَانْتَهوا واتقُوا الله إِن الله شَدِيد الْعِقَابِ}[الحشر:٧].

٣- و لما بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معاذ بن جبل- رضي الله عنه- إلي اليمن قال(إنك تأتي قوما أهل كتاب فأدعهم إلي شهادة أن لاإله إلا الله و إني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله - عز وجل- إفترض عليهم خمس صلوات في كل يوم و ليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالي افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم و ترد إلي فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك و كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب(٢).

٤- شرع الإسلام الكفارت، مثل كفارة الظهار، و كفاره اليمين و غيرها.

٥- حذر الله - تعالي- من عدم إطعام المسكين و عـدم الحض علي ذلك، فمن لم يطعم المسكين كان من أهل سـقر المعذبين في النار:{ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ }[المدثر:٤٤:٤٣].

وترك الحض علي إطعام المسكين قرين الكفـر بـالله { خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُـمَّ فِـي سِلْسِـلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَـانَ لَا يُـؤْمِنُ بِاللَّـهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَـى طَعَـامِ الْمِسْـكِينِ }[الحاقة:٣٠-٣٤].

و المجتمع الذي تضيع فيه الفئـات الضـعيفة مجتمـع مذموم{ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا }[الفجر:١٧:٢٠].

العدل في الرضا والغضب:

وذلك بأن يكون حكم الإنسان في رضاه وفـي غضـبه سواء، فلا يكون عادلا بل محسنا في حالة الرضا، ظالمـا جاحدا في حالة الغضب، يقـول الله تعـالي:{ وإِذَا قُلْـتُم فَاعدِلُوا ولَو كَان ذَا قُربى }[الأنعام:١٥٢].

العدل في الشهادة:

وذلك بأن تؤدي الشهادة علـي وجههـا الصـحيح دون تزييف أو تزوير للحقائق، يقول الله تعالي:{ أَشْهِدوا ذَوي عدلٍ منكُم وأَقِيموا الشهادةَ لِلَّهِ }
[الطلاق:٢]

ويقول:{ يا أَيها الَّذِين آمنُـوا كُونُـوا قَـوامِين لِلَّهِ شُهداء بِالْقِسطِ }[المـائدة:٨]

العدل مع النفس:

وذلك بالتوازن بين حق البدن: مـن الراحـة والعنايـة والطعام والشراب، وحق الروح من الزاد الإيماني والعبادات المحضة، ومن جانب آخر يوازن المسلم بين حـق الـنفس

وحق الله ، وحق الأهل والأولاد، فلا يجعل حقا مـن هـذه الحقوق يطغي علي حق آخر فإن في ذلك ظلما.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لبدنك عليك حقا وإن لعينك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا وإن لزورك عليك حقا(١).

العدل بين الأولاد:

ينبغي علي الوالدين أن يعدلوا في معاملاتهم لأولادهـم، فلا ينبغي لهم أن يفضلوا أحد الأبناء علي الآخرين فيعطونه من الهبة أكثر مما يعطوا الآخرين، أو يخصـونه بالعطيـة دون غيره من إخوته فإن ذلك يغرس بذور الحقد والكراهية في قلوب الأولاد فينشيء بينهم العداوة والبغضاء. وقـديما ظن أخوة يوسف أن أباهم يفضل يوسف عليهم ويحبه أكثـر منهم فكان ما كان من الكيد ليوسف ليتخلصوا منه!!

{ لَقَد كَان ِفي يوسفَ وإِخْوتِهِ آياتٌ للسـائِلين * ِإذْ قَالُوا لَيوسفُ وَأَخُوه أَحب ِإلَى أَبِينَا مِنا ونَحن عصبةٌ ِإن أَبانَا لَفِي ضلاَلٍ مبِينٍ * اقْتُلُوا يوسفَ أَوِ اطْرحوه

َأرضا يخْلُ لَكُم وجه َأِبيكُم وتَكُونُوا ِمن بعِدِه قَوم ـا صاِلِحين }[يوسف:٩:٧].

وقد روي الإمام مسلم- رحمه اا تعالي- بسنده ع ـن النعمان بن بشير- رضي اا عنهما- قال: تصدق علي أبي ببعض ماله فقالت أمي عمرة بنت رواحة لا أرضي حت ـي تشهد رسول اا -صلى ا عليه وسلم- فانطلق أب ـي إل ـي النبي-صلى ا عليه وسلم- ليشهده علي صدقته فق ـال ل ـه رسول اا صلى ا عليه وسلم: أفعلت هذا بولدك كله ـم؟ قال: لا. قال: اتقوا اا واعدلوا في أولادكم فرجع أبي ف ـرد تلك الصدقة.

العدل بين الزوجات:

فقد أباح اا تعدد الزوجات وجعل له قيدا لابد منه وهو العدل فيما يملك الإنسان العدل في ـه، يق ـول اا تع ـالي:{ فَانكِحوا ما طَاب لَكُم من النساِء مثْنَى وثُلاَثَ وربَاع فَِإن خِفْتُم َألا تَعِدلُوا فَواحِدةً }[النساء:٣].

أما الميل القلبي إلي إحداهن فهذا مما ليس للإنسان في ـه إرادة، ما لم يبن علي هذا الميل أمرا ماديا، يقول تعالي:{لَن

تَستَطِيعوا أَن تَعدِلُوا بين النساءِ ولَو حرصـتُم فَـلاَ تَمِيلُوا كُل الْميل فَتَـذَروها كَالْمعلقَـةِ وإِن تُصـلِحوا وتَتقُوا فَإِن ا َ كَان غَفُورا رحِيما}[النساء:١٢٩].

أما أن يميل الإنسان إلي إحدي الزوجات فيغدق عليهـا من كل الخيرات ويحرم الأخريات فإن هذا ظلم حرمه اا ، بل ينبغي عليه أن يعدل بينهن في كل الأمور المـادية.

***

عدل الدعاة إلي اا

إقامة الحق والعدل بين الناس هو الهدف الـذي ينشـده الدعاة إلي اا ، وإقرار العدل بين الناس ووضع موازينه لهم هو الرسالة التي كلف اا بها الأمة، فإن أدتها فقـد بلغـت رسالة اا ، وإلا فإنها مسئولة أمام اا عز وجل.

ولكي يقيم الدعاة إلي اا العدل بين النـاس فلابـد أن يكونوا هم أولا من أهل العدل فينصفون غيرهم من أنفسهم، وينصفون أيضا أنفسهم من أنفسهم!!

ويؤكد هذه المعاني ربعي بن عامر حينما أرسله سعد بن أبي وقاص قائد المسلمين في معركة القادسية إلي رستم قائد

جيش الفرس، فدخل عليه ربعي في ثيابه الصفيقة الخشـنة، راكبا فرسه القصيرة الهزيلة، وقد زينـوا مجلـس رسـتم بالنمارق والزرابي والحرير واللآليء الثمينة وعليـه تاجـه المرصع باليواقيت، ولم يزل ربعي راكبا فرسه حتـي داس علي طرف البسـاط ثـم نـزل عنهـا وربطهـا بـبعض الوسـائد، وتقـدم وعليـه سـلاحه فقـالوا: ضع سـلاحك، فقـال: إني لم آتكم وإنمـا جئـتكم حـين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رسـتم: ائذنوا له.

فأقبل يتوكأ علي رمحه فوق النمارق فخـرق عامتهـا برمحه. فقالوا له: ما جاء بكم إلينا؟ فقـال: إن الله ابتعثنـا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلي عبادة الله ومن ضـيق الدنيا إلي سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلي عـدل الإسلام.

***

(١٢) الشـــكر

الشكر هو الإقرار والاعتراف بما أنعم الله تعـالي بـه علي الإنسان وقيل: الشكر هو الثناء علي المنعم بما أولاكه من معروف.

وقال أحد السلف: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقال الجنيد: الشكر ألا تري نفسك أهلا للنعمة.

وقال أيضا حينما سئل عن الشكر: الشـكر ألا يسـتعان بشيء من نعم الله علي معاصيه.

وكان أبو المغيرة- رحمه الله - إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال أصبحنا مغرقين في النعم عـاجزين عـن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا ونتمقت إليه ونحـن إليه محتاجون.

***

أركان الشـكر

الركن الأول:

الاعتراف بالنعمة باطنا: وذلك بأن يعتقد العبد اعتقـادا جازما بأن الله - عز وجل- وحده هو الذي أسبغ عليه نعمه

ظاهرة وباطنة، فإذا ما اعتقد العبد هذا الاعتقاد رأي نفسـه مقصرا في شكر هذه النعم وإن قضي عمره كله في شكرها. فقد جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبيصلى الله عليه وسلم قام حتي تفطرت قدماه فقالـت له- عائشة رضي الله عنها- أتصنع هذا وقد غفر الله لـك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: أفلا أكون عبدا شكورا؟!

وقال النبيصلى الله عليه وسلم لمعاذ: والله إني لأحبـك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني علـي ذكـرك وشكرك وحسن عبادتك(١).

والقلب الذي يستقر فيه هذا الاعتقاد هـو القلـب الـذي يصبر عند البلاء، إذ أنه يعتقد بأن هذه النعم فضل من الله، فإذا سلب إحداها فلا اعتراض علي قضائه، لأنه سلب شيئا هو له أصلا، فيتلقي القلب الشاكر قضاء الله وقدره بالرضا عن الله - عز وجل-.

الركن الثاني:

التحدث بها ظاهرا: فنعم الله - عز وجل- علي الإنسان أكثر من أن تحصي، يقول الله تعالي:{ وَإِن تَعدوا نِعمـةَ الله لاَ تُحصوها }[النحل:١٨].

ويقول:{ وما بِكُم من نعمةٍ فَمِن ا ـ }[النحل:٥٣].

ويقول:{.... وأَيدكُم بِنَصرهِ ورزقَكُم من الطيبـاتِ لَعلكُم تَشْكُرون }.

[الأنفال:٢٦]

ويقول:{... وتَرى الْفُلْك مواخِر فِيهِ ولِتَبتَغُوا مِـن فَضلِهِ ولَعلكُم تَشْكُرون }[النحل:١٤].

ويقول:{ وا ُ أَخْرجكُم مـن بطُـونِ أُمهـاتِكُم لاَ تَعلَمون شَيئًا وجعلَ لَكُم الْسمع والأَبصـار والأَفْئِـدةَ لَعلكُم تَشْكُرون }[النحل:٧٨].

فهذه النعم وغيرها يجب علي الإنسان أن يحـدث بهـا ليظهر فضل اا عز وجل عليه، ففي الحديث التحدث بالنعم شكر وتركها كفر(١).

وكان السلف- رضوان اا عليهم- يسـتنطق بعضـهم بعضا بالشكر، فقد روي أن رجلين من الأنصار التقيا فقـال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟ فقـال: الحمـدا . فقـال النبيصلى ا عليه وسلم قولوا هكذا.

وروي أن رجلا سلم علي عمر بن الخطـاب- رضـي الله عنه- فرد عليه ثم قال له عمر: كيف أصبحت؟ قـال: أحمد الله ، فقال عمر: ذاك الذي أردت.

وقد دخل سفيان الثوري- رحمـه الله - علـي جعفـر الصادق- رضي الله عنه- وقال له: علمني يا ابن رسـول الله مما علمك الله .. فقال له: إذا تظـاهرت الـنعم فعليـك بالشكر وإذا تظـاهرت الـذنوب فعليـك بالاسـتغفار، وإذا تظاهرت الغموم فقل: لا حـول ولا قـوة إلا بالله فخـرج سـ ـ ـفيان وهو يقول ثلاث.. وأي ثلاث.

الركن الثالث:

الاستعانة بها علي طاعة الله : فبقاء النعم التي مـن الله بها علي الإنسان مرهون باستخدامها في طاعة الله ؛ وزوال هذه النعم محقق لا محالـة بتسـخيرها فـي معصـية الله ومحاربته بها.

يقول الله تعـالي:{ لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدنكُم ولَئِن كَفَرتُم إِن عذَابِي لَشَدِيد }.

[إبراهيم:٧]

ويقول:{كُن من الشاكِرِين}[الزمر:٦٦].

ويقول:{مَن يشْكُر فَإِنما يشْكُر ِلنَفْسِهِ ومن كَفَر فَإِن ا َ غَنِي حمِيد}.

[لقمان:١٢]

وروي البخاري ومسلم عن أبي هريـرة- رضـي اا عنه- أنه سمع النبيصلى ا عليه وسلم يقول: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمي، أراد اا أن يبتلـيهم فبعث إليهم ملكا فأتي الأبرص فقال: أي شيء أحب إليـك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قـد قـذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لونا حسنا قال: فأي المـ ـال أحب إليك؟ قال: الإبل- أو قال: البقر- شك مـن الراوي- فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك اا لـك فيهـا، فأتي الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسـن، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، فمسحه فـذهب عنـه وأعطي شعرا حسنا. قال: فأي المـ ـال أحب إليك؟ قـال: البقر: فأعطي بقرة حاملا، وقال: بارك اا اك فيها.

فأتي الأعمي فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يـرد اا إلي بصري فأبصر الناس، فمسحه فرد اا إليه بصـره قال فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شـاة والـدا.

فأنتج هذان وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد مـن البقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتي الأبرص في صورته وهيئته، فقـال: رجـل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليـوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلـد الحسن، والمـال، بعيرا أتبلغ به في سفري فقال: الحقوق كثيرة؛ فقال: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقـذرك النـاس، فقيرا فأعطاك الله؟! فقال: إنما ورثت هذا المـال كـابرا عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلي ما كنـت، وأتي الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهـذا، ورد عليه مثل ما رد هذا فقال: إن كنت كاذبا فصـيرك الله إلي ما كنت.

وأتي الأعمي في صورته وهيئته، فقال: رجل مسـكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري؟ فقال: قد كنت أعمي فرد الله إلي بصري، فخـذ ما شئت ودع ما شئت فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله

عز وجل فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقـد رضـي اا عنك وسخط علي صاحبيك.

وقال أحد العارفين: ومن أعطي أربعا لم يمنع من أربع: من أعطي الشكر لم يمنع المزيد، لقوله تعالي:{ لئن شـكرتم لأزيدنكم} ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول، لقوله تعـالي:{ هو الذِي يقْبلُ التوبةَ عن عِبادِهِ }[الشوري:٢٥] ومـن أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطي المشورة لـم يمنع الصواب لقولهصلى ا عليه وسـلم: لا خـاب مـن استخار ولا ندم من استشار.

شـكر الجـوارح: قال رجـل لأبي حـازم- وكان من العلمـ ـ ـاء الزاهديـن: ما شكر العينين يا أبـا حـازم؟ فقال: إن رأيت بهما شرا سترته وإن رأيـت بهمـا خيـرا أعلنته، قال فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهمـا خيـرا وعيته وإن سمعت بهما شرا دفعته، قال: فما شكر اليـدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما ولا تمنع حقاا هو فيهمـا، قال فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامـا وأعـلاه علما، قال فما شكر الفرج؟ قال:{ والذِين هـم لِفُـروجِهم

حافِظُون * إلا علَى أَزواجِهم أَو ما ملَكَـتْ أَيمـانُهم فَإِنهم غَير ملُومِين }[المعارج: ٢٩:٣١].

قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن علمـت ميتـا تغبطـه استعملت بهما عمله وإن مقت رغبت عـن عملـه وأنـت شاكرا .

ومن الشكر أن يشـكر : من لم يشكر الناس لم يشكر الله الإنسان من أجري الله الخير علي يديه، وفـي الحـديث إن أشكر الناس الله تعالي أشكرهم للناس(١).

وفي الحـديث أيضـا: لا يشـكر الله مـن لا يشـكر الناس(٢).

***

شكر الدعاة إلي الله

نعم الله - عز وجل- علي الدعاة إليه تتميز عن نعمـه علي سائر خلقه، إذ أن من أجل النعم التي أنعـم الله بهـا عليهم، أن اختارهم لأن يكونوا ورثة الأنبيـاء والمرسـلين، وشرفهم بتبليغ دعوته، فهم لا ينسبون لحزب من الأحزاب، ولا يعملون لجهة من الجهات ولكـنهم ينسـبون إلـي الله

ويعملونا ، فهذه نعمة من اا عز وجل بهـا علـيهم دون غيرهم، ونت ثم فقد وجب عليهم شكر هذه النعمة.

والدعاة يعملون في ميدانين: ميـدان الـنفس، وميـدان الدعوة؛ ومن ثم فإنا عليهم نعما في ميدان النفس، ونعمـا في ميدان الـدعوة؛ لـذا فقـد وجـب علـيهم أن يكـون شكرهـ ـما مضاعفا؛ فأما عن شكرهم في ميدان الـنفس، فيجب عليهم ما يجب علـي كـل المسـلمين؛ وأمـا عـن شكرهما في ميدان الدعوة ففيه حالتان:

الأولي: حالة الاستضعاف: ويكون شكر الدعاة في هـذه الحالة بالرضا بما يقدر اا من ابتلاءات، فلا يكفر الداعيـة بنعمة الدعوة عند أول ابتلاء.

الثانية: حالة التمكين: ويكون شكر اا في هذه الحالـة بالتواضعا ، وإرجاع الفضل في ذلك إلي اا وحده، لا إلي براعة التخطيط!! ولا إلي دقة التنظيم!! ولا إلـي عبقريـة التفكير!! يقول اا تعالي- عن سليمان عليه السـلام-{ قَالَ هذَا مِن فَضل ربي لِيبلُونِي أَأَشْكُر أَم أَكْفُر ومن شَكَر فَإِنما يشْكُر لِنَفْسِهِ ومن كَفَر فَإِن ربي غَنِي كَـرِيم }[النمل: ٤٠].

ويقول تعالي- عن إبراهيم عليه السلام-:{ إِن إِبراهِيم كَان أُمةً قَانِتًا ِ حنِيفًا ولَم يك مِن الْمشْرِكِين شَـاكِرا لأنْعمِهِ اجتَبـاه وهـداه إِلَـى صِـراطٍ مسـتَقِيمٍ }[النحل:١٢١:١٢٠].

***

(١٣) الصبر

الصبر هو حبس النفس علي الطاعة ا ، وحبسها عـن معصيته، وحبسها عن الجزع عند النوازل.

فضـله:

١- مدح ا الصابرين ووعدهم بالأجر العظيم فقال عز من قائل:{ إِنما يوفى الصابِرون أَجرهم بِغَيرِ حِسابٍ }[الزمر:١٠].

٢- وعـد ا الصـابرين بمعيتـه ونصـره، فقـال تعالي:{اصبِروا إِن ا َ مع الصابِرين}[الأنفال:٤٦].

٣- جعل الله الإمامة في الدين ثمرة للصبر واليقين، فقال تعالي:{وجعلْنَا مِنْهم أَئِمةً يهدون بِأَمرِنَا لَما صبروا وكَانُوا بِآياتِنَا يوقِنُون}[السجدة:٢٤].

٤- أخبر الله تعالي أن الصبر خير لأهله وأفضل، فقال تعالي:{ولَئِن صبرتُم لَهو خَير للصابِرِين}[النحل:١٢٦].

٥- وأخبر الله تعالي بأن مع الصبر والتقوي لا يضر كيد الكائدين. فقال تعالي:{وإِن تَصبِروا وتَتقُوا لاَ يضركُم كَيدهم شَيئًا إِن اللَّه بِما يعملُون محِيطٌ}[آل عمران:١٢٠]

٦- علق الله - تعالي- الفلاح بالصبر والتقوي فقال:{ يا أَيها الَّذِين آمنُوا اصبِروا وصابِروا ورابِطُوا واتقُوا اللَّه لَعلَّكُم تُفْلِحون}[آل عمران:٢٠٠].

٧- أخبر الله تعالي عن محبته للصابرين فقال تعالي:{والله يحِب الصابِرِين}[آل عمران:١٤٦].

٨- بشر الله تعالي الصابرين بالصلاة عليهم والرحمة لهم والهداية، فقال عز من قائل:{ وبشِّرِ الصابِرِين * الَّذِين إِذَا أَصابتْهم مصِيبةٌ قَالُوا إِنا لِلَّهِ وإِنا إِلَيهِ

راجِعون * ُأولَئِك علَيهم صلَواتٌ من ربهم ورحمـةٌ وُأولَئِك هم الْمهتَدون }.

[البقرة:١٥٥:١٥٧]

٩- جعل ا الفوز في الآخرة جزاء الصبر في الـدنيا فقال تعالي:{ِإني جزيتُهم الْيوم ِبما صبروا َأنهـم هـم الْفَاِئزون }[المؤمنون:١١١].

١٠- خص ا - تعالي- أهل الصـبر وأهـل الشـكر بالانتفاع بآياته تعالي فقال تعالي:{ِإن ِفي ذَِلك لَآياتٍ لكُل صبارٍ شَكُورٍ }[الشوري:٣٣].

الصبر قوة: ليس الصبر من معاني الضـعف والهـوان والاستسلام، ولكنه دليل علي قوة الإنسان، قوتـه النفسـية، وقوته الإيمانية والعقائدية، والبدنيـة. يقـول ا تعـالي:{ لَتُبلَون ِفي َأموالِكُم وَأنْفُسِكُم ولَتَسمعن ِمن الِذين ُأوتُوا الْكِتَاب ِمن قَبِلكُم وِمن الِذين َأشْركُوا َأذًى كَِثيـرا وِإن تَصِبروا وتَتقُوا فَِإن ذَِلك ِمـن عـزِم الْأمـورِ}[آل عمران:١٨٦].

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشـد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الناس علي قدر دينهم فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضـعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتي يمشي علـي الأرض ما عليه خطيئة(١).

وقالصلى الله عليه وسلم: مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرمها مرة وتعدلها أخري حتي يأتيه أجله. ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة علـي أصـلها لا يصيبها شيء حتي يكون انجعافها مرة واحدة(٢).

سـنة الابتلاء:

الابتلاء بالسراء والضراء سنة من سنن الله تعالي- في خلقه، فأحوال الإنسان متغيرة متقلبة، فهو اليوم فقير وغدا قد يكون غنيا، وهو اليوم مريض وغدا قد يكون صحيحا، وهو اليوم ذو سلطان، وغدا يزول عنه سلطانه.

يقول الله تعالي:{ا لنبلونكم بشـيء مـن بخـوفا الجوعا نقص من الأموالا الأنفسا الثمـراتا بشـر بصابرين* بذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا ا إنا إليـه راجعون}[البقرة:١٥٦:١٥٥].

لمــاذا يبتلي الله عباده:

قد يكون الابتلاء تكفيرا لسيئات الإنسان ومغفرة لذنوبــه وتعجيلا للعقوبة له في الدنيا حتي يلقي الله - عز وجل- وقد أدي ما عليه.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتـي يوافي به يوم القيامة(١).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضـي الله عنهمـا عـن النبيصلى الله عليه وسلم قال: ما يصيب المسلم من نصب(تعب) ولا وصب ولاهم ولا حزن ولا أذي ولا غـم حتـي الشوكة بشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه(٢).

وقد يكون الابتلاء لرفع درجات العبد عند الله تعـالي، ومن هذا المنطلق فإن الأنبياء هم أشد الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل، وعلي هذا فلا يعني الـبلاء أنـه انتقـام مـن الله وغضب بل قد يكون رضي منه تعالي علي العبـد، وفـي الحديث: إذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضـا، ومن سخط فله السخط(٣).

ويقول صلى ا عليه وسلم: من يرد اا به خيرا يصب منه(٤).

وفي الحديث أيضا: يود أهل العافية يوم القيامة، حـين يعطي أهل البلاء الثواب، لو أن جلـودهم كانـت قرضـت بالمقاريض(٥).

وعن عبد اا بن مسعود رضي اا عنه قـال: كـأني أنظر إلي رسول اا صلى ا عليه وسلم يحكي نبيـا مـن الأنبياء- صلوات اا وسلامه عليهم- ضربه قومه فـأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول اللهم اغفـر لقـومي فإنهم لا يعلمون(٦).

الصبر الذي يثيب اا عليه:

لا يتحقق أجر وفضل الصبر بمجرد نزول البلاء، ولكن الحد الأدني من الصبر المقبـول هـو حبس الـنفس عـن الجزع وحبس اللسـ ـان عن النطق بما لا يرضـي اا ، وحبس القلب عن الاعتراض علي قدر اا ، وأعلي درجات الصبر هو الرضا المطلق، والاطمئنان الكامل بقدر اا ، أما أن يتلقي العبد البلاء بالجزع والكفر والاعتراض علي قضاء اا وقدره ثم بعد ذلك يقول أنا صابر!! فهذا لـيس صـبرا

يثيب اا   عليه أهل البلاء، فعن أنس- رضـي اا   عنـه- قال: مر النبيصلى ا   عليه وسلم علي امرأة تبكي عند قبر فقال: اتقي اا   واصبري فقالت: إليك عني فإنك لم تصـب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبيصـلى ا   عليـه وسلم فأتت باب النبيصلى ا   عليه وسلم فلم تجـده عنـده بوابين فقالت: لم أعرفك فقال: إنما الصبر عنـد الصـدمة الأولي(١).

وعن عائشة- رضي اا   عنها- أنها سألت رسـول اا   صلى ا   عليه وسلم عن الطاعون: فأخبرها أنه كان عـذابا يبعثه اا   تعالي علي من يشاء فجعلـه اا   تعـالي رحمـة للمؤمنين؛ فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلـده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب اا   له إلا كان له مثل أجر الشهيد(٢).

وعن أبي هريرة رضي اا   عنـه أن رسـ ـ ـول اا   صلى ا   عليه وسلم قال: يقول اا   تعالي: مـا لعبـ ـ ـدي المؤمن عنـ ـدي جـ ـزاء إذا قبضت صفيه من أهـ ـ ـل الدنيـ ـا ثم احتسـ ـبه إلا الجنـ ـة(٣).

شكوي العبد إلي الله: حديث العبد إلي الناس عن بلائـه ومحنه علي سبيل الضجر والشكوي يتنافي مـع الصـبر، ويحبط ثوابه، أما شكوي العبد إلي الله تعالي فلا يتنافي مع كمال الصبر والرضا، فيعقوب عليه السلام بعـد أن قـال:{ فَصبر جمِيلٌ }[يوسف:٨٣]. قال:{ ِإنمـا َأشْـكُو بثـي وحزِني ِإلَى ا ِ }.[يوسف:٨٦]

وكذلك قول أيوب عليه السلام:{ َأني مسـِني الضـر وَأنتَ َأرحم الراحِمِين }[الأنبياء:٨٣].

وقد قال الله تعـالي عنه:{ ِإنا وجدنَاه صابِرا نعـم الْعبد ِإنه َأواب }

[ص:٤٤]

وأما إذا كان كلام العبد عن بلائه ومحنه لطلب الدعاء له بذهاب الغم والنصب وليس علي سبيل الشكوي، فهذا ممـا رخص فيه. فعن عطاء بن أبي رباح قال: قـال لـي ابـن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت بلي. قال: هـذه المرأة السوداء أتت النبيصلى الله عليه وسلم فقالـت: إنـي أصرع وإني أتكشف فادع الله لي. قال: إن شئت صـبرت

ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف فدعا لها(١).

الهوامش

(١) من كتاب صور من حياة التابعين للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا.

(١) الفيء هو ما أخذه المسلمون من الكفار دون قتال.

(٢) رواه الجماعة عن ابن عباس.

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان وهو صحيح(راجع صحيح الجامع).

(١) أخرجه أحمد في المسند.

(١) رواه أحمد بسند رواته ثقات.(٢) رواه الترمذي وصـححه، ورواه غيره.

(١) رواه ابن حبان.(٢) رواه مسلم، ومعني انجعافها: قلعها.

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.(٢) متفق عليه، والوصب: المرض.

(٣) رواه الترمذي وحسنة.(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه الترمذي.(٦) متفق عليه.

جزاء الصابرين في الدنيا:

قد يعجل اا للصابرين بعض الجزاء في الدنيا فضـلا عما يدخره لهم في الآخر.

فعن أم سلمة رضي اا عنها قالت: سمعت رسول اا صلى ا عليه وسلم يقول: ما من مسـلم تصـيبه مصـيبة فيقول ما أمره اا : إنااا وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها إلا أخلفه اا خيرا منها، فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟، أول بيت هاجر إلي رسول اا -صلى ا عليه وسلم- ثم إنـي قلتها فأخلف اا لي رسول اا صلى ا عليه وسلم(٢).

وعن أنس- رضي اا عنه- قال: كـان ابـن لأبـي طلحة- رضي اا عنه- يشتكي، فخرج أبو طلحة فقـبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابنـي؟ قالـت أم سليم- وهي أم الصبي-: هو أسكن ما كان فقربت له العشاء ثم أصاب منها فلما فرغ قالت: واروا الصبي فلما أصبح أبو طلحة أتي رسول اا -صلى ا عليه وسلم- فأخبره. فقال: أعرستم الليلة؟ قال: نعم، قال: اللهم بـارك لهمـا فولـدت غلاما، فقال لي أبو طلحة: احمله حتي تأتي به النبيصـلى

ا عليه وسلم وبعث معه تمرات. فقال أمعه شـيء؟ قـال: نعم، تمرات، فأخذها النبيصلى ا عليه وسلم فمضغها ثـم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي ثم حنكه وسـماه عبـد اا .

وفي رواية للبخاري: قال ابن عيينة: فقال رجـل مـن الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن- يعنـي من أولاد عبد اا المولود(١) ولنا في قصة أيوب- عليـه السلام- العبرة والعظة؛ فقد كان أيوب- عليه السلام- رجلا كثير المـ ـال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشي، وكان له أولاد وأهلون كثير، فابتلاه اا في ذلك كله، فسلبه منه، وابتلاه في جسده بأنواع البلاء، فصبر علي كل ذلك واحتسب، وكان ذاكرا ا - عز وجـل- فـي ليلـه ونهاره، وصباحه ومسائله؛ فدعا ربه فعوضه اا عن أولاده وأمواله خيرا مما كان.

يقول اا تعالي:{ وَأَيوب ِإذْ نَادى ربه َأني مسـِني الضر وَأنتَ َأرحم الراحِمِين * فَاستَجبنَا لَه فَكَشَفْنَا ما بِهِ مِن ضر وآتَينَاه َأهلَه ومِثْلَهم معهم رحمـةً مـن عِنْدِنَا وذِكْرى ِللْعابِدِين }[الأنبياء:٨٣:٨٤].

ويقول:{ واذْكُر عبدنَا أَيوب إِذْ نَـادى ربـه أَنـي مسنِي الشيطَان بِنُصبٍ وعذَابٍ * اركُض بِرِجلِك هذَا مغْتَسلٌ بارِد وشَراب * ووهبنَا لَه أَهلَه ومِثْلَهم معهم رحمةً منا وذِكْرى لِأُولِي الأَلْبابِ * وخُذْ بِيدِك ضِغْثًا فَاضرِب بهِ ولاَ تَحنَثْ إِنا وجدنَاه صابِرا نعم الْعبـد إِنه أَواب }[ص:٤٤:٤١].

أنواع الصبر:

١- الصبر علي الطاعة: وهو أكمل من الصـبر علـي اجتناب المحرمات وأفضل، وذلك لأنه ما تركت طاعـة إلا لاقتراف معصية، فيكون تركه للطاعة وعدم صبره عليهـا هو بداية الوقوع في المعصية، ومن العبادات ما لا يصـبر عليها العبد بسبب الكسل، مثل الصلاة، ومنها ما لا يصـبر عليها بسبب البخل مثل الزكاة ومنها ما لا يصـبر عليهـا بسبب الكسل والبخل مثل الحج، ومنها ما لا يصبر عليهـا بسبب الجبن والهلع مثل الجهاد فـي سـبيل االله ، والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه العبادات إنما تحتاج إلي أن يصبر عليها العبد في البداية حتي يتذوق حلاوتهـا، فإن تذوق حلاوتهـا، ووجـد سعادته فيهـا عز عليه أن يتركهـا؛ فهـو لا يسـتطيع أن يصبر عنها، يقول اا تعالي:{ا أمر أهلـك بالصـلاةا اصطبر عليها}[طـ ـه:١٣٢].

ويقول:{ا استعينوا بالصبرا الصلاةا إنها لكبيرة إلا علي بخاشعين}.

[البقرة:٤٥]

٢- الصبر علي المعاصي: وهو صبر اختيار ورضـا ومحاربة للنفس ومجاهدة لها، ولاسيما مع الأسـباب التـي تدعو إلي موافقة النفس علي المعصية؛ كالشاب الذي يجـد أمامه كل دواعي الفاحشة؛ وأشد أنواع الصبر هو الصـبر عن المعاصي التي صارت مألوفـة بالعـادة، فاستسـاغها المجتمع، وربما عدها من المعروف الذي يجب الأمر به!!

فمخالفة المجتمع في هذه الحالة لا تكون بالأمر السـهل، يقولصلى ا عليه وسلم: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات(١).

٣- الصبر علي النوازل: وهي المصائب التي يبتلي الله بها عبده، كأن يسلب منه نعمة من نعمه عليه، ليبلوه أيصبر أم يجزع؟

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: عجبا لأمر المؤمن!! إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له(٢).

ويقول الله تعالي في الحديث القدسي: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم أحتسبه إلا الجنة(٣).

ويقول أيضا: ابن آدم: إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولي لم أرض ثوابا دون الجنة(٤).

ويقول أيضا: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة(١)(وحبيبتاه: عيناه).

ويقول كذلك: إذا ابتليت عبدي المؤمن ولم يشكني إلي عواده أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، ثم يستأنف العمل(٢).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائـه: أسألك من اليقين ما تهون علي به مصائب الدنيا(٣).

ويقول صلى الله عليه وسلم: من يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر(٤).

***

صبر الدعاة إلي الله

يقول الله تعالي:{ولقد كذبت رسل من قبلك فصـبروا علي' ما كذبوا وأوذوا حتي' أتـاهم نصـرنا ولا مبـدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين}.[الأنعام:٣٤]

ويقول:{ ولَقَد نَعلَم أَنك يضِيقُ صدرك بِما يقُولُون * فَسبح بِحمدِ ربك وكُن من الساجِدِين واعبد ربـك حتى يأْتِيك الْيقِين}[الحجر:٩٧:٩٩].

ويقول:{ فَاصبِر إِن وعد الله حـق ولاَ يسـتَخِفنك الذِين لاَ يوقِنُون }.

[الروم:٦٠]

ويقول:{لَنَبلُونكُم حتـى نَعلَـم الْمجاهِـدِين مِـنْكُم والصابِرِين ونَبلُو أَخْباركُم}[محمد:٣١].

ويقول:{ أَحسِب الناس أَن يتْركُوا أَن يقُولُوا آمنـا وهم لاَ يفْتَنُون * ولَقَد فَتَنا الذِين مِن قَبِلهم فَلَيعلَمن ا ُ الذِين صدقُوا ولَيعلَمن الْكَاذِبِين }.
[العنكبوت:٢:٣]

ويقول تعالي:{ أَم حسِبتُم أَن تَدخُلُوا الْجنةَ ولَما يأْتِكُم مثَلُ الذِين خَلَوا مِن قَبِلكُم مستْهم الْبأْساء والضـراء وزلْزِلُوا حتى يقُولَ الرسولُ والذِين آمنُوا معه متَـى نَصر ا ِ أَلاَ إِن نَصر ا ِ قَرِيب}[البقرة:٢١٤].

وقال تعالي:{ لَتُبلَون فِي أَموالِكُم وأَنْفُسِكُم ولَتَسمعن مِن الذِين أُوتُوا الْكِتَاب مِن قَبِلكُم ومِن الذِين أَشْركُوا أَذًى كَثِيرا وإِن تَصبِروا وتَتقُوا فَإِن ذَلِك مِـن عـزمِ الْأُمورِ}[آل عمران:١٨٦].

وهذه الآيات وغيرها تؤكد علي أن ابـتلاء اا - عـز وجل- للدعاة أمر لابد منه، حتي لا يظن أحـد أن طريـق الدعوة مفروش بالورود!! بل هو محفوف بالمكـارة، لأنـه طريق الجنة؛ بل إن الابتلاء علامة السـير فـي الطريـق الصحيح، ما لم يكن هناك تقصير في الإعداد والتخطيط.

وعن مشقات الطريق يقول صاحب الظـلال- رحمـه الله -(إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله ، حتي يأتي موعده، في الوقت الذي يريـده بحكمتـه. وفـي الطريق مشقات كثيرة. مشقات التكذيب والتعذيب، ومشقات الالتواء والعناد، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه، ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون. ثـم مشقات إمساك النفس علي هذا كله راضية مستقرة مطمئنـة إلي وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريـق، مهما تكن مشقات الطريق.. وهو جهد ضخم مرهق يحتـاج إلي عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق- أما المعركة ذاتهـا فقد قضي الله فيها، وقدر أنه هو الذي يتولاها، كما قدر أنه يملي ويستدرج لحكمة يراها. كذلك وعد نبيه الكريم، فصدقه الوعد بعد حين)(١) انتهي.

فلابد من الصبر علي الأذي وطول الطريق والثبات في مواجهة الاستفزاز والتحدي، ولهذا أوصي رسوله في ختـام عدد من السور المكية بالصبر.

ففي آخر سورة يونس:{واتبِع ما يوحى إِلَيك واصبِر حتى يحكُم الله وهو خَير الْحاكِمِين}[يونس:١٠٩].

وفي آخر سورة النحل:{ واصبِر وما صبرك إِلا بِا ـ ولاَ تَحزن علَيهم ولاَ تَك فِي ضيقٍ مما يمكُرون *إِن ا َ مع الَذِين اتقَوا والَذِين هم محسِنُون}.

[النحل:١٢٧:١٢٨]

وفي آخر سورة الأحقاف:{ فَاصبِر كَما صبر ُأولُـ و الْعزمِ مِن الرسل ولاَ تَستَعجِل لهم }[الأحقاف:٣٥].

وفي آخر سورة الطور:{ واصبِر لِحكْمِ ربك فَإِنـ ك بِأَعيننَا وسبح بِحمدِ ربك حِين تَقُوم }[الطور:٤٨].

هل مطلوب من الداعية أن يستجاب البلاء ؟:

يقول د. عبد الكريم زيدان: المطلوب مـ ن الداعيـ ة أن يدعو إلي اا علي بصيرة، بالوسائل والكيفيات المشـ روعة التي بينها القرآن الكريم، وطبقها الرسولصـ لى ا عليـ ه وسلم، فإذا أدت هذه الوسائل إلي الأذي فعلـ ي الداعيـ ة أن يتقبله بالصبر لا بالجزع وبالثبات لا بالفرار(١) انتهي.

أما أن يكلف الداعية نفسه ما لا طاقة لها بـ ه، فيجلـ ب عليها العنت والمشقة بحجة أنه يريد الابتلاء في سبيل اا !! فهذا ما لا يؤيده القرآن ولا السنة المشرفة، بل إن السـ وابق

التاريخية تقول غير ذلك فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالهجرة إلي الحبشة، ثم أمرهم بالهجرة إلي المدينة، وقد رخص الله تعالي في النطق بكلمة الكفر عند الإكراه، وعلي هذا فإن الابتلاء ليس مقصدا ولا هدفا في حد ذاته إنما هو من لوازم السير في الطريق الصحيح.

أهل الرخص وأهل العزائم:

تحت وطأة الابتلاء الذي يتعرض له الدعاة علي الطريق، يجنح البعض إلي الترخص ويميل البعض إلي العزيمة والثبات.

ولكن هناك بعض الرموز التي تكون في موضع التأسي والاقتداء، لا تقبل منها الرخصة، بل لابد من الأخذ بالعزيمة لتترك معالم علي الطريق للأجيال المتلاحقة، وعندما سجن الإمام أحمد بن حنبل في محنته جاءه المروزي تلميذه، وقد طال به الإصرار علي رأيه، والتعذيب فقال له: هؤلاء قدموك للضرب والله يقول:{ ولا تقتلوا أنفسكم} فقال: يا مروزي: اخرج فانظر، قال المروزي: فخرجت ونظرت في وجه دار الخليفة فرأيت خلقا كثيرا، والصحف والأقلام بين أيديهم، فقلت: أي شيء تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد

فنكتبه، فرجع إليه وأخبره. فقال: أأضل هؤلاء!! كـلا بـل أموت ولا أضلهم، قال المروزي:(رجل هانت عليه نفسـه في سبيل الله)(١).

هل القيادة الدعوية مسـئولة عـن حمايـة أفرادها ؟:

دور الداعية هو أن يبين للناس معالم الطريق، فإذا مـا عرفوا الطريق حق المعرفة فهم مسئولون عن تحمل تبعاته وأعبائه، ولكن هذا لا يعفي القيادة من مسئوليتها علي حسن التخطيط ودقة التنظيم، ولكنها بعد ذلك ليست مسئولة عـن حماية الأفراد لأنهم لابد وأن يعرفوا طبيعة الطريق؛ فعـن أبي عبد الله خباب ابن الأرت- رضي الله عنـه- قـال: شكونا إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعـل فيها ثم يؤتي بالمنشار فيوضع علي رأسه فيجعـل نصـفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يرده ذلـك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتي يسير الراكب من صنعاء إلي حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب علي غنمه،

ولكنكم تستعجلون(١) فيبين لهم طبيعة الطريـق، وأنهـا لا تتغير، ولا تتبدل.

عربون الصبر:

قد يري الداعية نتيجة صبره وثمرته وهـو علـي قيـد الحياة، وقد لا يري ثمرة صبره في الدنيا. فها هو يوسـف عليه السلام بعد رحلة طويلة شاقة، وسلسـلة طويلـة مـن الابتلاءات، من محنة الجب إلي محنة النسـاء، ثـم محنـة السجن، ولكن كل هذه المحن لم تصرف يوسف عن دعوته، ولم تضعف من عزيمته، بل ما زادته إلا إصـرارا علـي دعوته، فلم يمنعه السجن من تبليغ دعوته{ يـا صـاحِبي السجن أَأَرباب متفَرقُون خَير أَمِ ا ُ الْواحِـد الْقَهـار *ما تَعبدون مِن دونِهِ إِلا أَسـماء سـميتُموها أَنْـتُم وآباؤُكُم ما أَنْزلَ ا ُ بِها مِن سلْطَانٍ إِن الْحكْم إِلا ِ أَمر أَلا تَعبدوا إِلا إِياه ذَلِك الدين الْقَيم ولَكِـن أَكْثَـر الناسِ لاَ يعلَمون}[يوسف:٣٨:٤٠].

لكن اا - عز وجل- أراد أن يجني يوسف ثمرة صبره وثباته، فخرج يوسف عليه السلام من السـجن إلـي سـدة

الحكم، من السجن إلي الوزارة!! وما ذلك إلا نتيجـة تقـواه وصبره:{إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجـر المحسنين }[يوسف:٩٠].

ومن الصحابة- رضوان الله عليهم- من مات في بداية الدعوة، ولم ير ثمرة جهاده وصبره، ومنهم مـن استشـهد ولقي ربه قبل أن يري بريق النصر والتمكين ومنهم من قدر الله له أن يري ثمرة جهاده وصبره.

***

(١٤) العزة

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته: العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب فقد يتعزز الإنسان بقوته، وقد يتعـزر بماله، أو جاهه. وهذه أمور عارضة؛ والتعزز بهـا تعـزز بأشياء فانية زائلة. فهذه الأحوال: من سنة الله تعـالي فـي خلقه أن جعلها متقلبة، ومن ثم فالتعزز بها ذل.

يقول تعالي:{ من كان يريد الْعِزةَ فَلِلهِ الْعِزةُ جمِيعا }[فاطر:١٠].

يقول الراغب- في مفرداته- معناه من كان يريد أن يعز يحتاج أن يكتسب منه تعالي العزة فإنها له انتهي.

فالإيمان بالله تعالي هو وحده الكفيل بأن يكسب الإنسان العزة.

يقول الإمام أبو الأعلي المودودي- رحمه الله -: ثم إن الإيمان بالله تعالي يرتفع بالإنسـان مـن حضـيض الـذل والهوان إلي أرفع ما يكون من منازل الأنفة وعزة الـنفس. كأن من لم يعرف ربه يطاطئ رأسه لكل شيء في الدنيا إذا رأي فيه نوعا من العظمة والكبرياء أو القدرة علي نفعه أو

ضرره، فكان- علي هذا- يخافه ويمد إليه يـده بالاسـتعانة والاستجداء ويعلق به آماله وأمانيه، ولكنه لمـا عرف الله ربه، علم علم اليقين أن الذين كان يمد إليهم يده ويسـتعينهم في قضاء حاجاته، لا يقلون منه حاجة إلي معونة ربهـم(١) انتهي.

وعلي هذا فالعزة الحقيقية لا تكون إلا للمؤمنين لأنهـم وحدهم الذين يستمدون العزة من الله ورسوله.

يقول الله تعالي:{ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ }[المنافقون:٨].

يقول صـاحب الظـلال- رحمـه الله -: ويضـم الله - سبحانه- رسوله والمؤمنين إلي جانبه، ويضفي عليهم مـن عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ! وأي تكريم بعـد أن يوقف الله - سبحانه- رسوله والمؤمنين معه إلي جواره ويقول: ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء. وهذا هو الصـف العزيز! وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان في القلـب المؤمن. العزة المستمدة من عزته تعـالي. العـزة التـي لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن

في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان. فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة انتهي.

الفرق بين العزة والكبر:

فالعزة تكون بالانتساب إلي هذا الدين، والكبـر يكـون بالتعزز بالأشياء الفانية الزائلة يقولصلى ا عليه وسلم: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه اا لوجهـه في النار(١).

وقال: بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسـه، مرجـل رأسه، يختال في مشيته إذ خسف اا به، فهو يتجلجل فـي الأرض إلي يوم القيامة(٢).

وذلك لأن المتكبر إنما يتخلق بخلاق ليس له، إنمـا هـو صفةا وحده، يقول تعالي:{ فَلِلهِ الْحمد رب السـماواتِ ورب الْأَرضِ رب الْعالَمِين * ولَـه الْكِبرِيـاء فِـي السـماواتِ والْأَرضِ وهـو الْعزِيـز الْحكِـيم }[الجاثية:٣٧:٣٦].

الاعتزاز بالانتساب إلي الإسلام:

لا يوجد شيء يستحق أن يعتز به الإنسان فوق اعتزازه بالانتساب إلي هذا الدين. وقد قيل لسلمان الفارسي: يا سلمان: من أبوك؟ فقال: أنا ابن الإسلام. إن سلمان لم يكن من حسب وضيع ولا حقير، ولكن سلمان رأي أن شرف انتسابه إلي الإسلام يفوق كل شرف آخر.

وإنما ينال المسلم شرف الانتساب للإسلام ويعيش حياة العزة بالإسلام في ظل العمل بما يقتضيه الإسلام، لا بمجرد الانتساب الوراثي!!

وقد روي ابن عبد البر عن الحسن قال: حضر جماعة من الناس باب عمر ابن الخطاب- رضي الله عنه- وفيهم سهيل بن عمرو، وأبو سفيان بن حرب ومشايخ من قريش، فأذن عمر لصهيب وبلال وأهل بدر- وكان يحبهم- فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا؛ فقال سهيل بن عمرو- وكان أعقلهم-: أيها القوم: إني والله قد أري الذي في وجوهكم فإن كنتم غضابا فاغضبوا علي أنفسكم، إنهم دعوا ودعينا(أي إلي الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر فكيف

التفاوت في الآخرة؟! ولئن حسدتموهم علي باب عمر فما أعد الله لهم في الجنة أكبر.

وإنه لما خرج المسلمون لفتح مصر، رغب المقوقس في المفاوضة، فأرسل إليهم وفدا ليعلم ما يريدون، ثم طلب منهم أن يبعثوا إليه وفدا منهم، فشكل عمرو بن العاص- قائد الجيش- وفدا قوامه عشرة مسلمين برئاسة عبادة بن الصامت، وكان عبادة بن الصامت شديد السواد، فلما دخل الوفد علي المقوقس تقدمهم عبادة، فأبي أن يكلمه رجل أسود، وقال لمن معه: نحوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني فقال الوفد جميعا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع إلي قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله، فقال المقوقس: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون دونكم؟

قالوا: كلا إنه وإن كان أسود كما تري، فإنه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة، وعقلا، وليس ينكر السواد فينا.

وهكذا صنع الإسلام من عباد الحجر قادة للبشر، رفعهم الإسلام إلي مكانة ما كانوا ليصلوا إليها لولا تمسكهم

بالإسلام واعتزازهم به، ترى هل كان العـرب الأجـلاف الذين كان فيهم من يعمل لحساب الفرس، ومنهم من يعمـل لحساب الروم، ترى هل كان من الممكن أن يصلوا إلي مـا وصلوا إليه لولا الإسلام؟.

يقول عمر بن الخطاب- رضي الله عنـه-: كنـا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة في غيـره أذلنـا الله انتهي.

وقد ذاقت الأمة مرارة الـذل يـوم أن رأت أن تركهـا لدينها، وتنحيتها له عن الحياة يحقق لها العزة ويذهب عنهـا الفقر وجهلت الأمة حقيقة عظيمة، وهي أن الإسلام هو روح العروبة، الروح التي تسري في جسدها فتحييها من مـوات، تحييها حياة العزة والأنفة، لا حياة الذلة والضعة. فالإسـلام هو الذي أحيا الأمة أول مرة وأعزها، وهو الكفيل اليوم أن يعيدها إلي ما كانت عليه من العزة والقوة.

يقول الله تعالي:{ ولاَ تَهنُـوا ولاَ تَحزنُـوا وأَنْـتُم الأَعلَون إِن كُنْتُم مؤْمِنِين }.

[آل عمران:١٣٩]

يقول صاحب الظلال: ولا تهنوا- من الوهن والضعف- ولا تحزنوا- لمـ ـا أصـابكم ولمـ ـ ـا فـاتكم- وأنـتم الأعلون.. عقيدتكم أعلي فأنتم تسـجدونا وحـده، وهـم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض مـن خلقـه! ومـنهجكم أعلي. فأنتم تسيرون علي منهج من صنع اا ، وهم يسيرون علي منهج من صنع خلـق اا ! ودوركـم أعلـي. فـأنتم الأوصياء علي هذه البشرية كلها، الهداة لهذه البشرية كلهـا، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق، ومكانكم في الأرض أعلي، فلكم وراثة الأرض التي وعـدكم اا بهـا، وهم إلي الفناء والنسيان صائرون.. فإن كنتم مؤمنين حقـا فأنتم الأعلون، وإن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنـوا انتهي.

ومن ثم فقد رفض الإسلام الذلة والهوان لأن ذلك يتنافي مع الإيمان.

فقد روي أنس بن مالك أن رسول اا صلى ا عليـه وسلم قال: من أصبح حزينا علي الدنيا أصبح ساخطا علـي ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنمـا يشـكو اا

تعالي، ومن تضعضع لغني لينال مما في يديه أسخط الله، ومن أعطي القرآن فدخل النار فأبعده الله (١).

بل رفض القرآن حياة الاستضعاف إذا كانت نتيجة لسلبية المستضعفين فيقول الله تعالي:{إِن الَّذِين تَوفَّاهم الْملاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِم قَالُوا فِيم كُنْتُم قَالُوا كُنا مستَضعفِين فِي الأَرضِ قَالُوا أَلَم تَكُن أَرض الله واسِعةً فَتُهاجِروا فِيها فَأُولَئِك مأْواهم جهنم وساءتْ مصِيرا}[النساء:٩٧].

***

عزة الدعاة إلي الله

الدعاة إلي- الله تعالي- إنما ينالون الشرف والعزة بانتسابهم لهذه الدعوة، ولن ينال الدعاة العزة الحقيقية إلا إذا ملأت عليهم الدعوة حياتهم، فكانت قلوبهم متجردة لها، ولها فقط، حينئذ لن يطأطئوا رؤوسهم لمخلوق أيا كان. ولن يكون ذلك إلا إذا استغنوا عن زينة الحياة الدنيا؛ وقد سأل رجل أهل البصرة عن سيدهم؟ فقالوا: الحسن البصري!

فقال: وكيف نال السيادة فيكم؟ قالوا: لقد احتاج الناس إلـي علمه واستغني هو عن دنياهم.

***

(١٥) القناعة

القناعة: أن يرضي العبد بما قسم الله له من رزق، وبما وهب الله له من موهبة، لأنه يؤمن بعدل الله تعالي، وبحكمته في توزيع الأرزاق، ولا يعني ذلك الرضا بالدون، وإماتة الطموح إلي الرقي المادي والمعنوي!! وتقديس الفقر والجوع والحرمان!!!

وإنما تعني القناعة: الاعتدال في طلب الرزق، فلا يرهق الإنسان النفس والبدن معا فيضيع حقوقا كثيرة واجبة عليه، بل يجب أن يجمل العبد في طلب الرزق، ومن الإجمال في طلب الرزق ألا يطلبه إلا من الحلال المشروع وتعني القناعة أيضا: ألا يتطلع الإنسان إلي ما عند غيره تطلع الحاقد الحاسد الذي يريد أن يجمع كل شيء لا تؤهله إليه قدراته ومواهبه.

إن الغني هو الغني بنفسه ولو أنه عاري المناكب حاف

ما كل ما فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فبعض شيء كاف

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ليس الغني عن كثرة العرض ولكن الغني غني النفس(١).

والمقصود بالعرض: هو المال بأنواعه.

وعن عبد الله بن عمر:- رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض(٣).

فلم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم- تعس مالك الدينار!! ولكن قال: تعس عبد الدينار، مما يعني أن الملكية في حد ذاتها لا تتنافي مع القناعة، ولكن أن يكون الدينار متحكما في الإنسان فهي العبودية للمال.

وعن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر كثرة المال هو الغني؟ قلت: نعم. قال: وتري قلة المال هو الفقر؟ قلت:

نعم يا رسول الله. قال: إنما الغني غني القلب، والفقر فقر القلب(١).

قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري. قال ابن بطال: معني الحديث: ليس حقيقة الغني كثرة المال، لأن كثيرا ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغني غني النفس، وهو من استغني بما أوتي وقنع به ورضي ولم يحرص علي الازدياد ولا ألح في الطلب، فكأنه غني انتهي.

وقال القرطبي: معني الحديث: إن الغني النافع أو العظيم أو الممدوح هو غني النفس، وبيانه: أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغني الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم، فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل، والحاصل أن المتصف بغني النفس يكون قانعا بما رزقه الله، لا يحرص علي الازدياد لغير حاجة ولا

يلح في الطلب ولا يلحف في السؤال، بل يرضي بما قسـم الله له، فكأنه واجد أبدا، والمتصف بفقر النفس علي الضـد منه لكونه لا يقنع بما أعطي بل هو أبدا في طلب الازديـاد من أي وجه أمكنه، ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسف، فكأنه فقير من المـال لأنه لم يستغن بما أعطـي فكأنـه لـيس بغني، ثم غني النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالي والتسليم لأمره علما بأن الذي عند الله خير وأبقـي، فهـو معرض عند الحرص والطلب، وما أحسن قول القائل: غني النفس ما يكفيك عن سد حاجة فـإن زاد شـيئا عـاد ذاك الغني فقـرا

قال الحافظ ابن حجر: وإنما يحصل غني النفس بغنـي القلب، بأن يفتقر إلي ربه في جميع أمـوره فيتحقـق أنـه المعطي المـانع فيرضي بقضائه ويشكره علـي نعمائـه ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربـه غني نفسه عن غير ربه تعالي انتهي.

من يستعفف يعفه الله: اكتساب كل صفة من الصـفات تكون بتكلفها وتصنعها في البداية حتي تصير سجية للإنسان

وصفة أصيلة فيه، فإذا أراد العبد أن يكتسب صفة القناعـة فعليه أن يقلد القانعين الأعفاء حتي يصير قانعا عفيفا.

فعن حكيم بن حزام- رضي الله عنه- أن النبيصـلى الله عليه وسلم قال: اليد العليا خير من اليد السـفلي، وأبـدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنـي، ومـن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله (١).

وعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجـل أو آجل(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسـ ـول الله صلى الله عليه وسلم: ليس المسكين الذي يطوف علـي الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يفطن له فيتصـدق عليـه، ولا يقوم فيسأل الناس(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعلم بهن؟ فقال أبو هريرة: قلت: أنـا يـا

رسول الله . فأخذ بيده فعد خمسا فقال: اتق المحـارم تكـن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكـن أغنـي النـاس، وأحسن إلي جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثـرة الضـحك تميـت القلب(١).

وجاء رجل إلي النبيصلى الله عليه وسـلم فقـال: يـا رسول الله : أوصني وأوجز فقال: عليك باليأس ممـا فـي أيدي الناس فإنه الغني، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضـر، وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه(٢).

وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: ألسـت من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله : ألك امـرأة تـأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعـم. قـال: فأنت من الملوك(٣).

ويقولصلى الله عليه وسلم: لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغي لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التـراب ويتوب الله علي من تاب(٤).

ويقول عبـد الله بن مسـعود- رضي الله عنه- مـا من يوم إلا وملك ينادي يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه-: يا بنـي.. إذا طلبت الغني فاطلبه في القناعة فإنها مال لا ينفد، وإيـاك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس فإنك لم تيأس مـن شيء إلا أغناك الله تعالي عنه.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عـن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: سأل موسي ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسـي يحبهـا قال: يارب: أي عبادك أتقي؟ قال الذي يذكر ولا ينسي، قال فأي عبادك أهدي؟ قال: الذي يتبع الهدي. قال: فأي عبـادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه. قـال: فـأي عبادك أعلم؟ قال: الذي لا يشبع من العلم بجمع علم النـاس إلي علمه، قال فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر غفـر. قال: فأي عبادك أغني؟ قال: الذي يرضي بما يؤتي. قـال: فأي عبادك أفقر؟ قال: صاحب مبغوض، قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ليس الغني عن ظهر، وإنمـا الغنـي

غني النفس، وإذا أراد الله بعبد خيرا جعل غناه فـي نفسـه وتقاه في قلبه، وإذا أراد الله بعبد شرا جعـل فقـره بـين عينيه(١).

الهوامش

(١) متفق عليه.(٣،٢) رواهما البخاري.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم ومالك في الموطأ وأبو داود وابن ماجة.

(١) متفق عليه.

(١) رواه مسلم.(٢) رواه مسلم عن صهيب بن سنان.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة.

(٤) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة عن النبيصلى ا عليه وسلم وإسناده صحيح.

(١) رواه البخاري عن أنس بن مالك.

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي، والحاكم وصححه.

(٤) رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري.

(١) في ظلال القرآن جـ ٦ ص٣٦٧١.

(١) أصول الدعوة.

(١) من كتاب(مواقف تاريخية حاسمة) للأستاذ أنور الجندي.

(١) رواه البخاري.

(١) من كتاب الإيمان.

(١) رواه أحمد.(٢) رواه البخاري.

(١) رواه الطبراني.

(١) متفق عليه.(٢) رواه مسلم.(٣) رواه البخاري.

(١) رواه ابن حبان.

قناعة الدعاة إلي اا

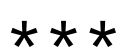
الدعاة إلي اا تعالي- يحتاجون إلي أن تكـون صـفة القناعة متأصلة فيهم، حتي لا يسيل لعابهم لبريق الحياة الدنيا وزخارفها، فيتنازلون عن مبدأ، أو يتخلـون عـن مـنهج. فالداعية ينظر إلي القصور والخزائن والأمـوال لا نظـرة المتطلع إليها، بل نظرة الذي ينظر تحت قدميه فيجد كل هذا فلا يعبأ به أن يطأه بقدميه.

وصفة القناعة في الداعية تجعله في موضع القوة دائما، فهو لا يخاف علي أن يفوته شيء من الدنيا، ولا يطمع فـي أن يجمع شيئا من حطامها.

وفي ذلك يقول الشافعي- رحمه اا -:

أنا إن عشت لست أعـدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي نفس حر تري المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أخاف زيدا وعمرا ؟

وهكذا يتحرر الداعية من كل قيـود الأرض وجـواذب الدنيا والمادة.



(١٦) الحيـــــــاء

الحياء خلق نبيل يبعث دوما علي ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق أصحاب الحقوق. وقال الجنيـد- رحمـه الله - الحياء رؤية الآلاء(النعم) ورؤية التقصير فيولد بينهما حالة تسمي حياء.

الحياء من الإيمان: إنما يكون الحياء أثـرا مـن آثـار الإيمان وثمرة من ثمراته، لأن الأخلاق- عموما تنبثق عـن العقيدة.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإيمـان بضـع وسبعون شعبة- أو بضع وستون- فأفضلها قول لا إلـه إلا الله ، وأدناها إماطة الأذي عن الطريق، والحياء شعبة مـن الإيمان(١).

ومعني ذلك أن الحياء أثر من آثـار الإيمـان. ويقـول أيضا: الحياء والإيمان قرناء جميعا، فإذا رفع أحدهما رفـع الآخر(٢).

وإنما كان الحياء والإيمان قرناء لأن الحياء يمنع صاحبه عن اقتراف المعاصي والآثام؛ وذلك من حقيقـة الإيمـان،

وكذلك إذا خلا القلب من الإيمان لم يستح صاحبه عن اقتراف المعاصي والآثام.

ويقول صلى ا عليه وسلم: الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار(٣).

الحياء خلق سامي يتميز به الإسلام:

يقول صلى ا عليه وسلم: إن لكل دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء(٤).

وإنما كان الحياء خلق الإسلام، لأن جل الأخلاقيات الإسلامية تنتج عن الحياء، من ا ، أو من الناس، أو من النفس.

حياء الرسول صلى ا عليه وسلم: يقول أبو سعيد الخدري- رضي ا عنه-: كان رسول ا -صلى ا عليه وسلم- أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا رأي شيئا يكرهه عرفناه في وجهه(١).

الحياء خير كله: فالحياء ليس له حد يقف عنده- مادام حياء حقيقيا- فعن ابن عمر رضي ا عنهما، أن رسول ا صلى ا عليه وسلم مر علي رجل من الأنصار وهو

يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعه فإن الحياء من الإيمان(٢).

فكأن الرجل يريد أن يقول لصاحبه: إن الحياء قد ضيع عليك حقوقا فخفف من درجته!!

وعن عمران بن حصـين- رضي الله عنهمـا- قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: الحيـاء لا يـأتي إلا بخير(٣).

وقال: الحياء خير كله(٤).

ويقول أيضا: ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه(٥).

الحياء رمز الصلاح: فعن عائشة رضي الله عنهـا، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لها: لو كان الحيـاء رجلا لكان رجلا صالحا، ولو كان الفحش رجلا لكان رجلا سوءا(٦).

وذلك لأن الحياء يدعو صاحبه إلي مكـارم الأخـلاق، وينهاه عن رذائلها والفحش طريق كل فساد، ومن ثـم فـإن نزع الحياء هو بداية الهلاك والعياذ بالله. كمـا جـاء فـي الحديث إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منـه

الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتا ممقتا(مبغضا) فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة، فإذا نزعـت منه الأمانة لم تلقه إلا خائنا مخونا، فإذا لم تلقـه إلا خائنـا مخونا، نزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقـه إلا رجيما ملعنا، فإذا لم تلقه إلا رجيما ملعنا نزعـت منـه ربقه الإسلام(١).

ويقول الفضيل بن عياض: خمس من علامـة الشـقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة فـي الدنياء، وطول الأمل.

وقال يحيي بن معاذ: من استحيا من الله مطيعا، استحيا الله منه وهو مذنب.

الحياء من الله: وإنما يستحي العبـد مـن الله إذا كـان يستشعر مراقبته له واطلاعه علي سره وعلانيته، يقول الله تعالي:{ أَلَم يعلَم بِأَن الله يرى }.

[العلق:١٤]

ويقول:{ إِن الله كَان علَيكُم رقِيبا }[النساء:١].

ويقول:{ يعلَم خَائِنَةَ الأعينِ وما تُخْفِي الصـدور }[غافر:١٩].

ويقول بعض السلف: خف الله علي قدر قدرته عليـك، واستحي منه علي قدر قربه منك.

فإذا ما استشعر الإنسان قرب الله منه، وعلمـه بسـره وعلانيته، انزجر عن حرمات الله، ووقف عند حدوده. فعن عبد الله بن مسـعود- رضـي الله عنـه- قـال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: استحيوا من الله حـق الحياء، قلنا: إنا نستحي من الله يا رسول الله - والحمدلله - قال: ليس كذلك: الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفـظ الرأس وما وعي، والبطن وما حوي، وتذكر الموت والبلي، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، وآثر الآخرة علي الأولي، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء(٢).

الحياء من الناس: ويكون ذلك بكف أذاه عنهم، ورعايـة حقوقهم، كما يكون بترك المجاهرة بالقبيح؛ فالمرء إذا كملت مروأته استحيا من الناس، فعف لسانه، وصـان جوارحـه. ومن الحياء من الناس، أن يعرف لأصحاب الحقوق فضلهم، فيوقر كبيرهم، ويتواضع لعالمهم، ويخفض جناحه لمن هـم دونه في الفضل، وفي الحـديث تواضـعوا لمـن تعلمـون منه(١).

وكذلك اللهم لا يدركني زمان لا يتبع فيـه العلـيم، ولا يستحيا فيه من الحليم(٢).

وأيضا قوله إذا كنت في قوم فتصفحت وجوههم فلم تـر فيهم رجلا يهاب في الله - عز وجل- فاعلم أن الأمـر قـد رق(٣).

الحياء من النفس: ويكون ذلك بالعفة والطهارة، وصيانة الخلوات، وحسن السريرة، والشعور الدائم بمراقبة الله لـه في خلوته وجلوته.

الحياء المذموم: هناك بعض الصور يظن البعض أنهـا من الحياء، وهي ليست من الحياء في شـيء، ومـن هـذه الصور:

١- عدم طلب العلم بحجة الحياء من السؤال: فقد يمتنع الإنسان عن السؤال عن بعض الأمور ظنـا منـه أن هـذا يتنافي مع الحياء. فعن أم سلمة- رضي الله عنها- قالـت: جاءت أم سليم إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالـت: يا رسول الله: إن الله لا يستحيي من الحق، فهل علي المرأة غسل إذا احتلمت؟ فقال: نعم، إذا رأت المـاء(٤).

٢- ترك فعل بعض الأمور المشروعة بـزعم الحيـاء:

فيترك بعض الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو يترك قول الحق، أو يمتنع عن فعل بعـض الأمـور التـي أباحها الشارع- سبحانه وتعالي-. فعن أنس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلي النبيصلى الله عليه وسـلم تعـرض عليه نفسها فقالت: هل لك حاجة في؟ فقالت ابنته(ابنة أنس) ما أقل حياءها!!

فقال: هي خير منك، عرضت نفسها علي رسـول الله صلى الله عليه وسلم(١).

ويقولصلى الله عليه وسلم: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولي: إذا لم تستح فاصنع ما شئت(٢).

ولهذا الحديث توجيهان:

الأول: أن الأمر بأن يفعل الإنسان ما يشاء؛ علي سـبيل التهديد، فيكون المعني: أن الإنسان إذا نزع منه الحياء فقـد يفعل كل شيء دون خجل.

الثاني: أن الأمور المشروعة والتي لم ير الشارع فيهـا بأسا؛ ليس من الحياء الحق أن يتركهـا الإنسـان، فيكـون

المعني: إذا كان الأمر مشروعا فلا تمتنع أن تفعلـه بحجـة الحياء!!

***

حياء الدعاة إلي الله

حياء الدعاة إلي الله تعالي يجب أن يكون زائدا عن حد الحياء عند عامة الناس؛ فيجب أن يكون الدعاة أبعد النـاس عن البذاء والفحش، لأنهم لا يمثلون أنفسـهم بـل يمثلـون دعوة؛ فيجب أن يكونوا ممثلين حقيقيين لها.

ولكن من الحياء الزائف: أن يمتنع الداعية عن أمر غيره بالمعروف ونهيه عن المنكر حياء منه!!

***

(١٧) الإنفاق والسـخاء

فضل الإنفاق في سبيل الله :

١- الإنفاق يغسل العبد من الذنوب: يقول الله تعـالي:{ إِن تُبدوا الصدقَاتِ فَنِعِما هِي وإِن تُخْفُوها وتُؤْتُوهـا الْفُقَراء فَهو خَير لكُم ويكَفر عنكُم من سـيئَاتِكُم والله بِما تَعملُون خَبِير }[البقرة:٢٧١].

ويقول أيضا:{ فَاتقُوا الله مـا اسـتَطَعتُم واسـمعوا وأَطِيعوا وأَنْفِقُوا خَيرا لأَنْفُسِكُم ومن يوقَ شُح نَفْسِـهِ فَأُولَئِك هم الْمفْلِحون * إِن تُقْرِضوا الله قَرضا حسـنًا يضاعِفْه لَكُـم ويغْفِـر لَكُـم والله شَـكُور حلِـيم }[التغابن:١٧:١٦].

ففي الآية الأولي يهيب الله تعالي بعباده لينفقوا علانيـة أو سرا، المهم أن يكون ذلك ابتغاء وجه الله ، ليكـون هـذا الإنفاق جديرا بأن يكفر الله به سيئات العبد.

وفي الآية الثانية يهيب الله بعباده لينفقوا في سـبيل الله ليطهروا أنفسهم من الشح، ثم يهيب بهم ليقرضوه أموالا هي

منة ومنحة منه لهم، يريد مـنهم أن يبـذلوها فـي سـبيله ليضاعفها لهم وليغفر لهم بها.

٢- من أنفق أنفق الله عليه: يقول الله تعـالي:{ ومـا أَنْفَقْتُم من شَيءٍ فَهو يخْلِفُه }[سبأ:٣٩].

فالله تعالي يخاف علي عبده جزاء ما أنفقه، وليس لذلك صورة معينة يخلفها الله علي العبد بل قد يكون ذلـك فـي صورة صحة يفيض الله بها علي جسد العبد؛ وقد يكون في صورة بركة في الأهل، والولد؛ وقد يكون في صورة دفـع لسوء قد يصيب الإنسان؛ وقد يكون في صـورة طمأنينـة النفس ورضاها عن الله، بل قد يكون أيضا في صورة زيادة المـال ونمائه؛ وقد عوتب عبد الله بـن جعفـر لكثـرة عطائه وسخائه فقال: إن الله عودني عادة وعـودت خلقـه عادة، فأخاف أن أقطع العادة فتنقطع العادة.

ويقول الله تعالي:{وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا مـن خيـر يـوف إليكم وأنتم لا تظلمون}[البقرة:٢٧٢].

ويقول:{وما تُنفِقُوا مِن خَيرٍ فَـإِن الله بِـهِ علِـيم}[البقرة:٢٧٣].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: ما من يوم يصبح العباد فيـه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفـا ويقـول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا(١).

وعنه أيضا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: قال الله تعالي: أنفق يا ابن آدم ينفق عليك(٢).

فكرم الله تعالي مبذول للكرماء، وعطاؤه جزيل لأهـل العطاء، وإنفاقه تعالي يعم أهل الإنفاق.

وعن أبي أمامة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن آدم: إنك إن تبذل الفضل خيـر لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام علي كفاف، وابـدأ بمـن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلي(٣).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: من تصدق بعدل تمرة من كسـب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينـه ثـم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتـي تكـون مثـل الجبل(٤).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض فسـمع صوتا في سحابة: أسق حديقة فلان فتنحي ذلـك السـحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة مـن تلـك الشـراج قـد استوعبت ذلك المـاء كله فتتبع المـاء فإذا رجل قـائم في حديقة يحول المـاء بمسحاته فقال له: يا عبد الله مـا اسمك؟ قال: فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يـا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتا فـي السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك فمـا تصنع فيها؟ فقال: أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلي ما يخـرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثا وأرد فيها ثلثه(١).

ويحذر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق- رضي الله عنهما- فيقول: لا توكي فيوكي الله عليك(٢).

ومعني الحديث: لا تدخري ما عندك وتمنعي ما في يدك حرصا وبخلا، فيقطع الله عليك مادة الرزق.

٣- الكرم من شيم الإسلام: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي

الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام وتقرأ السـلام علـي مـن عرفت ومن لم تعرف(٣).

٤- الإنفاق يقي الإنسان من النار: فعن عدي بن حـاتم رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: اتقوا النار ولو بشق تمرة(٤).

٥- المنفقون يغبطهم الصالحون: فعـن عبـد الله بـن مسعود رضي الله عنه، عن النبيصلى الله عليه وسلم قال: لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاة الله مالا فسلطه علي هلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها(٥).

٦- السخي قريب من الله : فالمنفق بما يتعامل بـه مـع الله من القرض، والإنفاق، قريب من الله ، وبما يتعامل بـه مع الناس من الجود والعطاء: قريب من الناس، وبقربه من الله ، وقربه من الناس يكون قربه من الجنة، وبعـده عـن النار، وفي الحديث: السخي قريب مـن الله ، قريـب مـن الناس، قريب من الجنة، بعيد عن النار، والبخيل بعيد مـن الله ، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريـب مـن النـار، ولجاهل سخي أحب إلي الله تعالي من عابد بخيل(٦).

سخاء رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كان الكرم سجية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي الإسلام شيئا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطـاه غنما بين جبلين فرجع إلي قومه فقال: يا قوم: أسلموا فـإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشي الفقر، وإن كـان الرجـل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسـيرا حتـي يكـون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: أنهم ذبحـوا شـاة فقـال النبيصلى الله عليه وسلم: ما بقي منها قالت: ما بقي منهـا إلا كتفها، قال: بقي كلها إلا كتفها(٢).

والمعني أن ما تصدق به هو الباقي عند الله، وأما مـا بقي من التصدق فهو الفاني. وقد روي البخاري عـن ابـن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسـول الله صـلى الله عليه وسلم أجود ما يكون في رمضان حين يلقـاه جبريـل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة.

ذم البخـ ـ ـل:

يقول الله تعالي:{ ها أَنْتُم هؤُلاَءِ تُدعون لِتُنْفِقُوا فِـي سبِيلِ الله فَمِنْكُم من يبخَلُ ومن يبخَلْ فَإِنما يبخَلُ عن نفْسِهِ والله الْغَنِي وأَنْتُم الْفُقَراء }[محمد:٣٨].

يقول صاحب الظلال- رحمه الله - فما يبذله النـاس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلي رصيد، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون. فلا يجـدون إلا ذلك الرصيد المذخور. فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون علي أنفسهم؛ وإنما يقللون من رصـيدهم؛ وإنمـا يستخسـرون المـ ـال في ذاتهم وأشخاصهم؛ وإنما يحرمونهـا بأيـديهم! أجل. فالله لا يطلب إليهم البذل، إلا وهو يريد لهم الخيـر، ويريد لهم الوفر، ويريد لهم الكنز والذخر. وما يناله شـيء مما يبذلون، وما هو في حاجة إلي ما ينفقون انتهي.

والبخل والشح يدفعان الإنسان إلي الهلاك بما يمنعانـه من أداء الواجبات، وبما يدفعانه إلي ارتكـاب المحرمـات حرصا علي المـ ـال. فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات

يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك مـن كـان قـبلكم حملهم علي أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم(١).

يقول الشيخ سعيد حـوي- رحمـه الله -: الشـح مـن الأمراض التي تستحيل معهـا الألفـة والحيـاة الجماعيـة والتعاون فتستباح بسببها العزلة، أرأيت لو أن كـل إنسـان ضن بوقته وماله وما يمتلك فإلي أي حد تبقي معاني التعاون والإيثار والبذل والتضحية والأريحيات والمروءات والعطف والمودة والمحبة والحنان، وإلي أي حد يغاث مسـتغيث، أو يفرج كرب عن مكروب، أو يتجاوب مـع ملهـوف، وأي حيوية للعلاقات تبقي بين أخ وأخ وبين جار وجـار وبـين قريب وقريب. ثم إذا جف الخير من القلوب وعم الشح فمن يجرؤ علي الإقدام علي مشروع خيـري أو مشـروع مـن مشاريع الخدمة؟! ثم إذا عم الشح فكيف يقوم جهاد؟ أو تكون مواساة أو تقوم دولة؟! وكم من الناس وقتـذاك سـيموتون جوعا وعطشا وكمدا، فالعاجز من يقوم بأوده؟ والصغير من يعوله؟ والكبير من يعطف عليه؟ إنه عندما يعم البخل تتردد المرأة في القيام بواجبات الأمومة ويتردد الرجل في القيـام بواجبات الزوجية(٢) انتهي.

إنفاق الدعاة إلي الله

من طبيعة الطريق الذي اختاره الدعاة إلـي الله ، أنـه يحتاج إلي العطاء المتواصل والبذل المتجـدد، والتضـحية الدائمة، فيحتاج الدعاة إلي: البذل الواجب لمراعـاة حقـوق الأخوة، ويحتاجون كذلك إلي الإنفاق لتأليف النـاس علـي الدعوة، ويحتاجون إلي الإنفاق لدفع الفساد والقضاء عليـه، ويحتاجون إلي الإنفاق لنصرة المستضـعفين فـي الأرض، ويحتاجون إلي الإنفاق لنصرة إخوان العقيدة.

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: لقد أتي علينا زمـان وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم(١).

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريـد بغيـر إذنه؟ قال: لا. قال فلستم بإخوان.

وعن زيد بن أسلم- رضي الله عنـه- قـال: لمـــا نزل:{ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا}[البقـرة:٢٤٥، الحديد:١١].

قال أبو الدحداح: فداك أبي وأمي يـا رسـول الله ! وإن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض؟ قال: نعـم يريـد أن يدخلكم الجنة به قال: فإني قد أقرضت ربي قرضا يضـمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة؟ قال: نعم قال: ناولني يدك، فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده. فقـال: إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخـري بالعاليـة. والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضا لله تعالي. قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: اجعل إحـداهما لله والأخـري دعهـا معيشة لك ولعيالك. قال: فأشهدك يا رسـول الله أنـي قـد جعلت خيرهما لله تعالي وهو حائط فيه: ستمائة نخلة. قـال: إذن يجزيك الله به الجنة. فانطلق أبو الدحداح حتي جـاء أم الدحداح وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحـت النخـل فأنشأ يقول:

فقـالت أم الدحـداح: ربح بيعـك! بارك الله لك فيمـا اشتريت! وأجابتـه أم الدحداح وأنشأت تقول:

ثم أقبلت أم الدحداح علي صبيانهاتخرج ما في أفـواههم وتنفض ما في أكمامهم حتي أفضت إلي الحائط الآخر، فقال

النبيصلى ا عليه وسلم: كم من عـذق رداح ودار فيـاح لأبي الدحداح أي في الجنة(١).

وإنما ينفق الدعاة إلي اا تعالي وهم يشـعرون بـالفقر والحاجة إلي اا تعالي؛ فقراء إلي كرم اا بقبول نفقـاتهم، فقراء إلي معية اا ورعايته لهم، يقول اا تعـالي:{ وا ُ الْغَنِي وَأَنْتُم الْفُقَراء وإِن تَتَولوا يستَبدِلْ قَوما غَيركُم ثُم لاَ يكُونُوا َأمثَالَكُم }[محمد:٣٨].

يقول صاحب الظلال- رحمه اا -: واا الغني وأنـتم الفقراء فهو الذي أعطاكم أموالكم، وهو الذي يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها. وهو الغني عما أعطاكم في الدنيا، الغنـي عن أرصدتكم المذخورة في الآخرة، وأنـتم الفقـراء فـي الدارين وفي الحالين. أنتم الفقراء إلي رزقه في الدنيا، فمـا لكم من قدرة علي شيء من الرزق إلا أن يهبكم إياه وأنـتم الفقراء إلي أجره في الآخرة، فهو الذي يتفضل به علـيكم، وما أنتم بموفين شيئا مما عليكم، فضلا علي أن يفضل لكـم شيء في الآخـرة، إلا أن يتفضـ ـل عليكم. ففـيم البخـل إذن وفيما الشـح ؟ وكل ما في أيديكم، وكل ما ينالكم مـن أجر علي ما تنفقون هو من عند اا ، ومن فضل اا ؟ ثـم

الكلمة الأخيرة وهي فصل الخطاب. إن اختيـار الله لكـم لحمل دعوته تكريم ومن وعطاء. فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه.. فـإن الله يسترد ما وهب، ويختار غيركم لهذه المنة ممـن يقـدر فضل الله .

وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم، ثم لا يكونـوا أمثـالكم وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان، وأحس بكرامته علي الله ، وبمقامه في هذا الكون وهو يحمـل هـذا السـر الإلهي العظيم. ويمشي في الأرض بسلطان الله في قلبـه؛ ونـور الله في كيـانه؛ ويـذهب ويجـيء وعليـــه شـارة مـولاه.. وما يطيق الحيـاة وما يعطيها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه، ويطرد مـن الكنف، وتوصد دونه الأبواب. لا بل إن الحياة لتغدو جحيما لا يطاق عند من يتصـل بربه ثم يطبق دونه الحجـاب، إن الإيمان هبـــة ضخمـة، لا يعدلهـــا فـي هـذا الوجود شيء؛ والحياة رخيصة وضيعة، والمـال زهيـد، حين يوضع الإيمان في كفـة، ويوضـع فـي الكفـة

الأخري كل ما عداه.. ومن ثم كان هـ ـذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن، وهو يتلقاه من اا انتهي.

***

الهوامش

(١) متفق عليه.(٢) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

(٣) متفق عليه.

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي في كتاب الزهد وقال الحاكم صـحيح الإسناد.

(٣) رواه مسلم.(٤) متفق عليه من حديث ابن عباس.

(١) أخرجه ابن حبان وإسناده حسن.

(١) رواه الشيخان.(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه أحمد.(٤) رواه مالك في الموطأ.

(١) متفق عليه.(٢) متفق عليه.(٣) متفق عليه.

(٤) في رواية لمسلم.(٥) رواه الترمذي.(٦) رواه الطبراني.

(١) رواه ابن ماجه.(٢) رواه الترمذي.

(١) رواه الطبراني.(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أحمد.(٤) رواه البخاري.

(١) رواه البخاري.(٢) رواه البخاري من حديث أبي مسعود.

(١) متفق عليه.(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم والترمذي، والفضل هو ما زاد علي قدر الحاجة، والكفاف: ما كف عن الحاجة إلي الناس مع القناعة.(٤) متفـق عليـه ومعني فلوه: مهره.

(١) رواه مسلم. والحرة: الأرض التـي بهـا حجـارة سـوداء، الشرجة: هي مسيل المـاء.

(٢) متفق عليه.(٣) متفق عليه.(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.(٦) رواه الترمذي.

(١) رواه مسلم.(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(١) رواه مسلم.(٢) من كتاب(المستخاص في تزكيـة الأنفـس) ص٢٠٩.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(١) من كتاب(الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي حفظه اا .

(١٨) الرحمة

يقول الشيخ عبد اا ناصح علوان الرحمة: هي رقة في القلب، وحساسية في الضمير وإرهاف في الشعور، تستهدف الرأفة بالآخرين، والتألم لهم والعطف عليهم وكفكفة دمـوع أحزانهم وآلامهم... وهي التي تهيب بالمؤمن أن ينفر مـن الإيذاء، وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وبر وسلام للناس أجمعين(١).

الرحمة من صفات اا :

يقول اا تعالي:{ الْحمد ِ رب الْعالَمِين * الرحمن الرحِيمِ }.

[الفاتحة:٣،٢]

ويقول تعالي:{وقُل رب اغْفِر وارحم وأَنـتَ خَيـر الراحِمِين}.

[المؤمنون:١١٨]

والبسملة آية من أول كل سورة- علـي الـرأي الـذي أختاره- وهي تحتوي علي اسمين من أسماء اا الحسـني وهما الرحمن، والرحيم.

ويقول تعالي في الحديث القدسـي: إن رحمتـي تغلـب غضبي(٢). أي أن عفوه عن خطايا البشر يسبق عقابه لهـم وسخطه عليهم.

فاالله تعالي هو أرحم بخلقه من غيره، إذ أنه هو الـذي خلقهم، فهو أرحم بهم من أمهاتهم اللاتي ولدنهم.

وفي الحديث: تتراحم الخلائق حتي ترفع الدابة حافرهـا عن ولدها خشية أن تصيبه(٣).

من الذين ينالون رحمة االله؟

يقول االله تعالي:{ا رحمتيا سعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقونا يؤتون بزكاةا الذين هم بآياتنـا يؤمنـون}[الأعراف:١٥٦].

فهؤلاء هم الذين ينالون النصيب الأكبر من رحمة االله.

وفي الحديث: أن رسول االله صلى ا عليه وسلم قـال: الراحمون يرحمهم الـرحمن، أرحمـوا مـن فـي الأرض يرحمكم من في السماء(١).

وذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فأهل الرحمة يعاملهم االله بالرحمة، وأهل العفو يعاملهم االله بالعفو، وأهل التجاوز

من الناس يعاملهم الله بأن يتجاوز عنهم كما تجـاوزا عـن خلقه.

فعن حذيفة- رضي الله عنه- قال: أتي الله بعبـد مـن عباده آتاه الله مالا فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: ولا يكتمون الله حديثا- قال: يارب آتيتني مالك، فكنـت أبـايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أتيسر علي الموسـر، وأنظر المعسر، فقال الله: أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عـن عبدي؟

فقال عقبة بن عامر الجهني وأبو مسـعود الأنصـاري: هكذا سمعناه من في رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢).

وتصـ ـديقا لمبـ ـدأ الجـ ـزاء من جـ ـنس العمـ ـ ـل يقـ ـول رسـ ـ ـول الله صلى الله عليه وسـلم: مـن لا يرحم الناس لا يرحمه الله (٣).

وعن أبي هريرة- رضـي الله عنـه- قـال: سـمعت الصادق المصدوق، وصاحب هذه الحجرة، أبا القاسمصـلى الله عليه وسلم يقول: لا تنزع الرحمة إلا من شقي(٤).

رحمة الرسولصلى ا عليه وسلم:

جعل اا تعالي الرحمة صفة أصيلة في رسولهصلى ا عليه وسلم، فقال تعالي:{ لَقَد جاءكُم رسولٌ من أَنفُسِـكُم عزِيز علَيهِ ما عنِتم حرِيص علَيكُم بِالْمؤْمِنِين رؤُوفٌ رحِيم }[التوبة:١٢٨].

ويقول تعالي:{ فَبِما رحمةٍ من ا ِ لِنتَ لَهـم ولَـو كُنتَ فَظا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضـوا مِـن حولِـك }[آل عمران:١٥٩].

ويقول تعالي:{ومِنْهم الَّذِين يؤْذُون النبِي ويقُولُـون هو أُذُن قُلْ أُذُن خَيرٍ لكُم يؤْمِن بِا ِ ويؤْمِن لِلْمؤْمِنِين ورحمةٌ للَّذِين آمنُوا مِنْكُم والَّذِين يؤْذُون رسـولَ ا ِ لَهم عذَاب أَلِيم}[التوبة: ٦١].

بل إن اا تعالي أرسل محمداصـلى ا عليـه وسـلم وجعله رحمة لكل البشر، فقال تعالي:{ وما أَرسـلْنَاك إِلا رحمةً للْعالَمِين }[الأنبياء:١٠٧].

يقول الشيخ محمد الغزالي- رحمه اا -: ولقد أراد اا أن يمتن علي العالم برجل يمسح آلامه، ويخفـف أحزانـه

ويرثي لخطاياه، ويستميت فـي هدايتـه، ويأخـذ يناصـر الضعيف، ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها ويخضد شوكة القوي حتي يرده إنسانا سليم الفطرة لا يضري ولا يطغي.. فأرسل محمدا عليه الصلاة والسلام وسكن في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبـر، وفـي طبعـه مـن السهولة والرفق، وفي يده من السخاوة والندي، مـا جعلـه أزكي عبـاد الله رحمـة وأوسـعهم عاطفـة، وأرحـبهم صدرا(١).

رحمة التشريع الإسلامي:

فمن رحمة الله بعباده أن شرع لهم مـا يرفـع عـنهم الحرج، ويجلب لهم المصلحة.

يقول الله تعالي:{نَزلْنَا علَيك الْكِتَاب تِبيانًا لكُل شَيءٍ وهدى ورحمةً وبشْرى لِلْمسلِمِين}[النحل:٨٩].

فالرحمة في اتباع كتاب الله ؛ بتحليل حلالـه، وتحـريم حرامه؛ والبشري في تحقيق معني الإسلام.

ويقول تعالي:{ نُنَزلُ مِن الْقُرآن مـا هـو شِـفَاء ورحمةٌ للْمؤْمِنِين }.

[الإسراء:٨٢]

ففي منهج القرآن رحمة من أمراض القلب التي تجعـل حياة الإنسان عذابا، بما فيه من نار الحقد، والحسد، والقلق، والحيرة، والشك، وعبودية الهوي؛ وفي منهج القرآن رحمة من أمراض النفس التي تجعل حياة الإنسان جحيمـا؛ وفـي منهج القرآن الرحمة من انحراف العقل وشروده؛ وفي منهج القرآن الرحمة لأعضاء الجسد بكفها عما هو من شـأنه أن يصيبها بالضرر، وفي منهج القرآن الرحمة بتشريعاته التي ترفع الحرج والمشقة والعنت عن الناس، وتجعل المصـلحة العامة مقصدا من مقاصده؛ وفي منهج القرآن الرحمة مـن العلل الاجتماعية التي تفتك بالمجتمع وتفقده أمنه وطمأنينته.

وفي الحديث عن رفع الحـرج كمقصـد مـن مقاصـد الشريعة يقول الله تعالي:{ الَّذِين يتبِعون الرسولَ النبِـي الْأُمي الَّذِي يجِدونَه مكْتُوبـا عِنْـدهم فِـي التـوراةِ والإِنْجِيل يأْمرهم بِالْمعروفِ وينْهاهم عـنِ الْمنْكَـر ويحِل لَهم الطيباتِ ويحرم علَيهم الْخَبائِـثَ ويضـع عنْهم إِصرهم والأَغْـلالَ الَّتِـي كَانَـتْ علَـيهم }[الأعراف:١٥٧].

ويقول تعالي:{ يريد ا ُ أَن يخَفِفَ عـنْكُم وخُلِـقَ الإِنْسان ضعِيفًا }.

[النساء:٢٨]

وفي الحديث عن نفي الحرج والمشقة يقول تعالي:{ طه * ما أَنْزلْنَا علَيك الْقُرآن لِتَشْقَى }[طـــه:١،٢].

ويقول تعالي:{ يرِيد ا ُ بِكُم الْيسر ولاَ يرِيـد بِكُـم الْعسر }[البقرة:١٨٥].

***

مجالات الرحمة في تشريعات الإسلام

أولا: تشريع العبادات:

يقول ا تعالي:{ يا أَيهـا الـذِين آمنُـوا اركَعـوا واسجدوا واعبدوا ربكُم وافْعلُوا الْخَير لَعلكُم تُفْلِحـون * وجاهِدوا فِي ا ِ حق جِهادِهِ هو اجتَباكُم وما جعلَ علَيكُم فِي الدين مِن حرجٍ }[الحج:٧٧:٧٨].

يقول ابن كثير- رحمه ا - في تفسير قوله تعالي:{ا ما جعل عليكم في بدين من حرج} أي مـا كلفكـم مـا لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعـل ا لكـم

فرجا ومخرجا فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسـلام بعـد الشهادتين تجب في الحضر أربعا، وفي السفر تقصر إلـي اثنين، وفي الخوف تصلي رجالا(مشاة) وركبانا، مسـتقبلي القبلة وغير مستقبليها. والقيام قيها يسـقط لعـذر المـرض فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلي جنبـه، إلـي غير ذلك من الرخص والتخفيفـات فـي سـائر الفـرائض والواجبات. ولهذا قـال عليـه السـلام: بعثـت بالحنيفيـة السمحة(١) انتهي.

ومن رحمة االله تعالي في تشريع العبادات، أن رخـص في التيمم عند فقدان المـــاء أو العجز عن استخدامه، يقول تعالي:{إِن كُنْتُم مرضى أَو علَى سفَرٍ أَو جاء أَحد منْكُم من الْغَائِطِ أَو لامستُم النساء فَلَم تَجِدوا ماء فَتَيممـوا صعِيدا طَيبا فَامسحوا بِوجوهِكُم وأَيدِيكُم منْه ما يرِيد ا ُ لِيجعلَ علَيكُم من حرجٍ ولَكِن يرِيد لِيطَهركُم ولِيتِم نِعمتَه علَيكُم لَعلكُم تَشْكُرون}[المـــائدة:٦].

وروي الإمام أحمد بسنده إلي عبد الرحمن بـن جبيـر، عن عمرو بن العاص، أنه قال: لمـــا بعث النبيصلى ا عليه وسلم عام ذات السلاسل، قال: احتلمت في ليلة بـاردة

شديدة البرد، فأشفقت. إن اغتسلت أن أهلك، فتيممـت ثـم صليت بأصحابي صـلاة الصـبح. قـال: فلمـا قدمنـا علي رسـول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له فقـال: يا عمرو: صليت بأصحابك وأنت جنـب؟ قال: قلت: يا رسول الله: إني احتلمت في ليلة باردة شـديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فذكرت قول الله تعالي:{ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما} فتيممت ثم صليت بأصحابي: فضحك الرسول ولم يقل شيئا.

ومن التيسير في تشـريع العبـادات، أن رخـص الله للمسافر في الجمع بين الصلاتين تقديما وتأخيرا، وما جعـل ذلك إلا تيسيرا، كما رخص الله للمسافرين في الفطر- فـي رمضان- فقال تعالي:{ فمن كان منكم مريضا أو علي' سفر فعدة من أيام أخر}[البقرة:١٨٤].

ومن رحمة الله أيضا في تشريع العبـادات أن أسـقط فريضتي الزكاة والحج عن غير القادرين عليهما.

ثانيا: في التشريع الاقتصادي:

فقد حرم الإسلام كل ما من شـأنه أن يوجـد الشـقاق والمشقة بين المسلمين، وأمر بكل ما من شأنه أن ينشر فيهم التراحم فيقول الله تعالي:{ يا أيها بذين آمنوا لا تأكلوا بربـا أضـعافا مضـاعفة اتقـوا بلـه لعلكـم تفلحـون}[آل عمران: ١٣٠].

فقد حرم الله الربا رحمـة بالأمـة لأنـه يقـوم علـي امتصاص الأغنياء لدماء الفقراء، فقد جاء في تفسير المنار: فمن رحمة الله وإحسانه إلي خلقه أن حرم الربا ولعن آكلـه ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه وأعلن من لـم يتركـه بحربـه وحرب رسوله ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيـره، ولهذا كان أكبر الكبائر(١).

وقد حرم الإسلام أكل الأموال بالباطل، فقال تعالي:{ يا أيها الذِين آمنُوا لاَ تأْكُلُوا أَموالَكُم بينَكُم بِالْباطِلِ إِلا أَن تَكُون تِجارةً عن تَراضٍ منْكُم ولاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسـكُم إِن الله كَان بِكُم رحِيما }[النساء:٢٩].

قال صاحب تفسير المنار في قوله:(إن الله كـان بكـم رحيما) أي إنه كان بنهيه إياكم عن أكل أمـوالكم بالباطـل

وعن قتل أنفسكم رحيما بكم، لأن في ذلـك حفـظ دمـائكم وأموالكم التي هي قوام مصـالحكم ومنـافعكم، فيجـب أن تتراحموا فيما بينكم ويكون كل منكم عونا للآخـرين علـي حفظ النفس ومدافعة رزايا الدهر(٢).

ومن رحمة اا بالمجتمع أن شرع حد السـرقة، وحـد الحرابة(قطع الطريق) حماية للأمـة مـن اعتـداء القلـة المنحرفة، ففي حد السرقة يقول تعالي:{السارِقُ والسارِقَةُ فَاقْطَعوا َأيدِيهما جزاء بِما كَسبا نَكَـالاً مـن ا ِ وا ُ عزِيز حكِيم}.

[المـ ـائدة:٣٨]

وفي حد الحرابة يقول اا تعالي:{ إِنما جزاء الـذِين يحارِبون ا َ ورسولَه ويسعون فِي الأَرضِ فَسادا َأن يقَتلُوا َأو يصلبوا َأو تُقَطع َأيدِيهم وَأرجلُهم من خِلاَفٍ َأو ينفَوا مِن الأَرضِ ذَلِك لَهم خِزي فِي الدنْيا ولَهـم فِي الآَخِرةِ عذَاب عظِيم}.

[المـ ـائدة:٣٣]

وفي هذا التشريع ردع للفئة المنحرفة، وضرب علي يد المفسدين، وذلك رحمة بالمجتمع كله. أما دعـوي أن هـذه العقوبات تتنافي مع حقـوق الإنسـان!! ومـع الأسـلوب الحضاري! فهي دعوة للتضحية بالمجتمع كله من أجل فئـة قليلة منحرفة. فهل من الرحمة إخافة المـ ـ ـارة! وتهديـد أمنهم! وسلب أموالهم! وهتك أعراضهم! وسفك دمائهم!

ثالثا: في التشريع الاجتماعي:

شرع االله الحدود والقصاص صيانة للمجتمع ورحمة به من عبث المفسدين.

ففي حفظ الأعراض في المجتمـع يقـول االله تعـالي:{ بزانيةا الزاني فاجلدوا كلا احد منهما مائـة جلـدةا لا تأخذكم بهما رأفة في دين بله إن كنتم تؤمنون با ا اليـوم الآخر}[النور:٢].

وفي حفظ الأعراض مـن إلصـاق الـتهم بهـا، قـال تعالي:{ا الذين يرمون بمحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدةا لا تقبلوا لهم شهادة أبداا أولئك هم بفاسقون}[النور:٤].

وفي هذا التشريع ردع لأولئك الذين ينتهكون أعـراض الناس بالاعتداء عليها، أو بإلصاق التهم بها، وفي هذا رحمة للأعراض من أن تنهشها ذئاب البشر.

وفي حفظ الأنفس والدماء: أوجب الله القصاص، حماية للمجتمع وصيانة له، ومع ذلك رغب في العفو والتسامح.

يقول الله تعالي:{ يا أَيها الَّذِين آمنُوا كُتِـب علَـيكُم الْقِصاص فِي الْقَتْلَى الْحر بِالْحر والْعبد بِالْعبدِ والْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمن عفِي لَه مِن أَخِيهِ شَيء فَاتباع بِالْمعروفِ وأَداء إِلَيهِ بِإِحسانٍ ذَلِك تَخْفِيفٌ من ربكُم ورحمةٌ فَمنِ اعتَدى بعد ذَلِك فَلَه عذَاب أَلِيم * ولَكُم فِي الْقِصاصِ حياةٌ يا أُولِي الأَلْبابِ لَعلَّكُم تَتقُون }.

[البقرة:١٧٩:١٧٨]

فما جعل الله القصاص إلا رحمة للمجتمع من نار الثأر وما فيه من ظلم لخير الجاني، ومن إشاعة الفوضـي فـي المجتمع، حيث يفقد المجتمع أمنه واستقراره.

***

من التطبيقات العملية للرحمة

١- الرحمة بالوالدين: ويكون ذلك بخفض الجناح لهما، والقيام علي خدمتهما، وحسن رعايتهما، والتذلل لهما لكسب ودهما.

يقول الله تعالي:{ واخْفِض لَهما جنَاح الذل مِن الرحمةِ وقُل رب ارحمهما كما ربياني صغِيرا }[الإسراء:٢٤].

٢- الرحمة بالنفس: ويكون ذلك بعدم تكليف النفس ما لا تطيق، وإعطاء حق الجسد من الراحة، والتغذية، واجتناب الأطعمة والأشربة التي حرمها الله علي الإنسان، فضلا عن تجنب كل ما من شأنه أن يجلب علي النفس عذاب الله وغضبه.

٣- الرحمة بالأولاد: ويكون ذلك بحسن تربيتهم، انطلاقا من مسئوليته عنهم أمام الله تعالي، يقول الله تعالي:{ يا أَيها الذِين آمنُوا قُوا أَنْفُسكُم وأَهلِيكُم نَارا وقُودها الناس والْحِجارةُ علَيها ملاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِداد لا

يعصون ا َ ما أَمـرهم ويفْعلُـون مـا يـؤْمرون}[التحريم:٦].

كما تكون الرحمة بهم بإشباعهم من العطـف والحـب والحنان.

فعن أبي هريرة رضي اا عنه قال: قبـل رسـول اا صلى ا عليه وسلم الحسن أو الحسين ابن علـي وعنـده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة مـن الولد ما قبلت منهم أحدا قط! فنظر إليه رسول اا صلى ا عليه وسلم وقال: من لا يرحم لا يرحم، وفي رواية أو أملك لك أن نزع اا الرحمة من قلبك(١).

وعن البراء رضي اا عنه قال: أتي أبو بكـر عائشـة وقد أصابتها الحمي. فقال: كيـف أنـت يـا بنيـة؟ وقبـل خدها(٢).

وعن عائشة رضي اا عنها، قالت: قـدم نـاس مـن الأعراب إلي رسول اا صلى ا عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قال: نعم. قالوا: لكنا ما نقبل.. فقـال:صـلى ا عليه وسـلم: أو أملـك إن كـان اا نـزع مـن قلـوبكم الرحمة(٣).

٤- الرحمة بين الزوجين: يقول الله تعـالي:{ ومِـن آياتِهِ أَن خلَقَ لَكُم من أَنفُسِكُم أَزواجا لتَسكُنُوا إِلَيهـا وجعلَ بينَكُم مودةً ورحمةً إِن فِي ذَلِك لآيـاتٍ لقَـومٍ يتَفَكرون }[الروم:٢١].

فخلق الرحمة يجب أن يكون سائدا بين الـزوجين؛ ولا يقال من شأن أحدهما أن يعين الآخر علي أعبائـه المكلـف بها، رحمة به.

٥- الرحمة بالخدم: فعن أبي مسعود الأنصاري البدري: قال: كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صـوتا مـن خلفي: أعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب، فلمـا دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فـإذا هـو يقول: أعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك علـي هـذا الغلام، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالي. فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار(٤).

وجاء رجل يسألهصلى الله عليه وسلم: كم أعفـو عـن الخادم؟ قالصلى الله عليه وسلم: كل يـوم سـبعين مـرة، وقالصلى الله عليه وسلم: من ضرب سوطا ظلما اقتص منه يوم القيامة(٥).

٦- الرحمة بالمستضعفين عند الحـرب: فمـن رحمـة الإسلام في القتال أن نهي عن قتل الأطفال والنساء- الغيـر محاربات- والشيوخ، فهذا أبو بكر الصديق يـودع جـيش أسامة بن زيد ويوصيهم قائلا: لا تقتلوا امرأة ولا شيخا ولا طفلا، ولا تعقروا نخلا ولا تقطعوا شجرة مثمرة، وستجدون رجالا فرغوا أنفسهم في الصوامع فـدعوهم ومـا أفرغـوا أنفسهم له.

٧- الرحمة بالحيوان: شرعت السنة المشرفة، ودعـت إلي الرحمة بالحيوان؛ فأمر الرسولصلى ا عليـه وسـلم بالإحسان في القتل والذبح، فقالصلى ا عليه وسلم: إن اا كتب الإحسان علي كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحـة، وليحـد أحـدكم شـفرته وليـرح ذبيحته(١).

ونهي الرسولصلى ا عليه وسلم عن ركوبهـا لغيـر غرض و منفعة، وقد دخل رسـول اا صـلى ا عليـه وسلمعلي قوم وهم وقوف علي دواب لهم ورواحـل، فقـال لهم:'اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخـذوها كراسـي

لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خيـر مـن راكبها، وأكثر ذكرا الله منه(٢).

وجعلت السنه المشرفة الرحمة بالحيوان سـببا لمغفـرة الذنوب، فقال صلى الله عليه وسلم: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خـرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثري من العطش، فقال الرجل: لقـد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منـي! فنـزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتي رقي فسقي الكلـب، فشكر الله تعالي له فغفر له. قالوا: يا رسول الله: وإن لنـا في البهائم لأجر ا؟ قال: في كل ذات كبد رطبة أجر(٣).

بل قد جعلت السنة المشرفة إيذاء الحيوان سببا في دخول النار، فقال صلى الله عليه وسلم: دخلت امرأة النار في هـرة ربطتها فلم تطعمهـا و لـم تـدعها تأكـل مـن خشـاش الأرض(٤).

أثر التراحم في سعادة البشر

(١) التراحم والتآلف يجمعان القلوب علي أخوة متعاونة متحابة.

يقول تعـالي:{واذْكُروا نِعمتَ ا ِ علَـيكُم إِذْ كُنْـتُم أَعداء فَألَفَ بين قُلُوبِكُم فَأَصبحتُم بِنِعمِتِهِ إِخْوانًا وكُنْتُم علَى شَفَا حفْرةٍ من النارِ فَأَنقَذَكُم منْها كَذَلِك يبين ا ُ لَكُم آياتِهِ لَعلكُم تَهتَدون}[آل عمران:١٠٣].

(٢) الصلح بين المتخاصمين يؤدي إلـي رحمـة تعـم المؤمنين، وتشمل مجتمعهم، فضلا عن رحمة ا لهم يـوم القيامة.

يقول تعالي:{ إِنما الْمؤْمِنُون إِخْوةٌ فَأَصـلِحوا بـين أَخَويكُم واتقُوا ا َ لَعلكُم تُرحمون }[الحجرات:١٠].

(٣) الرحمة تجعل مـن العدوصـديقا حميمـا:يقـول ا تعالي:{ ولاَ تَستَوِي الْحسنَةُ ولاَ السيئَةُ ادفَع بِـالتِي هِي أَحسن فَإِذَا الذِي بينَك وبينَه عداوةٌ كَأَنـه ولِـي حمِيم }[فصلت:٣٤].

***

ضرورة الرحمة للدعاة إلي ا

يعمل الدعاة إلي ا تعالي انطلاقا مـن قلـوبهم التـي تنبض بالرحمة والشفقة علـي النـاس وإرادة الخيـر لهـم

والنصح، وذلك بدعوتهم الي الإسلام، لأن في اتباعهم واستجابتهم لهذه الدعوة نجاتهم من النار، وفوزهم برضوان الله. يقول الله تعالي حكاية عن نوح عليه السلام:{ لَقَد أَرسلْنَا نُوحا إِلَى قَومِهِ فَقَالَ يا قَومِ اعبدوا اللَّه ما لَكُم من إِلَهٍ غَيره إِني أَخَافُ علَيكُم عذَاب يوم عظِيمٍ }[الأعراف:٥٩]

فخوفه عليهم من عذاب الله هو الذي دفعه لأن يهب لإنقاذهم.

وقد رموه بالضلالة، فقال لهم:{ يا قَومِ لَيس بِي ضلاَلَةٌ ولَكِني رسولٌ من رب الْعالَمِين * أُبلغُكُم رِسالاَتِ ربي وأَنصح لَكُم وأَعلَم مِن اللَّهِ ما لاَ تَعلَمون }

[الأعراف:٦١:٦٣]

ويبين جواب نوح عليه السلام كيف أن الدعاة إلي الله تعالي يتحركون بين الناس مبلغين رسالات الله، ناصحين للمدعوين، انطلاقا من حبهم للناس وإرادة الخير لهم، ومن ثم إخراجهم من الظلمات إلي النور رحمة بهم، و هل

يضحي الدعاة إلي اا بأموالهم وأوقاتهم- و أنفسهم أحيانا- إلا ليأخذوا بأيدي الناس الي طريق النجاة؟! وهـل يتحمـل الدعاة إلي اا جميع أصناف الأذي و الأضطهاد إلا لينقذوا الناس من عذاب اا ؟! و قد يكون المدعوون لا يقدرون ما يريد لهم الدعاة من الخير والرحمة فيرمونهم بأصناف الأذي والأضطهاد، يقولصلى ا عليه وسلم: إنما مثلـي و مثـل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه(١).

و لكن الدعاة إزاء هذا التطاول مـن النـاس، يقابلونـه بالعفو والصفح، ويكون شعارهم(اللهم اهد قومنا فـإنهم لا يعلمون).

و بعد هجرة الرسولصلى ا عليه وسلم إلي الطـائف وأثناء رجوعه الي مكة:(أتي جبريل رسولصلى ا عليـه وسلم فقال:(إن اا قد سمع قول قومك لك و مـاردوا بـه عليك، و قد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فـيهم، فنـاداه ملك الجبال وسلم عليه و قال: مرني بما شئت.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقالصلى ا عليه وسلم: بل أرجـو

أن يخرج ا ا من أصلابهم من يعبد ا ا وحده ولا يشرك به شيئا(٢).

و الدعاة الي ا ا تعالي إذا لم تكن الرحمة سجية لهم نفر الناس منهم ومن دعوتهم، هذه عادة الناس أنهم ينفرون من القلب القاسي، الفظ، الغليظ.

يقول ا ا تعالي:{ فَبِما رحمةٍ من ا ِ لِنتَ لَهم ولَو كُنتَ فَظا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضوا مِن حولِك فَاعفُ عنْهم واستَغْفِر لَهم وشَاوِرهم فِي الأمرِ فَإِذَا عزمتَ فَتَوكلْ علَى ا ِ }[آل عمران:١٥٩].

فعلي الدعاة أن يتكلفوا الرحمة و الرفق، إن لم يكونوا رحماء، حتي يكتسبوها و يألفوها و تكون سجية لهم.

يقول صلى ا عليه وسلم: إني لأقوم الي الصلاة وأريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق علي أمه(١).

***

(١٩) الحـ ـ ـلم

الحلم هو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب(١).

فمثيرات الغضب كثيرة، ومن الناس مـن يثـار لأتفـه الأسباب، فيغضب، فيخرجه غضبه عن وعيـه وإدراكـه، فيفعل بعض الأمور التي قدينكرها علي نفسـه فـي حالـة الرضا، ويتخذبعض القرارات نتيجة إغلاق عقلـه وعجـزه عن التفكير السليم، و من الناس مـن لا تثيـره المثيـرات العنيفة، وإذا أثارته تمالك نفسه، فلم يظلم و لم يضرب، ولم يخرج عن وعيه و إدراكه، وهذا هو القوي الشديد، فعن ابن مسعود رضي ا عنه قال: قال رسول اا صلى ا عليـه وسلم مـا تعـدون الصـرعة فـيكم؟ قالـ ـ ـوا الـذي لا تصـ ـرعه الرجال. قال: لا ولكن الذي يملك نفسـه عنـد الغضب(٢).

ولقد حذر الرسولصلى ا عليه وسلم من الغضب الذي يخرج صاحبه عن حد الاعتدال. فعن أبي هريرة رضي ا عنه أن رجلاقال للنبيصلى ا عليه وسلم أوصني قـال: لا تغضب فردد مرارا قال لا تغضب(٣).

فضله:

(١) جعل اا عز وجل الحلم و العفو من صفات المتقين الذين يسارعون ألي مغفرة اا وإلي الجنة فقـال تعـالي:{ وسارعوا إلى مغْفِرةٍ مـن ربكُـم وجنـةٍ عرضـها السماواتُ والأرض أُعِدتْ لِلْمتقِين * الذِين ينْفِقُون فِي السراءِ والضراءِ والْكَاظِمِين الْغَيظَ والْعـافِين عـن الناسِ وا ُ يحِب الْمحسِنِين }.

[آل عمران:١٣٣:١٣٤]

(٢) الحلم يحيل العداوة مودة، يقول اا تعـالي:{ا لا تستوي بحسنةا لا بسيئةا دفع بالتي هي أحسن فإذا بـذي بينكا بينه عداوة كأنها لي حميم*ا ما يلقاها إلا بـذين صبرواا ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم}[فصلت:٣٤-٣٥].

(٣) جعل اا تعالي الصفح والعفو والحلم من علامـات القوة، وليس من علامات الضعف والعجز، قـال تعـالي:{ ولَمن صبر وغَفَر إِن ذَلِك لَمِـن عـزمِ الْأُمـور }[الشوري:٤٣].

(٤) الحلم يحبه اا تعالي: فعن ابن عباس رضـي اا عنهما قال: قال رسول اا صلى ا عليه وسلم لأشج عبـد القيس إن فيك خصلتين يحبهما اا : الحلم والأناة(١).

و عن عائشة رضي الله عنها قالت: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله رفيق يحب الرفق في الأمـر كله(٢).

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب الرفق ويعطي علي الرفـق مـا لا يعطي علي العنف، ومالا يعطي علي ما سواه(٣).

و عنها أيضا قالت: قال رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم: إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه و لا ينزع مـن شيء إلا شانه(٤).

(٥) الحليم العفو يدعوه الله يوم القيامـة ليخيـره مـن الحور العين ما شاء، فعن معاذ بن أنس رضي الله عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كظم غيظا و هـو قادر علي أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعـالي علـي رؤوس الخلائق يوم القيامةحتي يخيره من الحور العين ما شاء(٥).

(٦) جعل الله تعالي الحلم من صـفات عبـاده الـذين يجزون الغرفة بما صبروا، فقال تعالي:{ وعِباد الـرحمن الذِين يمشُـون علَـى الأرضِ هونًـا وإِذَا خَـاطَبهم الْجاهِلُون قَالُوا سلاَما }[الفرقان:٦٣].

(٧) يحرم الله تعالي النار علي كل هين لين سهل، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بمن يحرم علي النار- أوبمن تحرم عليه النار- تحرم علي كل قريب هين لين سهل(١).

(٨) الحلم من صفات الأنبياء والمرسلين: يقول الله تعالي واصفا إبراهيم عليه السلام:{ إِن إِبراهِيم لَحلِيم أَواه مِنِيب }[هود:٧٥].

ويقول واصفا إسماعيل عليه السلام:{ فَبشرنَاه بِغُلاَمٍ حلِيمٍ }

[الصافات:١٠١]

حلم الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلي في الحلم والعفو والصفح الجميل، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله تعالي(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذه شـديدة، فنظـرت إلـي صفحة عاتق النبيصلى الله عليه وسلمو قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته،ثم قال: يا محمـ ـد: مر لي من مـال الله الـذي عندك. فالتفـت إليـه فضـحك ثـم أمـر لـه بعطاء(٣).

ولا يغيب عنا ما فعله من عفو عام عن أهل مكة بعـد فتحها في السنة الثامنة من الهجرة.

***

نماذج من أهل الحلم والعفو

١- حلم عمر بن الخطاب:

علي قدر ما كان عمر بن الخطاب- رضي ا عنـه- قويا في الحق، لا يخشي في اا لومة لائم، علي قـدر مـا كان حليما عفوا، فعن ابن عباس رضي ا عنهما- قال: قدم عيينة بن حصن فنزل علي ابن أخيه الـحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي ا عنه، وكـان القـراء أصحاب مجالس عمر- رضي ا عنه، ومشـاورته كهـولا كانوا أو شبانا. فقـ ـال عيينة لابن أخيه: يا ابن اخي لـك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، فاستأذن، فـأذن لـه عمر. فلما دخل قال: هي يا ابن الخطاب، فواا ما تعطينـا الجزل و لا تحكم فينا بالعدل فغضب عمر رضي اا عنـه حتي هم أن يوقع به. فقال له الحر: يا أمير المـؤمنين: إن اا تعالي قال لنبيهصلى ا عليه وسلم: خذ العفـو وأمـر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإن هذا من الجاهلين، واا ماجاوزها عمر حين تلاها، وكان وقافـا عنـد كتـاب اا تعالي)(١).



وإنما غضب عمر وأراد أن يعاقبه لأنه تجرأ عليه دون أن يكون له ناصحا أو لحقه طالبا.

هوامش

(١) من كتاب(تربية الأولاد في الإسلام) جـ ١ ص٣٦١:٣٦٠.

(٢) رواه مسلم.(٣) رواه البخاري.

(١) رواه أبو داود والترمـذي وقال حديث حسـن صـحيح(من رواية عبـ ـ ـد اا بن عمرو ابن العاص).(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن جرير بن عبد اا .

(٤) رواه أبـو داود واللفظ له، والترمـ ـذي وابن حبـ ـ ـ ـان في صحيحـ ـه وقال الترمـ ـذي حديث حسن.

(١) من كتاب خلق المسلم.

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص٢٣٩.

(١) تفسير المنار جـ ـ ٤ ص١٢٦.(٢) تفسـير المنـار جـ ـ ٥ ص٣٨.

(١) رواه البخاري.(٢) رواه البخاري.(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.(٥) رواه البخاري.

(١) رواه مسلم عن شداد بن أوس.(٢) رواه الدرامي وأبـو داود والإمام أحمد.

(٣) رواه مسلم.(٤) رواه البخاري.

(١) رواه مسلم.(٢) رواه الشيخان.

(١) رواه البخاري عن أبي قتادة بن الحارث، ومعنـي أتجـوز: أتخفف.

(١) مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني.

(٢) رواه مسلم.(٢) رواه البخاري.

(١) رواه مسلم. ومعني الأناة: التثبت وترك العجلة.

(٢) متفق عليه.(٣) رواه مسلم.(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن.(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

٢- حلم أبي بكر الصديق- رضي الله عنه-:

لقد كان أبو بكر لين الطبع يؤثر العفو علي المؤاخـذة، والحلم علي الثأر والانتقام، ولكن رغم ذلـك فـإن موقـف مسطح(وكان من أقاربه) من حادث الإفك- حـين خـاض مسطح مع الخائضين فيه- غضب أبو بكر وأقسم ألا ينفـق عليه فنزل القرآن ليرد أبا بكر إلي صوابه وحلمه وعفـوه، فقال تعالي:{ولا يأتل أولوا بفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي بقربي والمساكين والمهاجرين فـي سـبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبـون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم}

[النور:٢٢]

فرجع أبو بكر مرة أخري للإنفاق علي مسطح.

٣- حلم أبي ذر- رضي الله عنه-:

فقد روي أن رجلا شتم أبا ذر- رضي الله عنه- فقـال له: يا هذا لا تستغرق في شتمنا ودع للصلح موضعا.. فإنـا لا نكافيء من عصي الله فينا بأكبر من أن نطيع الله فيه.

٤- حلم الشعبي الفقيه- رحمه الله -:

شتم رجل الشعبي فقال له: إن كنت صادقا يغفر الله لي، وإن كنت كاذبا يغفر الله لك.

٥- حلم ضرار بن القعقاع:

قال رجل له ذات يوم: والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا.. فقال له ضرار: والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة!

٦- حلم الشافعي- رحمه الله -:

روي أن الشافعي- رحمه الله - خرج ذات يوم من المسجد فقال له رجل: يا شافعي: قال: لبيك. قال: أنت فاسق!

فقال الشافعي: اللهم إن كنت كما قال فتب علي. وإن لم أكن كما قال فاغفر له.

وفي اليوم الثاني: حدث كما حدث في اليوم الأول، وفي اليوم الثالث كذلك.

فقال له الشافعي: يا هذا: إن العالم كالشجرة، والعلم كالثمرة. فخذ الثمرة ولا شأن لك بالشجرة، فعاتبه صاحب له: أما كان لك أن ترد عليه؟!

فقال الشافعي:

يخاطبني السفيه بكل قبح وآبي أن أكون لـه مجيـبا

ويزيد سـفاهة وأزيد حلمـا كعـود زاده الإحـراق طيـبا

***

حلم الدعاة إلي ا

يقول ا تعـالي:{ فَاصـفَحِ الصـفْح الْجمِيـلَ }[الحجر:٨٥].

ويقول أيضـا:{ خُذِ الْعفْو وأْمر بِالْعرفِ وأَعـرِض عنِ الْجاهِلِين }
[الأعراف:١٩٩]

ففي هذين الموضعين يأمر ا عز وجل رسوله صـلى ا عليه وسلم بالصفح والعفو، وهذا ينبغي أن يتصف به كل الدعاة إلي ا عز وجل.

فعن ابن مسعود- رض ا عنه- قال: كأني أنظر إلي رسول ا صلى ا عليه وسلم يحكي نبيا مـن الأنبيـاء- صلوات ا وسلامه عليهم- ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقـول: اللهـم اغفـر لقـومي فـإنهم لا يعلمون(١).

ونري ذلك واضحا في شخصية هود عليه السلام، فتراه يقابل جهل قومه عليه بحلمه عليهم، يقول ا تعالي حكايـة عن قوم هود:{ إِنا لَنَراك فِي سفَاهةٍ وإِنا لَنَظُنـك مِـن

الْكَاذِبِين * قَالَ يا قَومِ لَيس بِي سفَاهةٌ ولَكِني رسـولٌ من رب الْعالَمِين * أُبلغُكُم رِسالاَتِ ربي وأَنَـا لَكُـم نَاصِح أَمِين }[الأعراف:٦٨:٦٦].

ومن حلم الدعاة إلي الله تعالي؛ الرفق في تعليم الجاهل والصبر علي جهله وغضبه، فعن أبي هريرة- رضـي الله عنه- قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعـوا فيه، فقال النبيصلى الله عليه وسلم: دعوه وأريقوا علي بوله سجلا من ماء، أو ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولـم تبعثوا معسرين(٢).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا(٣).

***

(١) رواه البخاري، هي: كلمة تهديد، الجزل: الكثير.

(١) متفق عليه.(٢) رواه البخاري.(٣) متفق عليه.